

الطبعة المصرية الخامسة للكتاب  
سلسلة أبحاث



رواية

مجزء سارا ماير

# انقطاعات في الموت

ترجمة: صالح عثمان

جوزيه سaramago

# انقطاعات الموت

العنوان الأصلي للكتاب

Jose Saramago  
As intermitências da morte 2005

إلى بيلار، بيتي.

إننا نعرف في كل مرة أقل  
ما هو كائن بشري.  
**كتاب التنبؤات**

تفكر في الموت أكثر وبامتياز، - وسيكون مستغرباً في الواقع  
ألا يكون عليك أن تعرف بسبب هذا الواقع حالات تشخيص جديدة،  
وميادين جديدة للغة.  
**ويتجنستاين**

في اليوم التالي لم يمت أحد. ولأن الحدث مخالف بالطلاق لأعراف الحياة، فقد أحدث ارتباكاً هائلاً في النفوس، وهذا تأثير مُسوغ بكل المعايير، إذ يكفي تذكر أنه لا وجود في مجلدات التاريخ الكوني الأربعين لخبر واحد، ولو عن حالة واحدة، بأن ظاهرة مشابهة قد وقعت ذات مرة، وأن يوماً كاملاً قد انقضى، بساعاته الأربع والعشرين العجيبة كلها، محسوبة بين نهارية وليلية، صباحية ومسائية، دون أن تحدث وفاة واحدة بمرض، أو سقطة قاتلة، أو انتشار مكتمل حتى النهاية، لا شيء من أي شيء، مثلاً هي كلمة لا شيء. ولا حتى واحد من حوادث السيارات تلك التي تتکاثر جداً في مناسبات الأعياد الاحتفالية، عندما يتناقض على الطرق العامة انعدام المسؤولية البهيج أو الإفراط في تناول الكحول أو كلاهما معاً لجسم من الذي سيصل إلى الموت أولاً. لكن نهاية السنة لم تحلف وراءها نشار الوفيات المعهودة والمفجعة، كما لو أن أترابوس<sup>(١)</sup> العجوز المتوعدة قد قررت أن تغمر مقصها طوال يوم كامل. ومع ذلك، كان هناك دم، ولم يكن قليلاً. وبحيرة، باضطراب، بربع، كان رجال الطافئ يسيطرون بمشقة على غثيانهم وهم يخرجون من بين الحطام أجساداً بشرية بائسة ممزقة لا بد لها، وفق المنطق الرياضي للتصادمات، أن تكون ميتة، بل مشبعة بالموت، ولكنها على الرغم من خطورة الجراح والخدمات المصابة بها، تظل حية عند نقلها وهي على تلك الحال إلى

---

<sup>(١)</sup> أترابوس (Átrapos) إحدى إلهات الجحيم الثلاث عند الرومان، وهي المسؤولة عن قص خيط حياة البشر.

المستشفيات، تحت دوي صفارات سيارات الإسعاف المنذرة. لم يمت أي شخص من هؤلاء في الطريق، وسيجدون جميعهم أشد النبوءات الطبية ت Shawmaً، هذا الشيطان البائس لا سبيل إلى إنقاذه، وليس هناك ما يستحق إضاعة الوقت بإجراء جراحة له، يقول الطبيب الجراح للممرضة وهي تثبت الكمامه على وجهه. وربما لم يكن ثمة خلاص بالفعل لذلك البائس في اليوم السابق، ولكن الأمر الجلي هو أن الضحية يرفض الموت في هذا اليوم. وما يحدث هنا، كان يحدث في كل أنحاء البلاد. فحتى انتصاف ليل اليوم الأخير من السنة بالضبط كان لا يزال هناك أناس تقبلوا أن يموتوها بأقصى امتنال وفي قواعد الموت المعهودة، سواء تلك المتعلقة بجوهر المسألة، أي قاعدة، لقد انتهت الحياة، أم تلك التي تستجيب لمختلف الأشكال - أي أشكال جوهر المسألة - التي تتخذها لحظة الموت، بهذا القدر أو ذاك من الأبهة واللوقار. والحالة المهمة على نحو خاص، نظراً لأهمية الشخصية المعنية، هي حالة الملكة الأم الجليلة والمسنة جداً. ففي الساعة الثالثة والعشرين وتسع وخمسين دقيقة من ذلك الحادي والثلاثين من كانون الأول (يناير) كان يبدو أنه من السذاجة المراهنة بعود ثقاب محروق مقابل حياة السيدة الملكية. لقد فقدت كل الآمال، واستسلم الأطباء حيال الأمر الجلي المحظوم، وكانت الأسرة المالكة تقف بتراتيتها حول السرير متقدمة باستسلام إطلاق الأم الكبيرة زفرتها الأخيرة، ربما بضع كلمات، حكمة تقوىأخيرة مؤثرة وبناءة في التكوين الأخلاقي لأحفادها الأمراء الأحباء، وربما جملة جميلة ومحكمة موجهة إلى ذاكرة الرعية المستقبلية الجاحدة على الدوام. وبعد ذلك، كما لو أن الزمن قد توقف، لم يحدث أي شيء. فالمملكة الأم لم تتحسن ولم تزدد سوءاً، بل ظلت كالمُعَلَّقة، جسدها الهش يتآرجح على حافة الحياة، متوعداً في كل لحظة بالسقوط إلى الجانب الآخر،

ولكنه مقيد إلى هذا الجانب بخيط رفيع لا يُعرف لأي نزوة غريبة يُبقي عليه الموت، لأنه لا يمكن أن يكون أحد سواه من يُبقي عليه. وهذا قد صرنا في اليوم التالي، وفيه، لم يكن هناك منذ بدايته خبر آخر سوى هذه القصة، لا أحد يموت.

كان المساء قد تقدم كثيراً عندما بدأت تنتشر الإشاعة بأنه، منذ بدء السنة الجديدة، وبدقة أكثر من ذى الساعة صفر من هذا اليوم الأول من كانون الثاني (يناير) الذي نحن فيه، لا يوجد دليل على حدوث حالة وفاة واحدة في البلاد. يمكن الظن، على سبيل المثال، أن منشأ الإشاعة هو مقاومة الملكة الأم المفاجئة للتخلص من الحياة القليلة المتبقية لديها، ولكن الصحيح أن التقرير الطبي المعهود الذي يوزعه المكتب الصحفي في القصر على وسائل الاتصال الاجتماعي لا يؤكد فقط أن الحالة العامة للمربيضة الملكية قد شهدت تحسناً ملحوظاً خلال الليل، بل إنها توحى، وحتى إنها تشير، باختيار دقيق للكلمات، إلى إمكانية استعادتها كامل صحتها بالغة الأهمية. ويمكن للإشاعة في أولى مظاهرها أن تكون قد انتطلقت بكل تلقائية من إحدى وكالات الجنائزات والدفن، يبدو أنه ليس هناك من هو مستعد لأن يموت في اليوم الأول من السنة. أو من مستشفى، هذا الشخص الذي في السرير رقم سبعة وعشرين لا يحل لا يربط. أو من ناطق باسم شرطة المرور، إنه أمر غامض حقاً، فعلى الرغم من وقوع حوادث كثيرة على الطرق العامة، إلا أنه لا وجود لدليل على أن شخصاً واحداً قد مات. والإشاعة التي لم يكتشف مصدرها قط، وإن يكن هذا الأمر ضئيل الأهمية على ضوء ما سيحدث في ما بعد، سرعان ما وصلت إلى الصحف، إلى الإذاعة، إلى التلفاز، وجعلت على الفور آذان المديرين، والمعاونين ورؤساء التحرير تتصبّت متيقظة، وهم أشخاص مهميون لأن يশموا عن بعد أحداث تاريخ العالم الكبّري، ومدرّبون على

تضخيمها كلما طلب الأمر ذلك، وخلال دقائق قليلة كان ينتشر في الشوارع صحفيو تحقيقات ميدانية يوجهون أسئلة إلى كل كائن حي يعرض طريقهم، بينما كانت المواتف في قاعات التحرير التي تغلي، تهتز وتترج بجنون تقصُّ واقعي. أُجريت مكالمات مع المستشفى، مع الصليب الأحمر، مع مستودع الجثث، مع وكالات الدفن، مع مراكز الشرطة جميعها، باستثناء الشرطة السرية لأسباب يمكن تفهمها، وكانت الإجابات تأتي دائمًا بالكلمات المقضبة نفسها، لا يوجد موتى. ومن كانت أوفر حظاً هي صحافية التحقيقات التلفزيونية الشابة تلك التي روى لها أحد المارة، وهو ينقل نظراته بينها وبين الكاميرا، واقعةً عashها شخصياً، هي نسخة مطابقة لواقعة الملكة الأم آنفة الذكر، فقد قال، كانت تتولى دقات منتصف الليل عندما فتح جدي عينيه، وكان يedo على وشك الوداع، ففتح عينيه فجأة عند الدقة الأخيرة من ساعة البرج، كما لو أنه ندم على الخطوة التي كان على وشك أن يخطوها، ولم يتمت. تحمست صحافية التحقيقات لما سمعته، ودون أن تولي اهتماماً لتوسلات الرجل واعتراضاته، أرجوك يا سيدتي، لا أستطيع، على أن أذهب إلى الصيدلية، فجدي بحاجة إلى الدواء، دفعته إلى داخل الوحدة المتقلقة وصرخت، تعال، تعال معي، فجدر لم يعد بحاجة إلى دواء، ثم أمرت على الفور بالعودة إلى استوديو التلفزيون، حيث كان يجري إعداد كل شيء في تلك اللحظة بالذات من أجل مناظرة بين ثلاثة اختصاصيين بالظواهر الخارقة للطبيعة، وهم ساحران واسعاً السمعة ومنجمة مشهورة، تمت دعوتهما بالسرعة القصوى من أجل التحليل وتقديم رأيهما حول ما بدأ يطلق عليه بعض الظرفاء، من أولئك الذين لا يحترمون شيئاً، تسمية إضراب الموت. وكانت الصحفية الواثقة تعمل منطلقةً من أشد الأخطاء خطورة، لأنها فسرت كلمات مصدر معلوماتها بمعنى أن جده المحضر قد ندم،

بالمعنى الحرفي، على الخطوة التي كان يوشك أن يخطوها، أي الموت، الوفاة، رعشة الساق، وبالتالي قرر التراجع. ومع ذلك، فإن الكلمات التي تلفظ بها الحفيد السعيد بالفعل، كما لو أنه قد ندم، كانت مختلفة اختلافاً جذرياً عن القول الحازم، لقد ندم. وكان يمكن لبعض إضاءات النحو الأولية وقدر أكبر من التالف مع الدقة المرنة لأزمنة الأفعال أن تجنبها الخطأ والتوبيخ التالي الذي كان على الصحفية المسكونة، وقد احمرت من الخجل والمهانة، أن تتحمّله من رئيسها المباشر. وما لم يكن بإمكان هذا وتلك أن يتصوراه هو أن الجملة المذكورة التي تلفظ بها الشخص المقابل في بث مباشر، ثم سُمعت في التسجيل الذي بنته نشرة أخبار الليل، سيفهمها ملايين الأشخاص بالطريقة الخطأ نفسها، مما انتهى إلى نتيجة مريكة، في مستقبل قريب جداً، تمثلت بنشوء حركة مواطنين مقتعمين قناعة راسخة بأنه يمكن قهر الموت بعمل إرادي بسيط، وبالتالي فإن الاختفاء غير المستحق لأشخاص كثيرين في الماضي كان يحدث بفعل ضعف معيّب في إرادة الأجيال السابقة. ولكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد. ذلك أن الأشخاص، دون أن يكونوا مضطرين إلىبذل أي جهد محسوس، سيظلون دون موت، ثم ظهرت حركة شعبية جماهيرية أخرى، مزودة برؤية مستقبلية أشد طموحاً، أعلنت أن حلم الإنسانية الأعظم منذ بدء الأزمنة، أي التمتع السعيد بحياة أبدية هنا على الأرض، قد تحول إلى خير لمنفعة الجميع، مثل الشمس التي تولد كل يوم والهواء الذي نتنفسه. وعلى الرغم من تناقض الحركتان، إذا صرّ هذا القول، على الناخبين أنفسهم، كانت هناك نقطة توصلت فيها الحركتان اتفاقاً، وذلك في اختيارهما لمنصب الرئيس الفخرى، بفضل سمو مكانته كرائد، ذلك الرائد الجسور الذي تحدى الموت وهزمه في اللحظة الحاسمة. ولم ثُغيراً، على حد علمنا، أية أهمية

لواقع أن ذلك الجد في يرقد حالة كوما عميق، ولا رجعة منها حسب كل المؤشرات.

مع أن كلمة أزمة ليست في الحقيقة هي الأكثر ملاءمة للتوصيف للأحداث شديدة التفرد التي نرويها، إذ سيكون من السخف، ومن غير المناسب، ومن التعدي على المنطق العام التكلم عن أزمة في وضع وجودي تميز بغياب الموت تحديداً، إلا أنه يمكن تفهم أن بعض المواطنين الغيورين على حقهم في الحصول على معلومات صادقة وحقيقة، كانوا يسألون أنفسهم، ويسأل بعضهم بعضاً، أية شياطين أصابت الحكومة التي لم تُبُدِ حتى الآن أدنى إشارة تدل على وجودها. صحيح أن وزير الصحة الذي استجوب وهو يمر في استراحة قصيرة بين اجتماعين، قد أوضح لصحفيين أنه بالنظر إلى عدم توافر معطيات كافية، فإن أي تصريح رسمي سيكون بالضرورة مبكراً، إننا نجمع الأخبار التي تصلنا من كافة أنحاء البلاد، ثم أضاف، والحقيقة أنه لا وجود في أي منها لذكر وفيات، ولكن، وكما هو متوقع، فقد أصابتنا المفاجأة مثلما أصابت العالم بأسره، وما زلنا غير مهيئين للإعراب عن فكرة أولية حول منشأ الظاهرة والتداعيات التي ستترتب عليها، سواء التداعيات الفورية المباشرة أو المستقبلية. وكان يمكن له أن يتوقف عند هذا الحد، وهو ما كان سيُشكّر عليه إذا ما أخذت في الاعتبار صعوبات الوضع، ولكن الاندفاع المعروف بطلب الهدوء من الناس بصدده كل شيء أو لا شيء، وإيقائهم هادئين في الحظيرة كيما كان، هذا الانتهاء لدى السياسيين، وخاصة إذا كانوا في الحكومة، تحول إلى طبيعة ثانية فيهم، كيلا نقول آلية، حركة ميكانيكية، اضطرته إلى إنهاء المداخلة بأسوأ طريقة، باعتباري المسؤول عن حقيقة الصحة، أؤكد لمن يسمعونني أنه لا وجود لأي مبرر للذعر، إذا كنت قد فهمت جيداً ما سمعته للتو، قال أحد الصحفيين

بنبرة أرادها ألا تبدو ساخرة جداً، فإن رأيك كوزير هو أن واقع عدم موت أحد أمر لا يدعو إلى الذعر، بالضبط، هذا هو ما قلته ولكن بكلمات أخرى، اسمح لي يا سيادة الوزير بأن أذكرك أنه حتى يوم أمس كان هناك أناس يموتون ولم يكن يخطر لبال أحد أن يكون ذلك مثيراً للذعر، هذا منطقي، فالموت أمر عادي، ولا يثير الموت الذعر إلا عندما يتکاثر، كما في حرب أو وباء على سبيل المثال، هذا يعني عند خروجه عن المألوف، يمكنك قول ذلك، ولكنك تأتي الآن، حين لا يوجد من هو مستعد للموت، لطلب منا ألا نصاب بالذعر، وهذا كما يبدو لي ينطوي على تناقض على الأقل، إنها قوة العادة، وأعترف أن مصطلح الذعر لا مجال له هنا، ما الكلمة الأخرى التي تستخدمها إذاً أيها السيد الوزير، وأسألك لأنني كصحفي واع لواجباتي التي أدعيعها، أهتم باستخدام المصطلح الدقيق كلما كان ذلك ممكناً. استاء الوزير قليلاً من الإلحاح، ورد بجفاء، ليست كلمة واحدة، وإنما أربع، ما هي أيها السيد الوزير، ألا نفدي آمالاً زائفة. كان يمكن للعبارة أن تكون، دون شك، عنواناً جيداً ونزيهاً لجريدة اليوم التالي، غيرأن المدير، وبعد التشاور مع رئيس تحريره، قدر أنه من غير الملائم، حتى من وجهة نظر مصلحة العمل، إلقاء دلو الماء البارد هذا على الحماسة الشعبية، فقال، ضع العنوان المعهود نفسه، سنة جديدة، حياة جديدة.

في البيان الرسمي الذي بُث أخيراً، بعد أن تقدم الليل، أقر رئيس الحكومة بأنه لم تُسجل حالة وفاة واحدة في كل أنحاء البلاد منذ بدء السنة الجديدة، وطالب بالالتزام والإحساس بالمسؤولية في التحاليل والتفسيرات التي قد تدور حول الحدث، مذكراً بأنه لا يمكن استبعاد أن يكون الأمر مجرد مصادفة طارئة نتيجة اضطراب كوني عارض وبلا استمرارية، بسبب توافق استثنائي لمصادفات دخيلة على تعادلية

المكان - الزمان، وتحسباً لذلك بدأت اتصالات استطلاعية مع المنظمات الدولية المختصة من أجل تهيئة الحكومة لعمل أكثر فعالية وبأقصى قدر ممكن من التسبيق. وبعد عرض هذه المزاعم العلمية المبهمة، الموجهة كذلك، بفعل عدم قابليتها لفهم، لتهedia الهرج والمرج السائد، انتهى الوزير الأول إلى تأكيد أن الحكومة مهياً لكل الاحتمالات التي يمكن تخيلها بشرياً، ومصممة على أن تواجه بشجاعة، وبمساعدة المواطنين الضرورية، المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية المعقدة التي ستتشاء دون ريب عن انقطاع الموت بصورة نهائية، في حالة تأكد ذلك، وهو أكثر من متوقع. وهتف بنبرة حادة، ستنقبل تحدي خلود الجسد إذا كانت هذه هي مشيئه الرب الذي نحمده بصلواتنا على الدوام، لأنه اختار شعب هذه البلاد الطيب ليكون أداته. هذا يعني، فكر رئيس الحكومة عند انتهاء القراءة، أن الحبل يحيط بعنقنا. ولم يكن بإمكانه أن يتصور إلى أي حد سيضغط عليه الحبل. وقبل انتضائه نصف ساعة، وبينما هو في السيارة التي تقله إلى بيته، تلقى مكالمة من الكردينا، مساء الخير أيها السيد الوزير الأول، مساء الخير يا صاحب الغبطة، إنني أتصل بك لأطلعك على شعوري العميق بالذهول، وأنا أيضاًأشعر بالذهول يا صاحب الغبطة، فالوضع خطير جداً، أخطر وضع عاشته البلاد حتى اليوم، ليس هذا ما أعنيه، ما الذي تعنيه إذاً غبطتك، مؤسف جداً، ومن كل الوجوه، أن حضرتك حين حررت التصريح الذي استمعتُ إليه للتو لم تأخذ في الاعتبار ما يشكل مرتكزات ديانتنا المقدسة ودعامتها الأساسية وحجر الزاوية فيها، المعدرة يا صاحب الغبطة، أخشى أنني لم أفهم ما تود الوصول إليه، من دون الموت، واسمعني جيداً أيها السيد الوزير الأول، من دون الموت لا وجود للأنبعثات، ومن دون الانبعاث لا وجود للكنيسة، يا

للسياطين، لم أسمع ما قلتَه، كررها من فضلك، كنتُ صامتاً يا صاحب الغبطة، ربما هو تداخل سببه الكهربة الجوية، أو مشكلة في التغطية، فالقمر الصناعي يغيب أحياناً، وحضرتك كنتَ تقول، كنتُ أقول ما على كل كاثوليكي أن يعرفه، وحضرتك لست استثناء، بدون انبعاث لا وجود للكنيسة، أضف إلى ذلك، كيف استقر في ذهنك أنه يمكن للرب أن يشاء نهايته، تأكيد ذلك فكرة مدنسة للمقدسات، وربما هيأسوا من التجديف، لم أقل يا صاحب الغبطة إن الرب يريد نهايته، لم تقله بهذه الكلمات بالضبط، ولكنك قبلت إمكانية أن يكون خلود الجسد مشيئة من الرب، ولا حاجة لأن يكون المرء دكتوراً في المنطق المتعالي كي يعرف أن من يقول هذا إنما يقول ذاك، أرجوك يا صاحب الغبطة، صدقني، كانت مجرد جملة موجهة للتأثير، مجرد إنهاء للخطبة ولا شيء أكثر، وتعرف جيداً أن السياسة بحاجة لهذه الأمور، والكنيسة تحتاج إليها أيضاً أيضاً السيد الوزير الأول، ولكننا نفكر كثيراً قبل أن نفتح فمنا، لا نتكلم مجرد الكلام، نقدر التأثيرات عن بعد، فاختصاصنا، إذا ما أردتَ صورة ي تكون فهمها أفضل، هو القذائف الموجهة، إنني حزين يا صاحب الغبطة، لو أنني مكانك كنتُ كذلك. وتوقف الكردينال عن الكلام، كما لو أنه يُقدّر الوقت الذي تحتاجه الرمانة اليدوية لتسقط، وقال بعد ذلك بلهجة أكثر نعومة و Moderator، أحب أن أعرف إن كنتَ قد أطلعت جلالته على التصريح قبل أن تقرأه أمام وسائل الاتصال الاجتماعي، بالطبع يا صاحب الغبطة، فالامر يتعلق بموضوع بالغ الحساسية، وماذا قال الملك، إذا لم يكن ذلك سراً من أسرار الدولة، بدا له جيداً، هل علق بشيء بعد أن أنهى قراءته، رائع، ما هو الرائع، هذا ما قاله جلالته، رائع، أنت تعني أنه قد جدف أيضاً، لست مخولاً بإصدار أحكام من هذا النوع، لاسيما وأن عيشي بأخطائي

الذاتية يكفي مشقة كبيرة، لا بد لي من التكلم مع الملك، وأن أذكره أنه في مثل هذا الوضع شديد الاضطراب وبالغ الحساسية، لا يمكن إنقاذ البلاد من الفوضى المخيفة التي تنقض علينا إلا بالحفظ على الإيمان وعدم إضعاف التعاليم الراسخة لكنيسة الأم المقدسة، غبطتك من يقرر، فأنت في مهامك، سأسأل جلالته ما الذي يفضل له، رؤية الملكة الأم محضرة إلى الأبد، ممددة في فراشها الذي لن تعود إلى النهوض منه، بينما الجسد الدنس يتحجر روحها دون وقار، أم رؤيتها تفوز في موتها بمجد السموات الأبدي والتألق، ليس هناك من يتrepid في الجواب، أجل، ولكن خلافاً لما تظنه، ليست الإجابات هي ما يهمني كثيراً يا سيادة رئيس الوزراء، وإنما الأسئلة، وأعني بكل تأكيد أسئلتنا نحن، لاحظ كيف يكون لأسئلتنا، في آن واحد، هدف ظاهر للعيان ونية مخبأة في الخلف، وإذا كان نوجهاً فلسنا نفعل ذلك فقط كي يردوا علينا بما نحتاج في هذه اللحظة أن يسمعه المستجوبون من أفواههم بالذات، وإنما كذلك من أجل تهيئة الطريق للإجابات المستقبلية، مثلما هي الحال في السياسة إلى هذا الحد أو ذاك، يا صاحب الغبطة، وهو كذلك، غير أن مزية الكنيسة في أنها، وإن كان ذلك غير ظاهر أحياناً، عندما تتدبر ما هو فوق، تحكم ما هو أسفل. ساد صمت جديد، قطعه الوزير الأول، إنني على وشك الوصول إلى بيتي يا صاحب الغبطة، ولكن إذا سمحت لي فإني ما زلت راغباً في استطلاع رأيك في قضية موجزة، أخبرني بها، ما الذي ستفعله الكنيسة إذا لم يعد يموت أحد على الإطلاق، على الإطلاق هو وقت طويل جداً، حتى عندما يتعلق الأمر بالموت أيها السيد رئيس الوزراء، أظلن أنك لم تجني يا صاحب الغبطة، أعيد إليك السؤال، ما الذي ستفعله الدولة إذا لم يعد يموت أحد على الإطلاق، ستحاول الحكومة أن تظل على قيد الحياة، وإن كنتُ أشك كثيراً في أنها

ستتمكن من ذلك، ولكن ماذا عن الكنيسة، الكنيسة أيها السيد رئيس الوزراء معتادة بطريقة ما على الإجابات السرديّة، بحيث لا يمكنني تصورها تقدم إجابات أخرى، حتى لو ناقضها الواقع، منذ البدء لم تفعل شيئاً آخر سوى مناقضة الواقع، وهانحن موجودون هنا، وما الذي سيقوله البابا، لو أتيت كنـت البابا، وليففر لي الرب هذه الحماقة في التفكير أن أكونه، لأمرت بأن توضع في التوزيع أطروحة جديدة، أطروحة الموت المؤجل، دون مزيد من التوضيحات، لم يُطلب من الكنيسة قط أن تقدم تفسيرات لهذا الأمر أو ذاك، فاختصاصنا الآخر، إضافة إلى القذائف الموجهة، هو تحديد الروح بالإيمان، طابت ليـتك يا صاحب الغبطة، وإلى اللقاء غداً، إذا شاء الرب ذلك يا سيادة الوزير الأول، ودوماً إذا شاء الرب، في الوضع الذي تمضي به الأمور حالياً، لا يبدو أنه بالإمكان تجنب ذلك، لا تنسـ أيها السيد رئيس الوزراء أن الناس خارج حدودنا مازالوا يموتون بصورة عادـية تماماً، وهذه إشارة طيبة، مسألـة وجهـة نظرـيا صاحـبـ الغـبـطةـ، فـربـماـ هـمـ يـنظـرونـ إـلـيـنـاـ فـيـ الـخـارـجـ عـلـىـ أـنـنـاـ وـاحـدةـ، حـديـقـةـ، فـرـدوـسـ جـديـدـ، أوـ جـحـيمـ، لـوـ كـانـواـ أـذـكـيـاءـ، طـابتـ ليـتكـ ياـ صـاحـبـ الغـبـطةـ، وـأـتـمنـيـ لـكـ أـحـلـامـ هـادـئـةـ وـمـعـوـضـةـ لـلـنـشـاطـ، طـابتـ ليـتكـ أيـهاـ السـيدـ الوزـيرـ الأولـ، وـإـذـاـ ماـ قـرـرـ الموـتـ أـنـ يـعـودـ هـذـهـ الـلـيـلـةـ، فـأـمـلـ أـلاـ يـخـطـرـ لـهـ أـنـ يـخـتـارـ حـضـرـتـكـ، لـوـ لـمـ تـكـنـ العـدـالـةـ فـيـ هـذـاـ الـعـالـمـ مجـرـدـ كـلـمـةـ فـارـغـةـ، لـتـوجـبـ أـنـ تـكـوـنـ الـمـلـكـةـ الـأـمـ هيـ مـنـ تـغـادـرـ قـبـليـ، أـعـدـكـ بـأـلـاـ أـشـيـ بـكـ غـدـاـ لـلـمـلـكـ، لـكـمـ أـنـاـ شـاـكـرـ لـكـ ياـ صـاحـبـ الغـبـطةـ، طـابتـ ليـتكـ، طـابتـ ليـتكـ.

في الساعة الثالثة فجراً كان لا بد من نقل الكردينال بأقصى سرعة إلى المستشفى مصاباً بالتهاب حاد مفاجئ في الزائدة الدودية مما تطلب مداخلة جراحية فورية. وقبل أن يمتصه نفق التخدير، في

تلك اللحظة العابرة التي تسبق فقدان الوعي الكامل، فكر في ما فكر فيه كثيرون آخرون، بأنه قد يموت خلال العملية الجراحية، ثم تذكر أن ذلك لم يعد ممكناً، وأخيراً، في وضة الصحو الأخيرة، مرت في ذهنه فكرة أنه إذا ما مات حقاً، على الرغم من كل شيء، فإن ذلك سيعني أنه قد هزم الموت، مع ما ينطوي عليه الأمر من تناقض ظاهري. وسيطرت عليه لففة لا تقاوم في التضحية بنفسه، وكان على وشك أن يتسلل إلى الرب أن يُميته، ولكن الوقت لم يُتح له صياغة الكلمات بانتظام. لقد وفر عليه المخدر ذلك التوسل المنس لل المقدسات الذي يريد به أن يحول سلطة الموت إلى اختصاص رب معروف عموماً بأنه واهب الحياة.

على الرغم من أنه يمكن له أن يكون موضع تهكم الصحف المنافسة التي استطاعت أن تتزعز من إلهام محرريها الأساسيين أشد أنواع العناوين الرئيسية تنوّعاً وجوهريّة، دراميّيّة حيناً، وغنائيّة في أحيان أخرى، وإن كان قلة منها فلوفي أو صوفي، حين لا تكون ذات سذاجة مؤثرة، كما هو عنوان جريدة شعبية اكتفت بالسؤال، وماذا سيحل بنا الآن، مضيفة في النهاية عالمة خطية متباهية تتمثل في إشارة استفهام هائلة، فإن العنوان موضوع تعليقنا عام جديد، حياة جديدة، قد وقع، على الرغم من ابتداله المحزن، كالعسل على رقائق الحلوى لدى بعض الأشخاص الذين يفضلون قبل كل شيء، بفعل مزاجهم الطبيعي أو تربیتهم المكتسبة، ترسّيخ نوع من التفاؤل البرجماتي إلى هذا الحد أو ذاك، حتى عندما تكون لديهم أسباب للارتياح في أن الأمر محض ظاهري، وربما عابر وسريع الزوال. فيبعد أن عاشوا، حتى أيام الاضطراب هذه، في العالم الذي كانوا يظنون أنه أفضل العالم الممكنة والمحتملة، سيكتشفون بسعادة أن الأفضل، والأفضل حقاً، يأتي الآن، وأنه صار في متداول اليد، أمام باب البيت، إنه حياة وحيدة، رائعة، دون الخوف اليومي من صرير مقص باركا، إنه الخلود في الوطن الذي منحنا الوجود، الخلود بمنجي من المخاوف المأورائية، ومجاناً للجميع، دون مغلف مختوم بالشمع يُفتح في لحظة الموت، أنت إلى الفردوس، وأنت إلى المطهر، وأنت إلى الجحيم، في هذا المفترق الذي كان في أزمنة

أخرى، أيها الزملاء الأعزاء في وادي الدموع هذا المدعو الأرض، مفترقاً فاصلةً لتحديد مصيرنا في العالم الآخر. وهكذا لم تجد الصحف المتحفظة أو الإشكالية حلاً آخر، ومعها محطات التلفزة، وكذلك الإذاعات المماثلة، سوى الانضمام إلى مد السعادة الجماعية العالي الذي راح ينتشر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، مُنعشاً الأذهان الخائفة ومُبعداً عن الأنوار شبح الموت الطويل. ومع مرور الأيام، ورؤيه أن أحداً لا يموت حقاً، أخذ من كانوا في أول الأمر متشككين ومرتابين بالانضمام، رويداً رويداً في البدء، وبصورة جماعية بعد ذلك، إلى الموجة الهائلة من المواطنين الذين انتهزوا كل الفرص المتاحة للخروج إلى الشارع والإعلان، والصرخ، أن الحياة، أجل، الحياة صارت جميلة.

وفي أحد الأيام، كانت هناك سيدة متزمرة حديثاً، لم تجد طريقة أخرى للإعراب عن سعادتها الجديدة التي غمرها بها الوجود، وإن كان صحيحاً أنها تشعر بأسى خفيف لعلمتها بأنها لن تتمكن أبداً من الالتقاء بمنيتها الذي يكتبه، لأنها لن تموت، فخطرت لها فكرة تعليق العلم الوطني في الشارع، على شرفة قاعة طعام بيتها المزهرة، وحدث ما يمكن تسميته إقران القول بالعمل. ففي أقل من ثمان وأربعين ساعة انتشر رفع الأعلام في البلاد بأسرها، واحتلت ألوان ورموز العلم المشهد، وبازدياد ملحوظ في المدن لسبب واضح هو تمعتها بوجود شرفات ونوافذ أكثر بكثير مما هو موجود في الأرياف. وكان من المستحيل مقاومة الحماسة الوطنية، لاسيما وأنه بدأت تنتشر، دون أن يدرى أحد من أين تصل، بعض التصريحات المثيرة للقلق، كيلا نقول المتوعدة بصراحة، منها على سبيل المثال، من لا يعلق راية الوطن الخالدة على نافذة بيته لا يستحق أن يكون حياً، من لا يرفعون العلم الوطني ظاهراً بوضوح فإنما يفعلون ذلك لأنهم باعوا أنفسهم للموت،

انضم إلى الجميع، كن وطنياً، اشتراية، اشتراكياً، اشترا واحداً آخرى إضافية، فليسقط أعداء الحياة، ومن حسن حظهم أنه لم يعد هناك موت. كانت الشوارع ميداناً حقيقياً لبفارق تحقق مع الريح، إن هبّت، وإن لم تهب، فإن مروحة كهربائية موضوعة ببراعة تقوم بهذه المهمة، وإذا كانت قوة الجهاز غير كافية كي يتحقق العلم برجولة، وجعله يُصدر فرقيعات السوط تلك التي تهيج النفوس الحربية، فإنها تتيح على الأقل أن تتموج ألوان الوطن بصورة مشرفة. كان بعض الأشخاص، وهم قلة، يهمسون بحذر شديد أن في ذلك مبالغة، هراء، فعاجلأً وليس آجلاً لن تكون هناك وسيلة أخرى سوى سحب غابة الأعلام المشابكة تلك، وكلما عجلنا بعمل ذلك يكون أفضل، لأنه بالطريقة نفسها التي تؤدي زيادة كمية السُّكَّر في حلوى البدون إلى إفساد المذاق وإرباك عملية الهضم، فإن الاحترام الطبيعي والعادل للرموز الوطنية ينتهي بالتحول إلى سخرية إذا ما سمحنا له بالانزلاق لأن يشكل اعتداء على الحياة، مثل محبي الظهور بمعاطفهم المطالية سيئ الذكر. أضف إلى ذلك، يقولون، إذا كانت الرایات قد رُفعت للاحتفال بواقع أن الموت توقف عن القتل، فلدينا أحد احتمالين، إما أن نسحبها قبل أن يدفعنا الضجر إلى البدء بمقت رموز الوطن، وإما أننا سُمْضي حياتنا، هذا يعني السردية، أجل، لم نخطئ القول، السردية، ونحن نستبدلها في كل مرة يعفنها المطر، أو تمزقها الرياح، أو تذهب الشمس بألوانها. قلة هم الأشخاص الذين كانت لديهم الشجاعة لأن يضعوا على هذا النحو، أمام الملأ، إصبعهم على الجرح، وكان هناك رجل بائس دفع ثمن بوحه اللاوطني ضريباً مبراً، وإذا كان ذلك الضرب لم ينه حياته هناك بالذات، فإنما السبب هو أن الموت قد توقف عن عمله في هذه البلاد منذ بداية العام.

لم يكن كل شيء احتفالاً، لأنه إلى جانب بعض من

يضحكون، سيكون هناك على الدوام آخرون يبكون، ويفعلون ذلك أحياناً للأسباب نفسها، كما هو الأمر في هذه الحالة. فقطاعات مهنية مهمة أُصيبت بقلق جدي من الوضع، وبدأت تبت التعبير عن استيائها حيال ما يحدث. ومثلاً هو متوقع، جاءت أولى الشكاوى الرسمية من مؤسسات التجارة الجنائزية. فأربابها الذين جردوها بفظاظة من مادة تجارتهم الأولية بدؤوا بحركة رفع الأيدي إلى الرؤوس التقليدية وهم يئتون شاكين في جوقة، ماذا سيحل بنا الآن، ولكنهم بعد ذلك، وحيال كارثة الإفلاس الآتية التي لن ينجو منها أحد من نقابة الجنائز، دعوا إلى جمعية عمومية للعاملين في القطاع، وفي نهايتها، بعد خطابات حامية، وكلها دون جدوى، لأنها جميعها بلا استثناء كانت تصطدم بجدار منيع يتمثل بعدم تعاون الموت، ذلك التعاون الذي اعتادوا، من الآباء إلى الأبناء، على أنه حق طبيعي لهم، صادقوا على وثيقة تُقدم لعنایة حکومۃ الأمة، ووثيقة تتبنی الاقتراح الوحید البناء الذي طُرح للنقاش، اقتراح بناء، أجل، وإن يكن مضحكاً. سوف يسخرون منا، نبه رئيس مائدة النقاش، ولكنه اعترف بأنه لا وجود لمخرج آخر، فإذا ما هذا الاقتراح، وإنما دمار القطاع وإفلاسه. وتعلن الوثيقة أنه، في اجتماعهم في جمعية عمومية استثنائية للنظر في الأزمة الخطيرة التي تداولوا فيها بسبب انعدام التموين بالموتي في كافة أنحاء البلاد، توصل ممثلو الوکالات الجنائزية، بعد تحليل مکث ومشترك، سيطر عليه طوال الوقت احترام مصالح الأمة العليا، توصلوا في النتيجة إلى أنه مازال بالإمكان تجنب نتائج دراماتيكية لما سيسجله التاريخ كأسوا نكبة جماعية حلّت بنا منذ تأسيس الأمة، وهذا يعني أن تقرر الحكومة الإعلان عن إجبارية دفن أو إحراق جثث كافة الحيوانات المنزلية التي تموت موتاً طبيعياً أو بحادث، وأن يكون انجاز أعمال الدفن تلك إجبارياً - بعد وضع

الأنظمة الالزمة والمصادقة عليها - من اختصاص الصناعة الجنائزية، آخذين في الاعتبار المزايا التي قدمتها هذه الصناعة حين كانت خدمة عامة حقيقة في الماضي، ويعتبر أدق، أجيالاً بعد أجيال. وتواصل الوثيقة، نطالب أيضاً بأفضل اهتمام من جانب الحكومة للنظر في واقع أن إعادة صناعتنا إلى سابق عهدها لن يكون ممكناً دون توظيف استثمارات ضخمة، ذلك أن الأمر ليس نفسه، فهناك اختلاف بين دفن كائن بشري، وبين أن نقل إلى مثواه الأخير قطاً أو طائر كناري، ولماذا لا نقول فيلاً من سيرك أو تمساح حوض مائي، ولا بد بالتالي من إجراء تعديل من أعلى إلى أسفل على تقاليدنا المتعارف عليها، مستفيدين من دعم العناية الإلهية لهذا التحدي الذي لا مفر منه للخبرة المكتسبة منذ الاعتراف الرسمي بمقابر الحيوانات، وبكلمة أخرى، فإن هذا الميدان الذي لم يكن يمثل حتى الآن سوى جزء هامشي من صناعتنا، وإن كنا لا ننكر أنه مربح جداً، سيتحول من جهة أخرى إلى نشاطنا الوحيد، وسيجنبنا ضمن حدود الإمكان، فصل المئات إن لم يكن الآلاف من العاملين المتقانين والقيمين ممن واجهوا ببسالة، طوال أيام حياتهم، صورة الموت الرهيبة، والذين يدير لهم الموت ظهره الآن بصورة مهينة، بعد عرض ما نرجوه منكم يا سيادة رئيس الوزراء، وبالنظر إلى ما تستحقه مهنتنا من حماية، وهي مهنة اعتبرت ذات نفع عام على امتداد آلاف السنين، نأمل أن تتفضل وتأخذ في الاعتبار، ليس فقط ضرورة الإسراع في اتخاذ قرار مؤيد، وإنما كذلك، وبصورة موازية، افتتاح خط قروض مخفضة، أو ما هو أفضل، وما سيكون ذهباً على أزرق، أو ذهبياً على أسود، وهذا هما لونانا الجنائزيان، كيلا نقول ما يمثل أدنى حدّ من العدالة الأولية، منحنا قروضاً لا تُرد تساعد على تشيطٍ وتأهيل سريع لقطاع يتعرض وجوده للتهديد أول مرة في التاريخ، وما قبله بكثير، في كافة حقب

ما قبل التاريخ، إذ لم تفقد جثة بشرية قط من يأتي لدفنها، عاجلاً أو آجلاً، ولو اقتصر الأمر على تغطيتها بتراب الأرض السخية. وبكل احترام نلتمس من سيادتكم الاستجابة لطلبنا.

ولم يتأخر كثيراً كذلك مدир واداريو المستشفيات، سواء الحكومية منها أو الخاصة، في طرق باب وزير فرع اختصاصهم، أي وزير الصحة، للإعراب أمام الجهات المختصة عن قلقهم وجزعهم المرتبطين، مهما بدا ذلك مستغرباً، بمسائل لوجستية أكثر مما هي صحية. وكانوا يؤكدون أن العملية الدوارة المعهودة بمرضى يدخلون، ومرضى يشفون، ومرضى يموتون قد تعرضت لانقطاع في الدارة، إذا صح هذا القول، أو إذا شئنا التحدث بمصطلحات أقل تقنية، تعرضت لازدحام وعرقلة في حركة السيير، كما السيارات، والسبب يكمن في البقاء غير المحدود لعدد متزايد باضطراد من المرضى الداخليين بسبب خطورة أمراضهم أو الحوادث التي كانوا ضحية لها وكانت ستودي بهم، لو أن الظروف طبيعية، إلى الحياة الأخرى. الوضع صعب، كانوا يتعللون، فقد بدأنا نضع المرضى في الممرات - ونعني - أكثر مما هو معهود عادة، وكل شيء يشير إلى أنه خلال أقل من أسبوع سنصطدم ليس فقط بقلة الأسرة، وإنما كذلك بعدم معرفة أين نضع الأسرة التي مازالت متوازرة، بعد امتلاء الممرات والقاعات، وعدم وجود أمكنة وصعوبة التحرك. صحيح أن هناك طريقة لحل المشكلة، انتهى المسؤولون عن المستشفيات إلى القول، وإن كان هذا الحل يخالف قسمَ أبوقراط، والقرار، في حال اتخاذه، لا يمكن أن يكون طبياً ولا إدارياً، بل يجب أن يكون سياسياً. ولأن وزير الصحة يفهم جيداً وتكفيه نصف الكلمة، فقد عمد، بعد استشارة رئيس الوزراء، إلى إصدار البيان التالي، آخذين في الاعتبار الازدحام المتزايد للنزلاء الداخليين الذي بدأ يضر بصورة جدية بسير العمل الممتاز حتى الآن في

نظام مستشفياتنا، ونتيجة مباشرة لازدياد أعداد الأشخاص الذين هم في حالة حياة معلقة وسيبقون على هذه الحال لزمن غير محدود، دون أية إمكانية في الشفاء أو حتى مجرد التحسن، على الأقل إلى أن يتوصل البحث الطبي إلى الأهداف الجديدة التي وضعها نصب عينيه، فإن الحكومة تصح وتوصي إدارات المشافي بأن تعمد، بعد تحليل صارم للوضع الـاـكـلـيـنيـكي للمرضى الذين هم في هذه الحال، كل حالة على حدة، وبعد التأكد من انعدام إمكانية تحسن كل حالة ممن هم في وضع احتضاري، تسليمهم لرعاية أسرهم، مع تعهد الجهات الصحية مسؤولية بأن توفر للمريض، دون تحفظ، كل وسائل العلاج والفحوص التي يرى الأطباء المشرفون عليهم أنها ضرورية وينصحون بها. ويستند قرار الحكومة هذا إلى مقدمة سهلة ومقبولة من جانب الجميع، بأن أي مريض في مثل هذا الوضع، أي على حافة الموت الذي يُنـكـر عليه، سيكون أقل من مبالي، حتى في لحظة صحو عابرة، بالمكان الذي هو فيه، سواء أكان في حضن أسرته الحانـيـة أم في قاعة أحد المستشفيات الزدحـمـة، لاسيما أنه لن يتمكن من الموت أـكـانـ هنا أمـ هناكـ، مثـلـاـ لنـ يـتـمـكـنـ هناـ أوـ هـنـاكـ منـ استـعادـةـ عـافـيـتـهـ. وترـيدـ الحـكـومـةـ أنـ تـتـهـزـ هذهـ الفـرـصـةـ لـتـطـلـعـ الأـهـالـيـ بـتـوـاصـلـ الإـيقـاعـ المـتـسـرعـ لـلـأـعـمـالـ الـبـحـثـيـةـ الـتـيـ سـتـوـصـلـنـاـ، وـهـذـاـ ماـ نـأـمـلـ بـهـ وـنـقـ فـيـهـ، إـلـىـ مـعـرـفـةـ مـرـضـيـةـ لـأـسـيـابـ اـخـتـفـاءـ الـمـوـتـ الـمـفـاجـئـ الـتـيـ مـازـالـتـ غـامـضـةـ حـتـىـ الـلـحـظـةـ. وـتـطـلـعـ الرـأـيـ الـعـامـ فـيـ الـوـقـتـ نـفـسـهـ عـلـىـ أـنـ لـجـنـةـ مـوـسـعـةـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـمـذاـهـبـ، تـضـمـ مـمـثـلـيـنـ عـنـ مـخـتـلـفـ الـدـيـانـاتـ سـارـيـةـ الـمـفـعـولـ وـفـلـاسـفـةـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـمـدارـسـ النـاشـطـةـ، وـهـيـ جـهـاتـ لـهـاـ كـلـمـتهاـ فـيـ هـذـهـ الـأـمـورـ، قـدـ تـولـتـ الـمـهـمـةـ الـحـسـاسـةـ فـيـ التـأـمـلـ حـوـلـ مـاـ سـيـكـونـ عـلـيـهـ مـسـتـقـبـلـ بـلـ مـوـتـ، وـسـتـحـاـوـلـ فـيـ الـوـقـتـ نـفـسـهـ صـيـاغـةـ تـدـابـيرـ مـعـقـولـةـ لـلـمـشـاـكـلـ الـجـدـيـدـةـ الـتـيـ سـيـضـطـرـ الـمـجـتمـعـ إـلـىـ مـوـاجـهـتـهـ، وـأـوـلـيـ

تلك المشكلات هي التي اختصرها البعض بهذا السؤال القاسي، ما الذي سنفعله بالمسنين إذا لم يعد الموت موجوداً ليقطع عليهم المفرط بالحياة المديدة.

بيوت المتقدمين في السن ممن تجاوزوا مرحلة العمرية الثالثة أو الرابعة، تلك الهيئات الخيرية التي أنشئت لراحة عائلات لا تجد الوقت ولا الصبر لتنظيف المخاط، ورعاية العضلات المنهوبة والنهوض في الدليل لوضع المبولة، لن تتأخر طويلاً، مثلاً حدث لمستشفيات ومؤسسات الدفن، في ضرب رأسها بحائط المبكى. ومن أجل إحقاق العدالة من يستحقها، لا بد لنا من الاعتراف بأن الحيرة التي ترازعتهم بين مواصلة أو عدم مواصلة استقبال نزلاء، كانت أحد أشد أشكال الحيرة غماً التي يمكن لها أن تتحدى الجهود الدقيقة والموهبة التخطيطية لأي قيم على إدارة الموارد البشرية. في البدء، لأن المحصلة النهائية، وهذا ما يميز العضلات الحقيقية، ستكون على الدوام هي نفسها. فهم المعتادون حتى الآن، مثل زملائهم أصحاب الحفنة الوريدية وإكليل الزهور ذي الشريط البنفسجي، على الثقة بتواصل وعدم توقف دورة الحياة والموت، أحدهما يأتي داخلاً والآخر يمضي خارجاً، لم تكن دور المسنين ترحب قط ولو بالتفكير في مستقبل عمل لا تتقل فيه أهداف عنایتها من الوجه والجسد، إلا لجعلهما أكثر مداعاة للرثاء في كل يوم يمر، وأكثر انحطاطاً، وأكثر توعكاً وتحللاً بصورة محزنة، الوجه ينكمش بتجدد بعد تجدد، مثل حبة زبيب عنب، الأعضاء ترتجف وتتردد، مثل سفينية تمضي دون طائل بحثاً عن البوصلة التي وقعت في البحر. فقد كان كل نزيل جديد مصدر بهجة لبيوت الأول السعيد على الدوام، له اسم سيكون من الضروري حفظه في الذاكرة، وعادات خاصة مجلوبة من العالم الخارجي، ونزلوات تميزه وحده، مثل ذلك الموظف المتقاعد الذي عليه في كل يوم

أن يغسل بعمق فرشاة الأسنان لأنه لا يطيق رؤية بقايا معجون أسنان عليها، أو تلك العجوز التي ترسم أشجاراً لأجيال عائلتها ولا تُصيب أبداً في الأسماء التي عليها أن تعلقها على الأغصان. ولبضعة أسبوع، إلى أن يساوي الروتين الاهتمام المتوجب بالنزلاء، سيكون هذا النزيل هو الجديد، ومدلل الجماعة، وسيكون كذلك للمرة الأخيرة في حياته، حتى لو استمرت أبداً، هذه الأبدية التي تسقط - مثلاً يقال عادة عن الشمس - على جميع سكان هذه البلاد المحظوظة، نحن الذين نرى انطفاء نجم النهار ونظل أحياء، دون أن يدرى أحد كيف أو لماذا. أما الآن، فالنزيل الجديد، اللهم إلا إذا كان يشغل منصباً مازال موجوداً ويُثري ميزانية البيت، سيكون شخصاً مصيره معروف سلفاً، لن نراه يخرج من هنا ليموت في بيته أو في المستشفى، مثلاً كان يحدث في الأذمنة الغابرة، حين كان نزلاء آخرون يوصدون أبواب غرفهم بالمفتاح على عجل، كيلا يدخل الموت ويأخذهم هم أيضاً، ونحن نعلم أن ذلك كله من أمور ماض لمن يعود، غير أنه على أحد في الحكومة أن يفكّر في مصيرنا، فالمصير الذي ينتظروننا نحن، وكلاء، ومديري، وموظفي بيوت الأفول السعيد، هو أنه لن يوجد من يتلقّانا عندما تحين الساعة التي يكون علينا فيها أن ننزل أذرعنا، لاحظ أننا لم نعد أسياداً كذلك لما كان بطريقة ما ملكاً لنا، على الأقل بسبب العمل الذي تكالّفنا به طوال سنوات وسنوات، وهنا لابد أن يُفهم أن الكلمة صارت للموظفين، وما نريد قوله إنه لن يكون ثمة مكان لهؤلاء الذين هم نحن في بيوت الأفول السعيد، إلا إذا أخرجنا عدداً من النزلاء، وقد خطرت الفكرة نفسها للحكومة عند وقوع تلك المناقشة حول اكتظاظ المستشفيات، في أن تتولى العائلة واجباتها، قالوا، ولكن ذلك يستدعي أن يكون لا يزال هناك في العائلة من يمتلك ما يكفي من التفكير السليم في الرأس وما يكفي من الطاقة في بقية البدن،

وهما هبتان لا تستمر مدة صلاحيتهما، مثلما نعرف من خبرتنا الخاصة ومن المشهد الذي يقدمه العالم، إلا بقدر ما تستمر زفراة بالمقارنة مع هذا الخلود الذي دُشن حديثاً، والعلاج، إلا إذا كان هناك رأي أوسع خبراً، سيكون في مضاعفة بيوت الأفول السعيد، ليس مثلما هي الحال الآن، باستخدام دور وقصور صغيرة عرفت أزمنة أفضل، وإنما بتشييد بنايات كبرى من جذورها، على شكل بنتاغون مثلاً، أو على شكل برج بابل أو متاهة كنوسوس، بناء أحياه في أول الأمر، وبعد ذلك مدن، وبعدها ميتروبول، أو بكلمات أكثر فجاجة، مقابر للأحياء تلقى فيها الشيخوخة الوبيلة والمحتومة الرعاية مثلاً يشاء رب، حتى لا ندري متى، لأن أيامها بلا نهاية. القضية شائكة، ونشعر أن من واجبنا لفت انتباه الجهات المختصة، لأنه مع مرور الوقت، لن يكون هناك مزيد من المقدمين في العمر فقط في بيوت الأفول السعيد، وإنما ستكون هناك حاجة أكبر فأكبر كذلك إلى مزيد من الناس للاهتمام بهم، وستكون الحصيلة أن هرم الأعمار سينقلب سريعاً رأساً على عقب، فتكون هناك كتلة هائلة من المسنين في الجزء العلوي، كتلة دائمة النمو، تتبع مثل تنين أفعوانى الأجيال الجديدة التي ستتحول بدورها إلى عاملين مساعدين وإداريين في بيوت الأفول السعيد، وبعد أن تقضي الشطر الأكبر من حياتها في رعاية مسنين من كل الأعمار، سواء أكانت أعماراً عادية أم أعماراً ألفية، حشود من الآباء، والأجداد، وأجداد الأجداد، وأجداد من الجيل الثالث، والرابع، والخامس، والسادس، وإلى ما لا نهاية، تجتمع جيلاً بعد جيل، مثل أوراق تتفصل عن الأشجار وتسقط على أوراق فصول الخريف الماضية، mais où sont les neiges d'antan<sup>(١)</sup>، لتتضمن إلى جر النمل غير المتناثي لم ينتهلكون الحياة ويفقدون، شيئاً فشيئاً،

---

<sup>(١)</sup> بالفرنسية في الأصل: ولكن حيث هي ثلوج الماضي.

أسنانهم وشعرهم، إلى كتائب ضعيفي البصر والسمع، إلى المصابين بالفتاق، وملتهبي القصبات، ومن انكسر عنق عظم فخذهم، والمصابين بشلل نصفي، وبالنحول العام، بعد أن صاروا الآن خالدين، وهم لا يستطيعون كبح رياطهم التي تسيل على ذقونهم، أنتم أيها السادة الذين تحكموننا، ربما لا تريدون أن تصدقونا، ولكن ما سيحل بنا هو أسوأ الكواريس التي يمكن أن يكون قد حلم بها كائن بشري، لم يُر شيء مشابه حتى في الكهوف المظلمة، عندما كان كل شيء خوفاً ورعباً، ونقول هذا نحن من لدينا خبرة أول بيت للأفول السعيد، صحيح أن كل شيء آنذاك كان صغيراً جداً، ولكن لا بد للمخلية من أن تقيدنا في شيء ما، وإذا أردتَ منا أن نكلمك بصرامة، وبالقلب في راحة اليد، فإن الموت أفضل، أيها السيد رئيس الوزراء، الموت أفضل من هذا المصير.

تهديد رهيب يقترب سُيُّرِّضُ للخطر وجود صناعتنا، هذا ما صرح به أمام وسائل الاتصال الاجتماعي رئيس اتحاد شركات التأمين، مشيراً إلى آلاف مؤلفة من الرسائل، ثُورَد الكلمات نفسها تقريباً، كما لو أنها مستنسخة عن نموذج وحيد، راحت ترد في الأيام الأخيرة إلى الشركات متضمنة أمراً بالإلغاء الفوري لبوالص تأمين موقعيها على حياتهم. ويؤكد هؤلاء أنه، مع الأخذ في الاعتبار الواقع العام والمعلوم بأن الموت قد وضع حداً لأيامه، فقد صار من السخيف، كيلا نقول من الغباء،مواصلة دفع أقساط تأمين مرتفعة جداً لن تنفع، لأنعدام أي نوع من التعويض، إلا في مزيد من الإثراء للشركات. لستُ مستعداً لأن أقييد كلباً بحبل من السجق، يُفرج عن نفسه مشترك نزق في حاشيةأخيرة. ويدهب بعضهم إلى ما هو أبعد من ذلك، مطالبين باستعادة المبالغ المدفوعة، ولكن يلحظ على الفور أن مطالبته تلك ليست سوى محاولة، ليرى إن كان بإمكانه التحايل. وعلى سؤال

الصحفيين الحتمي حول ما تفكر في عمله شركات التأمين لمواجهة صلبة المدفعية الثقيلة التي انقضت عليها فجأة، ردّ رئيس الاتحاد بأنه على الرغم من أن المستشارين القانونيين يعكفون، في هذا الوقت بالذات، على دراسة متأنية لبنود بواص التأمين ذات الحروف الدقيقة جداً بحثاً عن أيه إمكانية تأويلية تسمح، ودائماً ضمن أشد حدود الصرامة القانونية بالطبع، بأن يفرض على المؤمنين على أنفسهم الهرطوقين، ولو بالإكراه، واجب مواصلة الدفع ماداموا أحياء، هذا يعني، بكل بساطة، أن الاحتمال الأكبر سيكون الوصول إلى اتفاق بالتراضي، اتفاق جنتمان، يتمثل في تضمين البواص بندًا موجزاً، سواء للتصحيح الحالي أم للسريان المستقبلي، يُفرِّغ فيه سن الثمانين للموت الإجباري، بمعنى المجازي طبعاً، سارع الرئيس إلى إضافة هذه الجملة الأخيرة مبتسماً بمداراة. وبهذه الطريقة ستقتاضي شركات التأمين الأقساط، بصورة طبيعية قصوى، حتى تاريخ بلوغ المؤمن عليه السعيد عيد ميلاده الثمانين، ويمكن له حينذاك، باعتباره قد تحول إلى شخص ميت افتراضياً، أن يبادر إلى قبض مجموع مبلغ التأمين المتراكם، ويمكن للزيائن، في حال رغبتهم، أن يجددوا العقد لثمانين سنة أخرى، وفي نهايتها، ومراعاة للإجراءات، يسجل الزيون وفاته ثانية، ويكرر إجراءات التأمين السابقة وهكذا دواليك. سُمعت همسات إعجاب ومحاولة بدء تصفيق من جانب الصحفيين السريعين في الحسابات التأمينية، فشكرهم الرئيس بإيماءة من رأسه. لقد كانت اللعبة متقدمة استراتيجيةً وتكتيكياً إلى حدّ أنه بدأت تصل إلى شركة التأمين في اليوم التالي رسائل تعتبر الرسائل السابقة ملغاة وباطلة المفعول. وكان جميع المشتركون يعلون أنهم مستعدون لقبول اتفاق الجنتمان المقترن، والذي بفضله يمكن القول، دون مبالغة، إنه واحد من تلك الحالات النادرة التي لا يخسر فيها أحد والجميع

يسعون. وخاصة شركات التأمين التي نجت بأعجوبة من الكارثة.  
ويُنتظر في الانتخابات القادمة أن يعاد انتخاب رئيس اتحاد شركات  
التأمين نفسه للمنصب اللامع الذي يتولاه.



عن الاجتماع الأول للجنة مختلف المذاهب يمكن قول أي شيء باستثناء أنه جرى على ما يرام. والإثم، إذا كان ثمة متسع هنا لهذا المصطلح الثقيل، تتحمله المذكرة الدرامية التي سلمتها بيوت الأفول السعيد إلى الحكومة، وخاصة تلك الجملة التهديدية الأخيرة، الموت أفضل، أيها السيد رئيس الوزراء، الموت أفضل من هذا المصير. فعندما كان الفلاسفة المنقسمون، كالعادة، إلى متشائمين ومتفائلين، بعضهم عابسون وبعضهم باسمون، يستعدون لأن يبدؤوا للمرة ألف النزاع الأبدي حول الكأس التي لا يعرف إذا كانت نصف ممتهلة أم نصف فارغة، وهو نزاع إذا ما أحيل إلى المسألة التي اجتمعوا من أجلها، سينتهي إلى الاختزال، في كل الاحتمالات، إلى مجرد سرد لمنافع ومضار كون المرء ميتاً أو بقائه حياً إلى الأبد، وتقدم مندوبو الأديان مشكلين جبهة موحدة مشتركة يتطلعون بها إلى تركيز النقاش في الميدان الجدي الوحد الذي يهمهم، هذا يعني القبول الواضح بأن الموت كان أساسياً بالطلاق من أجل تحقيق ملوكوت الرب، وبالتالي فإن أي نقاش حول مستقبل بلا موت سيكون عبيضاً فضلاً عن أنه تجريف، لأنه يستدعي الافتراض مسبقاً، دون مفر، بأن الرب غائب، كيلا نقول مختفيأ. وهذا ليس بال موقف الجديد، فالكريدينال نفسه أشار بالإصبع إلى العقدة التي تفترضها هذه الرواية اللاهوتية لتربع الدائرة عندما أقر في محادثه الهاتفية مع الوزير الأول، وإن يكن بكلمات أقل وضوحاً بكثير في الحقيقة، بأنه إذا

انتهى الموت فلن يكون ثمة انبعاث، ومن دون انبعاث لن يكون من معنى لوجود الكنيسة. ولأن الكنيسة، جهراً وعلانية، هي وسيلة العمل الوحيدة التي يمتلكها رب على الأرض، كما يبدو، كي يصوغ المسارات المؤدية إلى ملوكه، فإن النتيجة الجليلة وغير القابلة للدحض هي أن التاريخ المقدس برمته سينتهي دون مفر إلى طريق مسدود. هذا التعليل الحريض خرج من فم الفيلسوف المتشائم الأكبر سنًا الذي لم يكتف بذلك، بل أضاف قائلاً، الأديان جميعها، مهما قلبناها، لا مسوغ لها في الوجود سوى الموت، إنها بحاجة إليه مثل حاجة الفم إلى الخبز. ولم يزعج مندوبي الأديان أنفسهم بالاعتراض. بل على العكس، فقد قال أحدهم، وهو شخص مشهور في القطاع الكاثوليكي، معك حق أيها السيد الفيلسوف، فهذا هو بالضبط مسوغ وجودنا، كي يقضي الناس حياتهم كلها والخوف معلق برقبابهم، وعندما تحين ساعتهم، يتقبلون الموت كخلاص، وماذا عن الفردوس، فردوس أو جحيم، أو لا شيء، فما يحدث بعد الموت يهمنا أقل بكثير مما يعتقد، فالدين أيها السيد الفيلسوف هو مسألة أرضية، وليس له أي علاقة بالسماء، ليس هذا هو ما اعتدنا سماعه، لا بد لنا من قول شيء لجعل البضااعة جذابة، هذا يعني أنكم لا تؤمنون في الواقع بالحياة الأبدية، نتظاهر بأننا نؤمن. لم يتكلم أحد خلال دقيقة. أظهر أكبر الفلاسفة المتفائلين ابتسامة غامضة وخفيفة على وجهه، بهيئة من رأى للتو تجربة مخبرية صعبة تتوج بالنجاح. مادام الأمر كذلك، تدخل فيلسوف من الجناح المتفائل، لماذا تخشون إلى هذا الحد إذاً من انتهاء الموت، نحن لا نعرف إن كان قد انتهى، ما نعرفه فقط هو أنه توقف عن القتل، وهذا ليس الشيء نفسه، أواافقك الرأي، ولكنني أحافظ على سؤالي لأن الشك لم يُحلّ، لأن كل شيء سيكون مباحاً إذا كانت الكائنات البشرية لا تموت، وهل سيكون

ذلك سيئاً، سأله الفيلسوف الأكبر سنًا، بالقدر نفسه الذي لا يكون مباحاً فيه أي شيء. ساد صمت. كان قد أُوكِل إلى الرجال الثمانية الجالسين حول المنضدة أن يتأملوا في شأن نتائج مستقبل بلا موت، وأن يصوغوا انطلاقاً من معطيات الحاضر توقعًا معقولاً للمسائل الجديدة التي سيكون على المجتمع مواجهتها، فضلاً عنــ ونعتذر لهذا القولــ تفاقم حدة المسائل القديمة. سيكون من الأفضل عدم فعل أي شيء، قال أحد الفلسفه المتقائلين، فمسائل المستقبل سيتولى المستقبل حلها، السيئ في الأمر أن المستقبل هو اليوم، قال أحد المتشائمين، لدينا هنا، إضافة إلى مذكرات أخرى، المذكريات التي أعدها ما يسمى ببيوت الأفول السعيد، والمستشفيات، والوكالات الجنائزية، وشركات التأمين، وباستثناء حالة هؤلاء الآخرين الذين يجدون على الدوام طريقة للاستفادة من أي وضع، يجب الاعتراف بأن التوقعات لا تقتصر على كونها قائمة وحسب، وإنما هي كارثية، رهيبة، تتجاوز في خطورتها ما يمكن لأشد مخلية هذيانية أن تصوره، دون نية مني في أن أكون ساخراً، وهو ما سيُعتبر سيئاً جداً في الظروف الراهنة، قال عضو ليس أقل شهرة من القطاع البروتستانتي، يبدو لي أن هذه اللجنة قد ولدت ميتة، ببيوت الأفول السعيد على حق، فالموت أفضل من هذا المصير، قال الناطق باسم الكاثوليكين، فسألته أكبر المتشائمين سنًا، ما الذي تفكرون في عمله فضلاً عن الاقتراح بحل اللجنة الفوري، وهو ما يبدو أنكم راغبون فيه، من جانبنا، ككنيسة كاثوليكية رسولية رومانية، سننظم حملة تراتيل وطنية للتضرع إلى رب كي يتدخل بعنياته من أجل عودة الموت بأسرع ما يمكن ليوفر على الإنسانية البائسة أهواً أسوأ، وهل للرب سلطة على الموت، سأله أحد المتقائلين، إنهم وجهها العملة ذاتها، فاملأك في جانبي، والتاج على الوجه الآخر، بما أن الأمر كذلك، فربما يكون الموت قد

انسحب بأمر من رب، سنعرف في حينه أسباب هذه المحنّة، وحتى ذلك الحين سندخل الصلوات والمسابح في العمل، فابتسم البروتستانتي، ستفعل نحن الشيء نفسه، وأعني الصلوات، وليس المسابح بالطبع، وسوف تخرج مواكب إلى شوارع البلاد كافة مطالبين بالموت بالطريقة نفسها التي قمنا بها *ad petendam pluviam* «من أجل طلب المطر»، ترجم الكاثوليكي ما قاله باللاتينية، فعاد البروتستانتي إلى الابتسام وقال، لن نصل نحن إلى هذا الحدّ، فهذه المواكب لا تشكل جزءاً من نزواتنا. وماذا عنا نحن، سأله أحد الفلاسفة المتقائلين بنبرة بدت إعلاناً عن قرب انضمامه إلى الصفوف المعارضة، ما الذي سنفعله اعتبراً من الآن، بعد أن بدا أن الأبواب كلها قد أُوصدت، بادئ ذي بدء، علينا رفع الجلسة، أجابه الأكبر سناً، وبعد ذلك، ستناول الفلسفـ، فهذا ما ولدنا له، وإن يكن حول الفراغ، لأجل ماذا، لا أدرى لأجل ماذا، لماذا إذاً، لأن الفلسفـ تحتاج إلى الموت بقدر ما تحتاج إليه الأديان، وإذا كنا ن الفلسفـ فلأنـنا نعرف أنـنا سـنـموـتـ، وقبلـنا قالـ المـسيـوـ مـونـتـينـيـ إنـ التـفـلـسـفـ هوـ تـعـلمـ الموـتـ.

وحتى دون أن يكون بعض الناس فلاسفة، بالمعنى الشائع للمصطلح على الأقل، فقد توصلوا إلى تعلم الطريق. والتاقض الغريب هو أنـهم لم يتعلـمواـ كـيفـ يـموـتونـ هـمـ أـنـفسـهـمـ، لأنـ ساعـتهمـ لمـ تـكـنـ قدـ حـانـتـ بـعـدـ، وإنـماـ تـعـلـموـ كـيفـ يـحـتـالـونـ لـاجـتـذـابـ الموـتـ لـآخـرـينـ، منـ أـجـلـ مـاسـاعـدـهـمـ. والـحـيـلـةـ الـمـسـتـخـدـمـةـ، كـمـاـ سـنـرـىـ بـعـدـ قـلـيلـ، هيـ مـظـهـرـ آخرـ منـ مـظـاهـرـ قـدـرـةـ الـجـنـسـ الـبـشـرـيـ الـتـيـ لاـ تـنـضـبـ عـلـىـ الـابـتكـارـ. فـفـيـ قـرـيـةـ لـاـ عـلـىـ التـعـيـنـ، عـلـىـ بـعـدـ كـيـلـوـمـتـرـاتـ قـلـيلـةـ مـنـ الحـدـودـ مـعـ أـحـدـ الـبـلـدـانـ الـمـجاـوـرـةـ، كـانـتـ تـعـيـشـ أـسـرـةـ فـلـاحـينـ فـقـرـاءـ لـدـيهـمـ، لـسـوءـ خـطـايـاهـمـ، لـيـسـ قـرـيـباـ وـاحـداـ، وإنـماـ قـرـيـبـانـ اـثـانـ، فـيـ حـالـةـ الـحـيـاةـ

المعلقة، أو كما يفضل آخرون تسميتها، حالة موت متوقف. أحدهما جدّ من أجداد الزمن الغابر، بطريق متصلب الطياع، حوله المرض إلى خرقه بائسة، وإن لم يُفقده بالكامل قدرته على الكلام. وكان الآخر وليداً عمره شهور قليلة، لم يتوفّر معها الوقت ولو لتعلّمه كلمة حياة أو كلمة موت، ويرفض الموت الحقيقي الظهور له. لن يموتَا، وليسَا حين، الطبيب الريفي يزورهما مرة كل أسبوع ويقول إنه لم يعد بالإمكان عمل شيء من أجلهما ولا ضدّهما، ولا حتى حقن أحدهما أو كليهما بعقار مميت، من تلك التي كانت تشكّل منذ زمن غير بعيد الحل الجذري لأي مشكلة. وأكثر ما يمكن فعله، ربما يكون دفعهما خطوة باتجاه المكان الذي يفترض وجود الموت فيه، ولكن ذلك سيكون بلا جدوى، بلا طائل، لأن الموت في هذا الوقت بالذات، صار صعب المنال، فهو يخطو خطوة أيضاً ويُبقي على المسافة الفاصلة نفسها. ذهبت الأسرة لطلب مساعدة الكاهن الذي استمع، رفع عينيه إلى السماء، ولم يجد كلمات يرد بها إلا القول إننا جميعنا بين يدي الرب وإن الرحمة الإلهية لا متناهية. أجل، يمكن لها أن تكون لا متناهية، ولكن ليس بما يكفي لمساعدة أبيينا وجدنا على الموت بسلام ولا الإنقاذ الطفل البريء المسكين الذي لم يُلحق الضرر بأحد. وكنا على هذه الحال، لا نتقدم ولا نتأخر، بلا علاج ولا أمل، عندما تكلم العجوز، فليقترب أحدكم، قال، هل ت يريد ماء، سأله إحدى بناته، لا أريد ماء، أريد أن أموت، أنت تعلم أن الطبيب يقول إن ذلك غير ممكن يا أباها، تذكر أن الموت قد انتهى، الطبيب لا يفهم شيئاً، فدائماً ومذ كانت الدنيا هي الدنيا، كانت هناك ساعة ومكان موت أحدنا، الآن لا، بل نعم الآن، أهداً يا أبي، ستترتفع حرارتكم، لست مغموماً، وحتى لو كنت مغموماً فسوف أقول الكلام نفسه، استمعي إلى بانتباه، إبني أسمعك، اقترب أكثر، قبل أن ينكسر

صوتي، قل ما تريد. همس العجوز بضع كلمات في أذن ابنته. فكانت ترفض بحركات من رأسها، ولكنه يلح ويلح. لن يُحلّ هذا أي شيء يا ابته، تعلمت مذهبة وشاحبة من الخوف، بل سيحل الأمر. وإذا لم يُحلّ، لن نخسر شيئاً في التجربة، وإذا لم يُحلّ الأمر، المسألة بسيطة، تعيدونني إلى البيت، وماذا عن الطفل، الطفل يعود أيضاً، وإذا ظلت هناك، سيظل معي. حاولت الابنة التفكير، وكان يقرأ على وجهها الارتباك، وأخيراً سأله، ولماذا لا نعيدكم وندفنكما هنا، تصوري وجود ميتين اثنين في بيت واحد في بلاد لا يمكن فيها لأحد، مهما حاول، أن يتمكن من الموت، كيف ستفسرين ذلك، أضيفي إلى ذلك أن لدى شكوكاً، في ظل هذه الأوضاع، أن الموت لن يتراكنا ندخل، هذا جنون يا أبي، ربما يكون جنوناً، ولكنني لا أرى وسيلة أخرى للخروج من هذا الوضع، نحن نريدك حياً وليس ميتاً، ولكن ليس في هذه الحال التي ترييني بها هنا، حي ميت، وميت يبدو حياً، إذا كان هذا ما تريده، ستنفذ مشيتك، أعطني قبلة. قبلت الابنة جبينه وخرجت لتبكى. ومن هناك، وهي مستحمة بالدموع، ذهبت لتخبر بقية الأسرة بأن أباها قرر أن ينقلوه في هذه الليلة بالذات إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث مازال الموت، حسب فكرته، ساري المفعول في تلك البلاد، ولا مفر له من قيوله. قبيل الخبر بشعور معقد من الاعتزاز والاستسلام، اعتزاز لأنه لا يُرى في كل يوم شيخ يقدم نفسه على هذا النحو، بقدميه، إلى الموت الذي يهرب منه، واستسلام لأن من يخسر واحداً يخسر مئة، وماذا يمكن لنا أن نفعل، ففي مواجهة ما لا بد من حدوثه ستكون كل القوى دون جدوى. ومثلاً هو مكتوب بأنه لا يمكن الحصول على كل شيء في الحياة، والعجوز الشجاع لن يخلف في بيته سوى أسرة فقيرة وشريفة لن تتسم تكريم ذكراء. والأسرة لا تتكون فقط من هذه الابنة التي خرجت

لتباكي والطفل الذي لم يسبب أي أذى للعالم، وإنما هناك كذلك ابنة أخرى وزوجها، وهم أبواً ثلاثة أطفال يتمتعون لحسن الحظ بصحة جيدة، إضافة إلى عمة عزياء تخطت سن الزواج منذ زمن طويل. أما الصهر الآخر، زوج الابنة التي خرجت لتباكي، فيعيش في بلد بعيد، هاجر إليه ليكسب عيشه، وسيعلم غداً أنه فقد في آن واحد ابنه الوحيد وحmate الذي يقدرها. هكذا هي الحياة، تعطي شيئاً فشيئاً بيد إلى أن يأتي اليوم الذي تتزعز فيه كل شيء باليد الأخرى. قليلة في هذه الرواية هي أهمية صلة قرابة عدد من الفلاحين الذين لن يعودوا للظهور، في الغالب، مرة أخرى، وهذا ما نعرفه أفضل من أي شخص آخر، غير أنه بدا لنا أنه لن يكون مستحسناً، حتى من وجهة نظر تقنية - سردية، أن ننهي بسطرين سريعين هؤلاء الأشخاص بالتحديد، وهم الذين سيكونون أبطال أحد أشد الأحداث درامية في هذه القصة التي لا تصدق، مع أنها حقيقة، عن انقطاعات الموت. ها قد ذكرناهم إذاً. ولم يكدر ينقضنا إلا القول إن العمة العزياء قد أبدت شكها بالسؤال، ما الذي سيقوله الجiran حين يكتشفون غياب هذين اللذين كانوا، دون أن يموتا، مؤهلين للموت. والعمة العزياء لا تتكلم عموماً بمثل هذا الأسلوب المتحذلق، المنمق، وإذا كانت قد فعلت ذلك الآن فإنما فعلته كيلا تتفجر في البكاء، وهو ما كان سيحدث لو أنها تلتفظ باسم الطفل الذي لم يسبب أي أذى للعالم أو بكلمة أخي. وقد أجابها أبو الأطفال الثلاثة الآخرين، سنجير الجiran ببساطة بما جرى ومنتظر النتائج، ولسوف تُتهم على الأقل بتهمة الدفن السري، خارج المقبرة، ودون علم السلطات، والأدهى أننا سنفعل ذلك في بلد آخر، فقالت العمة، عسى ألا تتشبأ أي حرب بسبب ذلك.

كان الوقت قرابة منتصف الليل عندما خرجموا باتجاه الحدود. فقد تأخرت القرية في الالتحاف بين الملاعات، كما لو أن الشكوك

تخارمرها بأن هناك شيئاً غريباً يُحالك. وأخيراً خيم الصمت على الشوارع، وراحـت أنوار البيوت تتطـفىـ واحداً فواحداً. رُبـطـتـ البـغـلةـ إلىـ العـرـبـةـ،ـ وبـعـدـ ذـلـكـ،ـ وـبـجـهـ جـهـيدـ،ـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ خـفـةـ وزـنـهـ،ـ أـنـزـلـ الصـهـرـ وـالـابـنـتـانـ الجـدـ،ـ وـطـمـأـنـوـهـ عـنـدـمـاـ سـأـلـهـمـ،ـ بـصـوـتـ منـطـقـيـ،ـ إـنـ كـانـوـاـ قـدـ أـحـضـرـوـاـ الرـفـشـ وـالـمـعـولـ،ـ لـقـدـ أـحـضـرـنـاهـمـ،ـ اـطـمـئـنـ،ـ ثـمـ صـعـدـتـ أـمـ الطـفـلـ وـهـيـ تـحـمـلـهـ بـيـنـ ذـرـاعـيـهـاـ وـقـالـتـ،ـ الـودـاعـ يـاـ بـنـيـ فـلـنـ أـعـودـ لـرـؤـيـتـكـ،ـ وـهـذـاـ غـيرـ صـحـيـحـ،ـ لـأـنـهـ سـتـذـهـبـ أـيـضاـ فيـ الـعـرـبـةـ مـعـ أـخـتـهـاـ وـزـوـجـ أـخـتـهـاـ،ـ لـأـنـ ثـلـاثـةـ أـشـخـاصـ لـنـ يـكـونـوـ كـثـيرـينـ لـانـجـازـ الـمـهـمـةـ.ـ وـلـمـ تـشـأـ الـعـمـةـ الـعـزـباءـ تـوـدـيـعـ الـراـحـلـينـ الـلـذـيـنـ لـنـ يـرـجـعـاـ وـانـزـوـتـ فـيـ الـحـجـرـةـ مـعـ أـبـنـاءـ أـخـتـهـاـ.ـ وـلـأـنـ أـطـرـ الـعـجـلـاتـ الـمـعـدـنـيـةـ تـحـدـثـ ضـجـةـ عـلـىـ أـرـضـيـةـ الشـارـعـ الـمـرـصـوـفـةـ دـوـنـ اـنـظـامـ،ـ مـعـ مـاـ يـرـافـقـ ذـلـكـ مـنـ مـجـازـفـةـ بـدـءـ ظـهـورـ السـكـانـ الـفـضـولـيـنـ مـنـ النـوـافـذـ لـيـعـرـفـوـاـ إـلـىـ أـيـنـ يـذـهـبـ جـيـرـانـهـمـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ السـاعـةـ،ـ فـقـدـ قـامـوـاـ بـالـدـورـانـ فـيـ التـفـافـةـ كـبـيرـةـ عـبـرـدـرـوـبـ تـرـايـيـةـ إـلـىـ أـنـ وـصـلـوـاـ أـخـيـراـ إـلـىـ الطـرـيقـ الـعـامـ،ـ خـارـجـ الـقـرـيـةـ.ـ لـمـ يـكـونـوـ بـعـيـدـيـنـ جـداـ عـنـ الـحـدـودـ،ـ وـلـكـنـ السـيـئـ هوـ أـنـ الطـرـيقـ الـعـامـ لـنـ يـوـصـلـهـمـ إـلـىـ هـنـاكـ،ـ لـأـنـ عـلـيـهـمـ فـيـ نـقـطـةـ مـعـيـنـةـ أـنـ يـخـرـجـوـاـ عـنـ الـطـرـيقـ وـيـوـاصـلـوـاـ عـبـرـدـرـوـبـ تـكـادـ لـاـ تـسـعـ لـلـعـرـبـةـ،ـ وـهـذـاـ كـلـهـ دـوـنـ الـحـدـيـثـ عـنـ أـنـ عـلـيـهـمـ اـجـتـيـازـ الـمـقـطـعـ الـأـخـيـرـ سـيـرـاـ عـلـىـ الـأـقـدـامـ،ـ وـأـنـ يـشـقـوـ طـرـيقـهـمـ بـيـنـ آـجـامـ كـثـيـفـةـ وـهـمـ يـحـمـلـوـنـ الـجـدـ بـطـرـيـقـةـ لـاـ يـعـلـمـهـ إـلـاـ اللـهـ.ـ وـلـحـسـنـ الـحـظـ أـنـ الصـهـرـ يـعـرـفـ جـيدـاـ تـلـكـ الـأـمـاـكـنـ،ـ فـضـلـاـ عـنـ أـنـ جـابـهاـ كـصـيـادـ،ـ فـإـنـهـ مـارـسـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ كـذـلـكـ التـهـرـيـبـ كـهـاـوـ.ـ اـحـتـاجـوـاـ إـلـىـ نـحـوـ سـاعـتـيـنـ مـنـ أـجـلـ الـوـصـولـ إـلـىـ الـمـكـانـ الـذـيـ عـلـيـهـمـ تـرـكـ الـعـرـبـةـ فـيـهـ،ـ وـهـنـاكـ بـالـذـاتـ خـطـرـتـ لـلـصـهـرـ فـكـرـةـ نـقـلـ الـجـدـ عـلـىـ مـنـ الـبـغـلةـ،ـ وـاثـقاـ مـنـ قـوـةـ قـوـائـمـ الـحـيـوانـ.ـ فـكـواـ الـبـهـيـمـةـ،ـ وـخـفـفـوـاـ عـنـهـاـ السـرـجـ وـالـعـدـدـ الـزـائـدـ عـنـ الـحـاجـةـ،ـ وـبـجـهـ عـظـيمـ حـاـوـلـوـاـ رـفـعـ الـعـجـوزـ.

كانت المرأة تبكيان، آه يا أبي الحبيب، آه يا أبي الحبيب، ومع البكاء راحت تفارقهما القوة القليلة المتبقية لديهما. وكان الرجل المسكين نصف فاقد الوعي، كما لو أنه قد اجتاز فعلاً أولى عتبات الموت. لن نتمكن من رفعه، هتف الصهر بيساس، ولكن خطر له فجأة بأن الحل سيكون في ركبته هو أولاً على متن البغلة وسحب الجد إليه بعد ذلك، ليصير أمامه في وضع متصالب مع البغلة، سأرفعه وأنا أحضنه، لا توجد طريقة أخرى، وأنتما تساعدان من تحت. ذهبت أم الطفل إلى العرية لترتب وضع الدثار الذي يغطي ابنها، كيلا يبرد الصغير المسكين، ثم رجعت إلى حيث أختها، واحد، اثنان، ثلاثة، قالوا معاً، ولكن النتيجة كانت لا شيء، فقد بدا جسد الجد ثقيلاً الآن كأنه من رصاص، والشيء الوحيد الذي استطاعوا تحقيقه هو تركه على الأرض. عندئذ حدث أمر لم يشهد مثله قط، نوع من العجزة، أعجوبة، شيء خارق. وكان قانون الجاذبية قد توقف للحظة، أو صار مفعوله معكوساً، من أسفل إلى أعلى، أفلت الجد برفق من أيدي ابنته، وطفا من تلقاء نفسه، وارتفع حتى ذراعي الصهر الممدودتين. والسماء التي كانت منذ بداية الليل مغطاة بغيوم كثيفة تهدد بالمطر، انشقت وسمحت بظهور القمر. يمكننا أن نواصل، قال الصهر، ثم توجه إلى زوجته، أنت تقودين البغلة. وفتحت أم الطفل الدثار قليلاً لترى كيف هو ابنها. كانت جفونه المطبلقة أشبه بباقعتين صغيرتين شاحبتين، والوجه رسمياً مشوش الملامح. عندئذ أطلقت صرخة جابت كل المدى المحيط وجعلت الحيوانات المفترسة ترتجف في كهوفها، لا، لن أكون أنا من تحمل ابنها إلى الجانب الآخر، لم أجئ به إلى الحياة كي أسلمه بيدي إلى الموت، خذا الأب، وأنا سأبقى هنا. اقتربت منها أختها وسألتها، هل تقضلين مواصلة رؤيته، سنة بعد سنة، وهو يتحضر، أنت لديك ثلاثة أبناء أصحاء، وتتكلمين دون معرفة،

ابنك كأنه ابني، إذا كنت تشعرين بأنه كذلك، احمليه أنت، فأنا لا  
أستطيع، وأنا يجب ألا أفعل، فذلك سيكون كأني أقتله، وما هو  
الفرق، لا يمكن للحمل إلى الموت والقتل أن يكونا الشيء نفسه، في  
هذه الحالة على الأقل، فأنت أم الطفل وليس أنت، تستطيعين حمل  
أحد أبنائك، أو جميعهم، أظن أنتي تستطيع، ولكنني لا أستطيع أن  
أقسم على ذلك، إبني على حق إذاً، إن كان هذا ما تريدينه فانتظرينا  
هنا، سنأخذ أبي. ابتعدت الأخت، أمسكت البغة من اللجام وسألت،  
أنطلق، وأجابها زوجها، فلتنطلق، ولكن بيضاء، لا أريد أن يفلت مني  
ويسقط. كان القمر المكتمل يلمع. وفي مكان إلى الأمام توجد  
الحدود، ذلك الخط الذي لا يُرى إلا على الخرائط. سالت المرأة،  
**كيف سنعرف أننا وصلنا، فقال الزوج، الأب سيعرف ذلك.** فهمت  
المرأة ما يعنيه ولم توجه مزيداً من الأسئلة. واصلا المسير، مئة متراً،  
عشر خطوات، وفجأة قال الرجل، لقد وصلنا، هل انتهى الأمر، أجل.  
ووراءهما كرر صوت، لقد انتهى الأمر. وكانت أم الطفل تحضرن  
ابنها الميت بذراعها اليسرى آخر مرة، بينما يدها اليمنى تشتبث على  
كتفها الرفش والمعلول اللذين نسيهما الآخران. فلتقدم أكثر قليلاً،  
حتى شجرة الدردار تلك، قال الصهر. وفي البعيد، على أحد السفوح،  
كانت تظهر أضواء قرية. وبدا من خطوات البغة أن الأرض طرية، لابد  
أن الحفر سهل فيها. وأخيراً قال الرجل، هذا المكان يبدو لي جيداً،  
الشجرة ستكون علامة لنا عندما نأتي إليهما ببعض الزهور. تركت أم  
الطفل الرفش والمعلول يسقطان، ووضعت ابنها برفق على الأرض. وبعد  
ذلك، تلقت الأختان جسد الأب بألف حذر كيلا ينزلق، ودون أن  
تتضايقا مساعدة الرجل الذي كان يتراجل عن البغة، وضعتهما إلى جوار  
حفيده. كانت أم الطفل تبكي، وتكرر بالتأوب، ابني، أبي،  
فجاءت أختها وعانقتها وهي تبكي أيضاً وتقول، هكذا أفضل،

هكذا أفضـل، فحياة هذين الـبائسين لم تكن حـيـاةـ. جـثـتـ كـلـاتـاهـمـاـ علىـ الـأـرـضـ تـتـشـاطـرـانـ الأـسـىـ عـلـىـ المـيـتـيـنـ الـلـذـيـنـ جـاءـاـ لـيـخـدـعـاـ الموـتـ. كـانـ الرـجـلـ يـحـفـرـ مـسـتـخـدـمـاـ الـمـعـولـ، وـيـزـيـحـ بـالـرـفـشـ التـرـابـ المـفـتـتـ، ثـمـ يـعـودـ إـلـىـ الـحـفـرـ مـنـ جـدـيدـ. إـلـىـ أـسـفـلـ، كـانـتـ الـأـرـضـ أـشـدـ صـلـابـةـ، أـشـدـ تـمـاسـكـاـ، وـحـجـرـيـةـ بـعـضـ الشـيـءـ، وـبـعـدـ نـصـفـ سـاعـةـ مـنـ الـعـمـلـ الـمـتـواـصـلـ بلـغـتـ الـحـفـرـ الـعـمـقـ الـكـافـيـ. لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ تـابـوتـاـ وـلـاـ كـفـنـاـ، اـسـتـقـرـ الـجـسـدـانـ عـلـىـ الـأـرـضـ الـعـارـيـةـ وـلـيـسـ عـلـيـهـمـاـ إـلـاـ الـمـلـابـسـ الـتـيـ كـانـاـ يـرـتـديـانـهـاـ. جـمـعـ الرـجـلـ وـالـمـرـأـتـانـ قـوـاهـمـاـ، هـوـ مـنـ حـفـرـ الـقـبـرـ، وـهـمـاـ خـارـجـهـاـ، كـلـ وـاحـدـةـ مـنـهـمـاـ فـيـ جـانـبـ، وـأـنـزـلـوـاـ بـيـطـءـ جـسـدـ الـعـجـوزـ، هـمـاـ تـمـسـكـانـ بـهـ مـنـ ذـرـاعـيـهـ الـمـفـتوـحـيـنـ عـلـىـ شـكـلـ صـلـيبـ، وـهـوـ يـحـتـضـنـهـ حـتـىـ لـامـسـ الـقـاعـ. لـمـ تـتـوقـفـ الـمـرـأـتـانـ عـنـ الـبـكـاءـ، أـمـاـ عـيـناـ الرـجـلـ فـكـانـتـ جـافـيـنـ، وـلـكـنـهـ كـانـ يـرـتـعـشـ بـكـاملـهـ، كـمـاـ لـوـ آنـهـ أـصـيـبـ بـحـمـىـ عـنـيفـةـ. وـكـانـ مـاـ يـزالـ عـلـيـهـمـ الـقـيـامـ بـالـأـسـوـأـ. فـوـسـطـ الـدـمـوعـ وـالـنـحـيـبـ أـنـزـلـ الـطـفـلـ، وـوـضـعـ إـلـىـ جـانـبـ الـجـدـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـكـنـ فـيـ وـضـعـ جـيـدـ هـنـاكـ، مـجـرـدـ حـزـمةـ صـغـيرـةـ تـافـهـةـ، حـيـاةـ بـلـاـ أـهـمـيـةـ، مـتـرـوـكـةـ جـانـبـاـ كـمـاـ لـوـ آنـهـ لـاـ تـنـتـمـيـ إـلـىـ الـأـسـرـةـ. عـنـدـئـذـ اـنـحـنـيـ الرـجـلـ، وـتـاـوـلـ الـطـفـلـ عـنـ الـأـرـضـ، وـوـضـعـهـ فـوـقـ صـدـرـ الـجـدـ، ثـمـ قـاطـعـ لـهـ يـدـيهـ فـوـقـ جـسـدـهـ الصـفـيرـ، الـآنـ أـجـلـ، إـنـهـمـاـ فـيـ وـضـعـ مـرـيـحـ، مـسـتـعـدـيـنـ لـرـاحـتـهـمـاـ، يـمـكـنـنـاـ الـبـدـءـ بـإـلـقـاءـ التـرـابـ عـلـيـهـمـاـ، بـحـذرـ، قـلـيلـاـ قـلـيلـاـ، لـأـنـهـ مـازـالـ يـمـكـنـ لـهـمـاـ أـنـ يـنـظـرـاـ إـلـيـنـاـ لـبـعـضـ الـوقـتـ، كـيـ يـتـمـكـنـاـ مـنـ وـدـاعـنـاـ، لـنـسـعـ مـاـ يـقـولـانـهـ، وـدـاعـاـ يـاـ اـبـنـيـ، الـوـدـاعـ يـاـ صـهـرـيـ، الـوـدـاعـ يـاـ خـالـيـ وـخـالـتـيـ، الـوـدـاعـ يـاـ أـمـاهـ. عـنـدـمـاـ اـمـتـلـأـتـ حـفـرـ الـقـبـرـ، سـوـيـ الرـجـلـ التـرـابـ كـيـلـاـ يـلـحـظـ وـجـودـ أـنـاسـ مـدـفـونـيـنـ إـذـاـ مـاـ مـرـ أـحـدـ مـنـ هـنـاكـ. وـوـضـعـ حـجـراـ عـنـدـ الرـأـسـ وـحـجـراـ آخـرـ عـنـدـ الـأـقـدـامـ، ثـمـ نـشـرـ عـلـىـ الـقـبـرـ الـأـعـشـابـ الـتـيـ كـانـ قـدـ قـطـعـهـاـ مـنـ قـبـلـ بـالـمـعـولـ، نـبـاتـاتـ أـخـرىـ، حـيـةـ،

ستحتل خلال أيام قليلة مكان هذه الأعشاب الداودية، الميتة، اليابسة، التي ستتدخل في دورة تغذية الأرض نفسها التي نبتت فيها. قاس الرجل خطوات واسعة المسافة بين الشجرة والقبر، فكانت اشتبه عشرة خطوة، ثم وضع الرفش والمعول على كتفه وقال، هيا بنا. كان القمر قد اختفى، وكانت السماء مغطاة بالغيوم من جديد. وبدأ المطر بالهطول عندما انتهوا من ربط البغلة إلى العربة.

الممثلون في الواقعية الدرامية التي وُصفت للتو بدقة ممضى زمانها، في رواية فضلت حتى الآن أن تقدم للقارئ الفضولي، وهذا مجرد قول، رؤية بانورامية للأحداث، جرى تصنيفهم، عند دخولهم غير المنتظر إلى المشهد، على أنهم فلاحون فقراء. وهذا الخطأ الذي كان حصيلة انطباع متسرع من الراوي، وتحصص لم يتجاوز ما هو سطحي، يتوجب الآن، واحتراماً للحقيقة، أن يُصحح فوراً. فالأسرة الفلاحية الفقيرة، والفقيرة حقاً، لا تتمكن أبداً من امتلاك عربة ولا تتوفّر لها إمكانية القيام بأود حيوان يحتاج لغذية كبيرة كما هي البغلة. فالامر يتعلق إذاً بعائلة من صغار المزارعين، أناس يتمتعون بوضع مريح في تواضع الوسط الذي يعيشون فيه، أناس حصلوا على تعليم وإعداد مدرسي كافٍ لأن يتمكنوا من الخوض في ما بينهم في حوار لا يقتصر على سلامته النحوية فقط، وإنما أيضاً مع ذلك الذي اعتاد البعض، لنقص في خبرة أفضل، على تسميته مضموناً، وآخرون يسمونه جوهراً، وآخرون ممن هم أكثر التصاقاً بالأرض يسمونه مخ الكلام. ولو لا ذلك ما كان يمكن على الإطلاق للعمة العزيباء أن تتمكن من صياغة تلك الجملة الجميلة التي عُلق عليها سابقاً، ما الذي سيقوله الجيران عندما يكتشفون غياب هذين اللذين كانوا، دون أن يموتا، مؤهلين للموت. وبعد أن صحّحنا الخطأ، وأعيدت الحقيقة إلى نصابها، سنرى الآن ما يقوله الجيران. فعلى الرغم من الاحتياطات المتخذة، كان هناك من رأى العربية واستغرب خروج أولئك الثلاثة في مثل ذلك الوقت. وقد كان هذا هو بالضبط السؤال الذي وجهه الجار

المراقب إلى نفسه، إلى أين يذهب هؤلاء الثلاثة في مثل هذه الساعة، وقد أعيد السؤال في صباح اليوم التالي، بتغيير طفيف، موجهاً إلى صهر المزارع العجوز، إلى أين كنتم ذاهبين في تلك الساعة من الليل. وقد أجاب من وجهه إليه السؤال بأنه كان عليهم أن ينجزوا أمراً، لكن الجار لم يجد اقتناعه بالجواب وقال، إنجاز أمر في منتصف الليل، وبالعربية، مع زوجتك وأخت زوجتك، يا له من أمر غريب، قد يكون غريباً، ولكن هذا ما حدث، ومن أين كنتمقادمين عندما بدأ بزوج الضياء في السماء، هذا أمر لا يعنيك، معك حق، اعذرني، الحقيقة أن هذا ليس من اختصاصي، ولكن إذا كان بإمكانني على أي حال أن أسألك كيف هي حال حميك، مثلاً هو، والطفل الصغير، مثلاً هو أيضاً، آه، يسعدني أن يتحسن الاشان، شكرأً، إلى اللقاء، إلى اللقاء، خطأ الجار بضع خطوات، ثم توقف، ورجع إلى الوراء، بدا لي أنني رأيت شيئاً في العربية، بدا لي أن أخت زوجتك كانت تحمل طفلًا بين ذراعيها، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الاحتمال الأكبر هو أن الكتلة المطروحة التي بدا لي أنني رأيتها مغطاة ببطانية، كانت حمالك، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار، إذا أخذنا في الاعتبار أي شيء، إذا أخذنا في الاعتبار أنكم عندما رجعتم كانت العربية فارغة ولم تكن أخت زوجتك تحمل أي طفل بين ذراعيها، يبدو لي أنك لا تقام في الليل، نومي خفيف جداً، واستيقظ بسهولة، استيقظت عندما ذهبنا واستيقظت عندما رجعنا، هذا ما يسمى توافق، الأمر كذلك، وتريدني أن أخبرك بما حدث، إذا شئت ذلك، تعال معي. دخلا إلى البيت، حيا الجار النساء الثلاث، لا أريد الإزعاج، قال مرتبكأً، وظل ينتظر. ستكون أول شخص يعلم بالأمر، قال الصهر، ولست مضطراً إلى حفظ السر لأننا لن نطلب منك ذلك، لا تقل لي أي شيء أكثر مما تود قوله، لقد مات حمي والطفل هذه الليلة، حملناهما إلى الجانب

الآخر من الحدود، حيث مازال الموت يمارس نشاطه، فصرخ الجار، لقد قتلتهموهما، يمكن القول نعم بطريقة ما، لأنهما كانا غير قادرین على الذهاب على أقدامهما، ويمكن القول لا بطريقة ما، لأننا فعلنا ذلك بأمر من حميّ، أما الطفل، ويا للمسكين، فلم تكن له مشيئة ولا حياة يعيشها، وقد دفنا تحت شجرة دردار، يمكن القول إنهما دفنا متعانقين. رفع الجار يديه إلى رأسه وقال، والآن، فقال الصهر، الآن ستدذهب وتخبر القرية بأسرها، وستقوم الشرطة باعتقالنا، وربما سنُحاكم وندان ويُحكم علينا بما لم نفعله، بل فعلتموه، قبل متر من الحدود كانوا حيين، وبعد متر صارا ميتين، فقل لي متى قتلناهما، وكيف، لو أنكم لم تأخذوهما، أجل، سيكونان هنا، ينتظران الموت الذي لا يأتي. كانت النساء الثلاث الصامتات، الهدائات، ينظرن إلى الجار. فقال، إبني ذاهب، الحقيقة إبني كنت أفكّر في أن شيئاً قد حدث، ولكنني لم أتخيل قطّ أن يكون هذا هو ما حدث، فقال الصهر، هناك شيء آخر أود قوله لك، ما هو، أن ترافقني إلى الشرطة، وهكذا لن تضطر إلى التقل من باب لباب لتروي للناس الجرائم الرهيبة التي اقترفناها، لاحظوا، قتلة أبيهم، قتلة أطفال، أيها رب المقدس، أي مسوخ تعيش في هذا البيت، لن أروي الأمر بهذه الطريقة، أعرف ذلك، فلتراافقني إلى الشرطة، متى، الآن بالذات، لا بد من ضرب الحديد وهو حامٍ، هيا بنا.

لم تجر إدانتهم ولا محاكمة. وكما النار في نثار البارود، انتشر الخبر بسرعة في كل أنحاء البلاد، ونددت وسائل الاتصال بأولئك المشينين، بالأختين القاتلتين، والصهر أداة الجريمة، وذرفت الدموع على العجوز والطفل البريء كما لو أنهما الجد والحفيد اللذان يتمنى الجميع لو أنهما كانوا جدهم وحفيدهم، والصحف حسنة الظن التي تعمل كبار ومتل للأخلاق العامة، أشارت بالإصبع للمرة الألف إلى

الانحطاط القيم الأسرية التقليدية المتواصل الذي هو منبع، وسبب، وأصل كل الشرور حسب رأيها، وهنا بدأت تصل، بعد ثمان وأربعين ساعة، معلومات حول ممارسات مماثلة تحدث في كل المناطق الحدودية. فعربات أخرى، وبغال أخرى، حملت أجساداً هامدة، وسيارات إسعاف زائفة قامت بالدوران والالتفاف عبر دروب مهجورة حتى الوصول إلى المكان الذي عليها إنزال المرضى النهائيين فيه، ويكونون على العموم مثبتين خلال الطريق بأحزمة الأمان، أو مخبئين، في حالة تستحق اللوم، في محفظة الأمتعة تغطيهم بطانية، سيارات من كل الماركات والموديلات والأسعار تحمل إلى تلك المقصلة الجديدة التي شفترها - مع الاعتذار لهذا التشبيه الحر - خط حدودي شديد الرهافة، وغير المرئي للعين المجردة، تحمل النساء الذين أبقاهم الموت، في هذا الجانب، في حالة غمٌّ معلق. وليس كل العائلات التي تصرفت على هذا النحو يمكن لها أن تدعى في الدفاع عن نفسها الأسباب المحترمة بطريقة ما، وإن كانت قابلة للنقاش، التي قدمها مزارعونا المعروفون والمعلومون الذين بدؤوا ذلك التهريب، دون أن يكون لديهم أي تصور للنتائج. فالبعض لم ير في ذريعة الذهاب لإنخلاء الأب أو الجد في أرض أجنبية سوى طريقة نظيفة وفعالة، والتعبير الدقيق هو جذرية، للتخلص من الثقل الميت الحقيقي الذي يشكله المحاضرون في بيتهم. ووسائل الاتصال التي نددت بشدة في السابق بابنتي وصهر العجوز الذي دُفن مع الحفييد، ثم ضموا إلى استئثارهم ذاك العمدة العازية المتهمة بالمشاركة في الجريمة والتواطؤ، صارت تسم الآن قسوة وعدم وطنية أشخاص ذوي مظهر محترم يعمدون في ظروف الأزمة الوطنية الخطيرة هذه إلى إسقاط قناع النفاق الذي كانوا يخبنون خلفه طبعهم الحقيقي. وعلى إثر ضغوط من حكومات البلدان الثلاثة المجاورة والمعارضة السياسية الداخلية، أدان رئيس الحكومة

العمل غير الإنساني، ودعا إلى الحياة، وأعلن أن القوات المسلحة ستتخذ على الفور مواقع لها على طول الحدود لمنع مرور أي مواطن في حالة قصور جسدي نهائى، سواء أكانت المحاولة بمبادرة شخصية أم مدبرة بقرار متغرس من الأقارب. أما في العمق، في العمق، وهذا ما لم يتحدث عنه الوزير الأول بالطبع، فلم تكن الحكومة تتظر بعين السوء إلى خروج يخدم، في التحليل الأخير، مصلحة البلاد بقدر ما يساعد على تحفيض ضغط ديموغرافي في تزايد مستمر منذ نحو ثلاثة شهور، وإن لم يصل بعد إلى حدود مثيرة للقلق. كما أن رئيس الحكومة لم يقل إنه، في هذا اليوم بالذات، قد اجتمع سراً مع وزير الداخلية بهدف التخطيط لنشر حرس، أو جواسيس، في جميع مناطق البلاد، من مدن وبلدات وقرى، بمهمة إطلاع السلطات على أي تحرك مريب من أشخاص مقربين من مرضى في حالة موت معطل. قرار التدخل أو عدم التدخل سيُدرس في كل حالة على حدة، ذلك أنه ليس من أهداف الحكومة الكبح الكامل لهذا النوع الجديد من الهجرة، وإنما توفير ارتياح جزئي لقلق حكومات البلدان ذات الحدود المشتركة، بما يكفي لتهيئة الشكوى لبعض الوقت. لسنا هنا لنفعل ما يريدونه، قال رئيس الوزراء بتسليط، ولاحظ وزير الداخلية، ما زالت الدسакر الصغيرة والملكيات والبيوت المعزولة خارج الخطة، فقال رئيس الحكومة، هؤلاء سنتركهم مطمئنين، وأن يفعلوا ما يرون، فأنت تعرف جيداً يا عزيزي الوزير، ومن خلال التجربة، أنه من المستحيل وضع شرطي إلى جانب كل شخص.

سارت الخطة خلال أسبوعين بدقة كاملة تقريباً، ولكن بعض الحراس بدؤوا بعد ذلك بالشكوى من أنهم يتلقون تهديدات عبر الهاتف، تتوعدهم، إذا كانوا يريدون أن يعيشوا حياة هادئة عليهم أن يغضوا النظر عن التهريب السري للمرضى النهائيين، بل أن يغمضوا

عيونهم تماماً إذا كانوا غير راغبين في أن يزيدوا بأجسادهم بالذات أعداد الأشخاص المكاففين بمراقبتهم. ولم تكن مجرد كلمات فارغة، وهو ما تأكّد عندما تلقت أسر أربعة حراس إشعاراً عبر مكالمات هاتفية مجهرة بأنه عليها التقاطهم من أماكن معينة. ومن الحالة التي وجدوهم عليها، يمكن القول إنهم لم يكونوا ميتين، ولكنهم لم يكونوا أحياء كذلك. وحيال خطورة الوضع، قرر وزير الداخلية أن يُظهر سلطته للعدو المجهول، فأمر بأن يضاعف الجواسيس تحرياتهم من جهة، وأن يُلغى من جهة أخرى نظام التقييد وعدّ القطرات، هذا نعم وهذا لا، الذي كان يُطبق وفقاً لتكنيك الوزير الأول. وكان الردّ فورياً، إذ تعرض أربعة حراس آخرون للمصير الحزين الذي تعرض له السابقون، ولم يكن هناك في هذه الحالة سوى مكالمة هاتفية وحيدة موجهة إلى وزير الداخلية، يمكن فهمها على أنها استفزاز أو عمل محدد بالمنطق المفضي، كمن يريد القول، نحن موجودون. ولكن الرسالة لم تتوقف عند هذا الحد، بل كانت تتضمن ملحاً يمثل اقتراحاً بناءً، فلنقر اتفاق جنتلمن، قال الصوت من الطرف الآخر للخط الهاتفي، أن تأمر الوزارة بسحب الحراس وتتولى نحن نقل المرضى مباشرة، من أنتم، سأل مدير الخدمات الذي ردّ على المكالمة، إننا أناس محبون للنظام والانضباط، أناس على قدر كبير من الكفاءة في اختصاصهم، يمقتون الفوضى وينفذون دائماً ما يُعدون به، وباختصار، نحن أناس شرفاء، وهل لهذا الجماعة اسم، أزاد الموظف أن يعرف، هناك من يسموننا مافيا، وثُكتب maphia، بـ ph، لماذا ثُكتب بـ ph، لكي تتميز عن المافيا الأخرى الـ mafia التقليدية، الدولة لا تعقد اتفاقيات مع مafias، لا تعقد بالطبع اتفاقيات على الورق موقعة ومصدقة عند كاتب بالعدل، لا هذه الاتفاقيات ولا غيرها، ما هو منصبك، أنا مدير الخدمات، وهذا يعني أنك شخص لا

يعرف شيئاً عن الحياة الواقعية، لدى مسؤولياتي، ما يهمنا في الوقت الحالي هو أن تنقل اقتراحتنا إلى صاحب الاختصاص، أي الوزير، إذا كنت ممن يصلون إليه، لست ممن يصلون إلى الوزير، ولكن المرجع المسؤول سيطلع على هذه المحادثة فوراً، لدى الحكومة ثمان وأربعون ساعة كي تدرس الاقتراح، بلا زيادة دقيقة واحدة، ولكن أخبر مرجعك المسؤول بأنه سيكون هناك تسعة حراس في حالة كوما إذا كان الجواب مخالفأ لما ننتظره، سأخبره بذلك، وبعد غد في مثل هذه الساعة سأعاود الاتصال بك لأعرف القرار، لقد دونت الملاحظة، أسعدي التحدث إلى حضرتك، لا يمكنني مبادلتك هذا الشعور، إنني واثق من أنك ستبدأ بتبدل رأيك عندما تعلم أن الحراس سيعودون سالحين معافين إلى بيوبتهم، وإذا كنت لا تزال تحفظ صلوات مما تعلمه في طفولتك، فابداً بترتيلاها لكي يكون هذا هو ما سيحدث، أتفهم ما تعنيه، كنت أعرف أنك ستتفهمه، وهو كذلك، ثمان وأربعون ساعة، دون زيادة دقيقة واحدة، لن أكون أنا بكل تأكيد من سيرد على مكالمتك، أما أنا فإني متأكد من أنك ستكون أنت، لماذا، لأن الوزير لن يوافق على التكلم معي مباشرة، أضف إلى ذلك أنه إذا مضت الأمور نحو الأسوأ فستكون أنت من تُلقى عليه التبعات، وتذكر أن ما نقترحه هو اتفاق جنتمان بين فرسان، أجل يا سيدى، طاب مساواك، طاب مساواك. سحب موظف الخدمة الشريط المف躬ط من آلة التسجيل وذهب للتحدث مع المرجع المسؤول.

بعد نصف ساعة من ذلك كان الشرطي بين يدي وزير الداخلية. فاستمع إليه، وأعاد سماعه، ثم سمعه للمرة الثالثة، وبعد ذلك سأله هل مدير الخدمات هذا شخص موثوق، حتى هذا اليوم لم يكن لدى أدنى سبب للشكوى منه، أجاب المرجع المسؤول، وأمل ألا يكون لديك أقصى سبب، لا أقصى ولا أدنى، قال المرجع المسؤول الذي لم

ينتبه إلى السخرية، أخرج الوزير الكاسيت من آلة التسجيل، وراح يسحب الشريط منه. وعندما انتهى من سحبه وضعه في منفحة سجائرة من الكريستال وقرب منه لهب ولاعة. بدأ الشريط يتعدد ويتوالى، وفي دقيقة واحدة تحول إلى تشابك مفتت ضارب إلى السواد، ولا شكل له. لابد أنهم هم أيضاً قد سجلوا الحوار مع مدير الخدمات، قال المرجع المسؤول، لا أهمية لذلك، فيمكن لأي شخص أن يفكك محادثة هاتفية، باستخدام صوتين وآلية تسجيل يكون لديه أكثر مما هو كافٍ، وما يحسب هنا هو أننا أتلفنا شريطنا، وبإحراق الأصل ثُرِق مقدماً كل النسخ الممكنة، لا حاجة لأن أقول لك إن عاملة مقسم الهاتف تحفظ بالأصول، فلنحتفظ بإتلاف تلك الأصول أيضاً، حاضر يا سيدي، وإذا ما سمح لك لي الآن، سأنسحب وأتركك لكي تفكّر في المسألة، لقد فكرتُ في الأمر، لا تذهب، لا يفاجئني ذلك في الواقع، فحضرتك تتمتع بامتياز امتلاك تفكير نشيط جداً، ما قلتَه يمكن أن يكون تلقاءً لولا أنه واقعي، فالصحيح أنني أفكّر بسرعة، هل ستتوافق على الاقتراح، سأقدم اقتراحاً مضاداً، أخشى أنهم لن يوافقوا عليه، فالعبارات التي استخدمها المتصل، فضلاً عن أنها حاسمة، كانت أكثر من متوعدة، سيكون هناك مزيد من الحراس في حالة كوما إذا كان الجواب مخالفًا لما ننتظره، هكذا كانت كلماته، يا صديقي العزيز، الجواب الذي سنقدمه إليهم هو ما ينتظرونـه بالضبط، لست أفهم، مشكلتك يا صديقي العزيز، وأقول هذا دون نية في إغضابك، أنك عاجز عن التفكير كوزير، هذه خطيرتي، وأنا آسف لذلك، لا تتأسف، فإذا ما استدعوك يوماً لخدمة البلاد في وظيفة وزارية سترى كيف أن الثقافة مفاجئة ستحدث في دماغك في اللحظة نفسها التي تجلس فيها على كرسي مثل هذا، لا يمكن لك تخيل الفرق، تغذية الأوهام لن توصلني بعيداً جداً، إنني

مجرد موظف، أنت تعرف القول القديم، لا تقل أبداً إنك لن تشرب من هذا الماء، وأمام حضرتك الآن ماء مر لشربه، قال المرجع المسؤول مثيراً إلى بقایا الشريط المحروق، عندما تُتبع إستراتيجية محددة جيداً وتعُرف معطيات القضية بصورة كافية، لن يكون من الصعب رسم خط عمل مضمون، كلي آذان مصفية يا سيد الوزير، بعد غد، سيقول مدير الخدمات لديك، لأنه هو من سيرد على المتصل، سيكون هو المفاوض من جانب الوزارة، ولا أحد سواه، سيقول إننا موافقون على دراسة الاقتراح الذي قدموه إلينا، ولكنه يستبق على الفور بأن الرأي العام ومعارضي الحكومة لن يسمحوا بأن يُسحب آلاف الحراس من مهماتهم دون تفسير مقبول، ومن الواضح أن هذا التفسير المقبول لا يمكن أن يكون بتولي المافيا الآن العملية، هكذا هو الأمر، وإن كان يمكن لك أن تقوله بعبارات منتقاة بصورة أفضل، اعذرني يا سيد الوزير، فقد خرجت الكلمات مني دون أن أفكّر فيها، حسن، وبالوصول إلى هذه النقطة، يقدم مدير الخدمات اقتراحاً مضاداً، ويمكن لنا كذلك أن نسميه اقتراحاً بديلاً، بمعنى أن الحراس لن يُسحبوا، بل سيبقون في أماكنهم التي هم فيها الآن، ولكنهم يصيرون معطلين، معطلون، أجل، أظن أن الكلمة واضحة تماماً، لا شك في ذلك يا سيد الوزير، فقد عبرت عن مفاجأتي وحسب، لا أرى سبباً للمفاجأة، فهذه هي الطريقة الوحيدة المتوفّرة كيلا نبدو كأننا قد خضعنا لابتزاز عصابة الأوغاد، بالرغم من أننا سنكون قد خضعنا في الواقع، المهم هو ألا يظهر ذلك، وأن نحافظ على المظاهر، وما يجري في الخلفية لن يكون من مسؤوليتنا، مثل ماذا، فلنتخيل أننا اعترضنا الآن وسيلة نقل واعتقلنا أولئك الأشخاص، فلا حاجة للقول إن هذه المجازفات كانت متضمنة في الفاتورة التي كان على الأقرباء دفعها، لن تكون هناك فواتير ولا إيصالات، لأن

المافيا لا تدفع ضرائب، إنها مجرد طريقة للتعبير، والمهم في هذه الحالة هو واقع أننا جميعنا سنخرج رابحين، نحن سترفع همّاً عن كاهلنا، والحراس لن يتعرضوا لمزيد من الأذى الجسدي، والعائلات سترتاح وهي تعلم أن موتاها الأحياء سيتحولون أخيراً إلى أحياء موتي، والمافيا ستقبض مقابل عملها، ترتيب متكملاً يا سيادة الوزير، كما أنه سيستند إلى الضمانة القوية بأن أيّاً من المستفيددين لن يفتح فمه، أظن أنك على حق، ربما بدا لك يا صديقي العزيز أن وزيرك شخص صفيق، ولا بأي حال يا سيدي الوزير، إنني معجب فقط بالسرعة التي توصلت فيها إلى ترتيب كل شيء بصورة راسخة ومنطقية ومتماضكة جداً، إنها الخبرة يا صديقي، إنها الخبرة، سأذهب لأكلم مدير الخدمات، وسأنقل إليه تعليماتك، وأنا واثق من أنه سيؤدي المهمة على أحسن وجه، مثلاً قلت لك من قبل، لم أجده قط أدنى سبب للشكوى منه، ولا أقصى سبب على ما أظن، ولا أي سبب من هذا النوع، ولا أي سبب من ذاك، أجاب المرجع المسؤول الذي فهم أخيراً دقة اللمسة المازحة.

كل شيء، أو كل شيء تقريباً من أجل مزيد من الدقة، جرى مثلاً تبأ الوزير. ففي الموعد المحدد بالضبط، لا دقيقة قبل ولا دقيقة بعد، أجرى ممثل جمعية المجرمين التي تسمى نفسها مافيا اتصالاً هاتفيّاً ليسمع ما الذي يريد الوزير أن يقوله له، وتولى مدير الخدمات بنبرة عالية عباء الواجب الذي أوكل إليه، كان حازماً وواضحاً، وكان مُقنعاً في المسألة الرئيسية، هذا يعني مسألة بقاء الحراس في مواقعهم، ولو معطلين، ونال سعادة أن يتلقى مقابل ذلك، وينقل إلى المرجع المسؤول، أفضل الإجابات الممكنة في الظرف الراهن، وهي أن اقتراح الحكومة البديل سيدرس باهتمام وبالتالي سيكون هناك اتصال هاتفي آخر بعد أربع وعشرين ساعة. وهذا ما حصل. وبعد

الدراسة تبين أن اقتراح الحكومة يمكن أن يكون مقبولاً، ولكن بشرط واحد، ويتمثل الشرط في أن يشمل التعطيل فقط أولئك الحراس الذين ظلوا على ولائهم للحكومة، وهذا يعني بكلمات أخرى، أولئك الذين لم تستطع المافيا، ببساطة، إقناعهم بالعمل مع رب العمل الجديد، أي المافيا نفسها. فلنبذل جهداً في فهم وجهة نظر الجرميين. فقد وضعوا أمام عملية معقدة طويلة الأجل وعلى المستوى الوطني، وصاروا مضطرين إلى استخدام جزء لا بأس به من عاملיהם المجربيين في زيارة الأسر التي كان يمكن لها في البدء أن تميل إلى التخلص من أحبائهما المرضى لتوفر عليهم، بصورة جديرة بالثناء، آلاماً ليست غير مجده وحسب، وإنما أبدية كذلك، وكان واضحاً أن ذلك يناسبهم، قدر الإمكان، وقد استخدموه لهذا الهدف أسلحتهم المفضلة، أي الفساد، والرشوة، والتخييف، واستغلال خدمات شبكة المخبرين الضخمة المتوفرة مسبقاً لدى الحكومة. وعلى هذا الحجر الذي ألقى فجأة في منتصف الطريق تعثرت إستراتيجية وزير الداخلية ملحقة ضرراً بالغاً بكرامة الدولة والحكومة. ولأنه علق بين الجدار والسيف، بين إسيلا وكاريبidis<sup>(١)</sup>، بين المطرقة والستدان، فقد هرعت ليتقاشر مع الوزير الأول في عقدة المعضلة غير المتوقعة التي ظهرت فجأة. والسيئ هو أن الأمور كانت قد أولفت بعيداً بحيث لم يعد التراجع ممكناً الآن. وعلى الرغم من تمنع الوزير الأول بخبرة أكبر من خبرة وزير الداخلية، إلا أنه لم يجد مخرجاً للخلاف أفضل من اقتراح مفاوضات جديدة تجري الآن بإقرار نوع من النسبية، كأن يتتحول نحو خمسة وعشرين بالمئة من عدد الحراس العاملين، كحد أقصى، إلى العمل لمصلحة الجانب الآخر. ومرة أخرى كان على مدير الخدمات أن

---

(١) إسيلا وكاريبidis: escila y Caribdis: اسم دوامة مائية وصخرة ناتئة في مضيق مسينا الذي كان الملاحون القدماء يخشون الإبحار فيه.

ينقل إلى محدثٍ فقد صبره خطة المصالحة التي يثق رئيس الحكومة وزير الداخلية، مدفوعين بهفتها إلى تعزيز الآمال، بأن الاتفاق سيكون متواصلاً بفضلها. وأن الاتفاق سيكون دون توافق، على اعتبار أنه اتفاق جنسلمان، من تلك الاتفاques التي يكفي فيها التزام الكلمة ببساطة، وبغض النظر، كما يوضح لنا معجم اللغة، عن كل الشكليات القانونية. كان ذلك جهلاً مطبقاً بمدى التواء وخبث روح المafياويين. ففي المقام الأول، لم يقرروا أي موعد للرد، تاركين وزير الداخلية المسكين على آخر من الجمر، ومتاهباً لتقديم ورقة استقالته. وفي المقام الثاني، وعندما قرروا بعد عدة أيام أنه يتوجب عليهم الرد، لم يفعلوا ذلك إلا ليقولوا إنهم لم يتوصلا بعد إلى أي نتيجة حول إذا ما كان للخطوة أن تكون مناسبة للمصالحة بالنسبة إليهم، وبصورة عابرة، كمن هو غير راغب في الأمر، انتهزوا الفرصة للإفخار بأنه ليس لهم أي علاقة بحادث اليوم السابق المؤسف الذي عُثر فيه على أربعة حراس آخرين في حالة صحية متردية جداً. وفي المقام الثالث، ولأن لكل انتظار نهاية، سواء كانت سعيدة أم تعيسة، فإن الرد الذي نقلته الإدارة العامة للمافيا إلى الحكومة، عبر مدير الخدمات وال المرجع المسؤول، ينقسم إلى نقطتين هما، النقطة آ، لن تكون النسبة العددية خمسة وعشرين بالمئة، بل خمسة وثلاثين بالمئة، والنقطة ب، تطالب المنظمة بأن يُعترف لها بالحق، كلما وجدت ذلك مناسباً لصالحها، ودون حاجة إلى استشارة مسبقة مع السلطات، وبالتالي دون الحاجة إلى موافقتها، في تحويل حراس للعمل في خدماتها، في الأماكن التي يتواجد فيها حراس معطلون، على أن يكون واضحاً أن أولئك سيحلون في أماكن هؤلاء. والمبدأ هوخذ الاتفاق كاملاً أو اتركه كاملاً. هل ترى طريقة للإفلات من هذا الخيار، سأله رئيس الحكومة وزير الداخلية، لا أظن أن ثمة وجوداً لطريقة كهذه يا سيدى، لأننا إذا

رفضنا فسوف نجد أربعة حراس معطلين من الخدمة ومن الحياة في كل يوم يمر، وإذا قبلنا، فسنكون في قبضة هؤلاء الناس لوقت لا يعرفه إلا الله، إلى الأبد، أو على الأقل ما دامت هناك عائلات تريد التحرر بأي ثمن من عرقلة المرضى الذين في بيوتهم، هذا الأمر أوحى لي بفكرة، لا أدرى إذا كان عليّ أن أبتهج، لقد قمتُ بأفضل ما أستطيعه أيها السيد الوزير الأول، وإذا كنتُ قد تحولت إلى عقبة من نوع آخر فما عليك إلا أن تقول لي كلمة واحدة، قل ما لديك، ولا تكن حساساً، ما هي فكرتك، أظن يا سيادة الوزير الأول أننا في مواجهة نموذج واضح من العرض والطلب، وما علاقة هذا بموضوعنا، إننا نتحدث عن أشخاص ليس أمامهم في هذا الوقت سوى طريقة واحدة للموت، مثلما هي الحال في مسألة الشك الكلاسيكية حول من ظهر أولاً، الدجاجة أم البيضة، لا يمكن لنا التمييز هنا أيضاً إذا كان الطلب قد سبق العرض، أم أن الأمر معكوس، وأن العرض هو الذي حرك الطلب، أرى أن سحبك من وزارة الداخلية ووضعك في وزارة الاقتصاد لن يكون سياسة سيئة، ليس الاختلاف كبيراً بينهما كما تعتقد يا سيادة الوزير الأول، فمثلاً يوجد في وزارة الداخلية اقتصاد، توجد داخلية كذلك في وزارة الاقتصاد، إنها أوانٌ مستطرفة إذا صح التعبير، لا تشرد بعيداً، وأخبرني ما هي فكرتك، لو لم يخطر لتلك الأسرة الأولى أن حلّ المشكلة يمكن أن يكون في انتظارها في الجانب الآخر من الحدود، فربما كان الوضع الذي نحن فيه الآن مختلفاً، ولو أن عائلات كثيرة لم تحاكي بعد ذلك ما فعلته تلك الأسرة، لما كانت المافيا قد ظهرت لاستغلال تجارة ما كانت لها أن توجد بكل بساطة، هكذا هو الأمر نظرياً، وإن كان هؤلاء قادرين، مثلما نعلم، على عصر الماء من حجر لا ماء فيه وبيعه بعد ذلك بسعر أعلى، ولكنني على أي حال ما زلت غير قادر على رؤية ما هي

ففكرتك هذه، إنها بسيطة يا سيادة الوزير الأول، عسى أن تكون كذلك، إنها بكلمات قليلة تجفيف مصدر العرض، وكيف يمكن التوصل إلى ذلك، بإقناع العائلات، باسم أقدس المبادئ الإنسانية، باسم حب القريب والتضامن، كي يحقظوا بمرضاهם النهائيين في البيوت، وكيف يمكننا إحداث هذه المعجزة برأيك، إنني أفكر في حملة دعائية كبرى في كل وسائل الانتشار، الصحف، التلفزيون، الإذاعة، وحتى المظاهرات في الشارع، وجلسات توضيح، وتوزيع منشورات ولصاقات، ومسرح في الشارع والقاعات، وسيتم، وبصورة خاصة إنتاج مسلسلات دراما عاطفية ورسوم متحركة، حملة قادرة على التأثير لدرجة استدرار الدموع، حملة تقود الأقارب المنحرفين عن واجباتهم إلى الندم وتجعلهم أشخاصاً متضامنين، ناكرين للذات، رحماء، وأنا واثق أن العائلات الخاطئة ستعي خالل وقت قصير جداً قسوة سلوكها الحالي التي لا تفتقر، وترجع إلى القيم السامية التي كانت لا تزال حتى وقت قريب قاعدتها الراسخة، إن شكوكي تتزايد في كل لحظة، وأنا أسأءال الآن ألا يتوجب أن تقدم إليك حقيقة الثقاقة، أو الأديان التي أجد لديك، أيضاً بعض الميلول تجاهها، ويمكن لك كذلك يا سيادة الوزير الأول أن تجمع الحقائب الثلاث في وزارة واحدة، وهل توضع معها حقيقة الاقتصاد أيضاً، أجل، من أجل مسألة الأواني المستطرقة، ولكن الحقيقة التي لن تتفع فيها يا صديقي العزيز هي الدعاية، ففكيرتك هذه عن الدعاية التي تجعل العائلات تعود إلى حظيرة الأرواح الحساسة ما هي إلا بلاهة كاملة، لماذا يا سيادة الوزير الأول، لأن حملات من هذا النوع لا نفع فيها في الواقع إلا من يتقاضى تكاليفها، لقد قمنا بحملات كثيرة، أجل، وبالنتائج المعروفة، وفوق ذلك، بالعودة إلى المسألة التي تشغلينا، لو افترضنا أن الحملة ستتوصل إلى نتائج، فإن ذلك لن يتحقق اليوم أو غداً، وأنا على

أن أتخذ قراراً الآن بالذات، إنني بانتظار أوامرك يا سيادة الوزير الأول.

ابتسم رئيس الحكومة بيأس، كل شيء مضحك وسخيف، قال،

نحن نعرف جيداً أنه ليس لدينا خيارات وأن الاقتراحات التي تقدمنا بها

لم تتفق إلا في زيادة الوضع سوءاً، وفي هذه الحال، في هذه الحال،

إذاً كنا لا نريد أن نُحمل ضميرنا مسؤولية أربعة حراس في كل يوم

يُدفعون بالضرب حتى بوابة الموت، فلا يبقى أمامنا سبيل آخر سوى

قبول الشروط التي عرضوها علينا، يمكننا إطلاق عملية بوليسية

خاطفة، عملية مداهمة، ونزح في السجن بضع عشرات من عناصر

المافيا، وربما نفلح بذلك في جعلهم يتراجعون، الطريقة الوحيدة

للقضاء على التين هي في قطع رأسه، أما تقليم أظفاره فلا يفيد في

شيء، لا بد أن يفيد في شيء ما، سنخسر أربعة حراس في اليوم،

تذكرة ذلك أيها السيد وزير الداخلية، أربعة حراس في اليوم، من

الأفضل الاعتراف بأننا نجد أنفسنا مقيدى القدمين واليديين، المعارضة

ستهاجمنا بمزيد من القسوة، وستتهمنا ببيع البلد إلى المافيا، لن يقولوا

البلد، بل سيقولون الوطن، وهذا أسوأ، فأمل أن تمد لنا الكنيسة يد

المساعدة، وأتصور أن رجالها قابلون للتآثر بحججة أننا اتخذنا هذا القرار

لإنقاذ حياة الحراس، إضافة إلى تقديم بعض الموتى المفدين لهم، لم

يعد بالإمكان التكلم عن إنقاذ حيوانات يا سيادة الوزير الأول، فهذا

من الماضي، معك حق، لا بد لنا من ابتكار تعبير آخر. ساد صمت.

وبعد ذلك قال رئيس الحكومة، فلننه هذا الأمر، وجه التعليمات

الضرورية لمدير خدماتك وابدا العمل بخطبة التعطيل، وعليينا أن نعرف

كذلك ما هي أفكار المافيا حول التوزع الجغرافي لنسبة الخمسة

والعشرين بالمئة من الحراس المطلوبين، النسبة هي خمس وثلاثون يا

سيادة الوزير الأول، لنأشكرك لأنك ذكرتني بأن هزيمتنا أكبر

مما بدا أنه لا يمكن تجنبه في البداية، إنه يوم حزين، لن تسميه

هكذا عائلات الحراس الأربعة التالين لو أنها تعلم بما يجري هنا،  
وماذا لو فكرنا في أنه يمكن لهؤلاء الحراس الأربعة أن يعملوا غداً  
مصلحة المافيا، هكذا هي الحياة يا عزيزي حامل لقب وزير الأوانى  
المستطرقة، بل الداخلية يا سيادة رئيس الوزراء، الداخلية، هذه هي  
الوديعة المركزية.

قد يظن البعض أنه بعد حالات استسلام كثيرة ومخزية مثلما هو استسلام الحكومة خلال صفقات خذ وهات التي عقدتها مع المافيا، ووصلت بها إلى حد القبول بأن ينتقل موظفون عموميون بأشهون وشرافاء إلى العمل بدوام كامل لمصلحة المنظمة الإجرامية، قد يُظن، كما قلنا، أنه قد لا تكون ثمة وضاعة أكبر. ولسوء الحظ أن التوغل، بالتلمس، في أراضي السياسة الواقعية المستفعية، عندما تمسك البرجماتية بعضاً قائد الأوركسترا وتقود الفرقة الموسيقية دون أن تهتم بما هو مدون في النوتة، سيكون مؤكداً أن منطق الدناءة المحروم سينتهي إلى البرهنة على أنه ما زالت هناك بعض درجات وضاعة أخرى يتوجب نزولها. ومن خلال الوزير المختص، أي وزير الدفاع الذي كان يُسمى وزير الحرب في أزمنة أكثر صراحة، صدرت تعليمات بأن تقتصر مهمة قوات الجيش التي ظهرت على طول الحدود على حراسة الطرق الرئيسية، وخاصة تلك المؤدية إلى البلدان الثلاثة المجاورة، وأن تُترك طرق الدرجة الثانية والثالثة لسلامتها الرعوي، وتُترك كذلك، بسبب العباء، الشبكة الكثيفة من الطرق الجانبية، والdroves، والسبل، والمجازات، والطرق المختصرة. ولأنه لا يمكن فهم ذلك بطريقة أخرى، فإنه يعني عودة معظم تلك القوات إلى ثكناتها، وإذا كان صحيحاً أن الأمر كان مصدر سعادة كبيرة للجنود العاديين، فمن في ذلك العرفاء والعرفاء المكافيون بالإطعام الذين ضجروا من نوبات الحراسة والدوريات النهارية والليلية، فإنه أدى، بالمقابل، إلى

استياء متّاج في مستوى الرقباء الذين هم، كما يبدو، الأكثر وعيًا من بقية العاملين في السلك بأهمية قيم الشرف العسكري وخدمة الوطن. ومع ذلك، وإذا كانت حركة هذا الاستياء قد صعدت حتى الملازمين، وإذا كانت قد فقدت قدرًا من اندفاعها عند مستوى الملازمين الأولين، فالصحيح أنها عادت لاكتساب قوة، وقوة كبيرة، عند وصولها إلى مستوى النقابة. ولم يكن بينهم بالطبع من يتجرأ على التلفظ بكلمة مافيها الخطرة بصوت عالٍ، ولكنهم حين يتجادلون فيما بينهم لا يستطيعون تجنب الإتيان على ذكر واقع أنه في الأيام السابقة على إنهاء الاستفسار جرى اعتراف عدد من الشاحنات التي تقل مرضى نهائين، وكان يجلس فيها، إلى جانب السائق، حارس مكلف رسمياً، يعرض عليهم، حتى قبل أن يطلبوا منه ذلك، وثيقة عليها كل التوقيع والاختام الضروري التي تسمح صراحة، لأسباب تتعلق بالمصلحة الوطنية، بنقل المريض فلان الفلاني إلى وجهة غير محددة، ولكنها تلزم بأنه يتوجب على القوات العسكرية أن تعتبر نفسها مجبرة على تقديم التسهيلات التي تطلب منها لتضمن لمسقطلي الشاحنة الفعالية التامة في عملية النقل. وما كان يمكن لذلك كله أن يستثير الشكوك في نفوس الرقباء الوقورين لو لم تحدث، في سبع مناسبات على الأقل، المصادفة الغريبة المتمثلة في غمز الحراس بعينه للجندي وهو يقدم إليه الوثيقة ليتأكد من صحتها. وبالنظر إلى التباعد الجغرافي بين الأماكن التي جرت فيها هذه الواقائع في حياة الحملة العسكرية، فقد استبعدت على الفور إمكانية أن تكون مجرد إيماءة خاطئة، إذا صحت هذه التسمية، أو حركة لها علاقة بأشد رسائل الإغواء بدائية بين أشخاص من الجنس نفسه أو من جنسين مختلفين، والأمر سيان في هذه الحالة. وبالنظر إلى التوتر الذي بدت مظاهره واضحة على الحراس حينذاك، وإن يكن صحيحاً أنها بدت على

بعضهم بوضوح أكثر من آخرين، ولكنهم جميعهم كانوا يبدون، بطريقة ما، كمن يلقي إلى البحر قارورة فيها ورقة تطلب التجدّة، مما دفع مؤسسة الرقباء الفطنة إلى التفكير في أنه لابد أن يكون مختبئاً في الشاحنات ذلك الهرّ المشهور الذي يجد على الدوام طريقة لترك طرف ذيله ظاهراً عندما يريد أن يكتشفوه. وبعد ذلك جاء الأمر الذي لا تفسير له بالرجوع إلى الثكنات، ثم بعض الهمسات هنا وهناك، لا يعرف أحد كيف بدأت ولا أين، غير أن بعض النمامين يلمّحون، همساً، إلى أنها قد تكون ولدت في وزارة الداخلية نفسها. ردت صحف المعارضة أصداe أجواء الهواء الخبيث الذي يسود الثكنات العسكرية، ونفت الصحف المقربة من الحكومة بشدة أن تكون تلك الأبخرة العفنة تسمم روح كيان القوات المسلحة، ولكن المؤكد أن الشائعات عن انقلاب عسكري يجري التحضير له، وإن لم يكن هناك من هو قادر على معرفة لماذا ومن أجل أي شيء، راحت تتعالى في كل مكان ودفعت إلى مستوى تال، آنياً، الاهتمام العام بمشكلة المرضى الذين لا يموتون. وهذا لا يعني أن الأمر قد تُسي تمامًا، مثلما تؤكد جملة جرى تداولها آنذاك وكررها بكثرة رواد المقاهي، وتقول، حتى لو وقع انقلاب عسكري، هناك أمر واحد على الأقل يمكننا أن نكون واثقين منه، فمهما تكاثر الرصاص الذي سيتبادله الجانبان، لن يتمكن من قتل أحد. كان يُنتظر بين لحظة وأخرى صدور نداء دراميكي من الملك لمصلحة الوئام الوطني، وبيان من الحكومة يعلن عن حزمة إجراءات مستعجلة، وتصريح من القيادات العليا للجيش والطيران - لأنه لا وجود لقوات بحرية، بسبب عدم وجود بحر في البلاد - يعلن الولاء المطلق للسلطات الدستورية الشرعية، وبيان كتاب، و موقف فنانين، وكوادر تضامني، ومعرض ملصقات ثورية، وإضراب عام تدعو إليه المنظمتان النقابيتان معاً، ومسرحية

رعوية يقيمها الأساقفة تدعو إلى الصلاة والصيام، وموكب تكفير للتأبين، وتوزيع مكثف لمشورات صفراء وزرقاء وخضراء وحمراء وببيضاء، بل جرى الحديث كذلك عن الدعوة إلى ظاهرة ضخمة يشارك فيهاآلاف الأشخاص من مختلف الأعمار والأوضاع ممن هم في حالة موت معلق، تجوب الشوارع الرئيسية على محفات، وكراسٍ بعجلات، وفي سيارات إسعاف، أو على كواهل أمن ابنائهم بنية، مع لافتة ضخمة في بداية الظاهرة تقول، نحن من نمضي حزاني هنا، أنت السعداء ننتظر، مضحية بأربع فواصل فقط من أجل الحفاظ على فعالية شطري الشعار.. وأخيراً لم تكن هناك حاجة لشيء من هذا كله. صحيح أن الشكوك بمشاركة المافيا المباشرة في نقل المرضى لم تتبدد، وصحيح أنها تعززت وتأكدت على ضوء بعض الحوادث التالية، لكن ساعة واحدة كانت كافية لأن تؤدي تهديدات العدو الخارجي المفاجئة إلى تهدئة الخلافات الأخوية واجتماع شمل الفئات الثلاث، الكهنوت والنبلاء وعامة الشعب، وهو التقسيم الذي مازال ساري المفعول في هذه البلاد على الرغم من تطور الأفكار، والتتفافها حول الملك، وحول حكومتها كذلك، وإن يكن مع بعض التحفظات التي لها ما يبررها. والقضية، كما هي الحال دائماً، يمكن أن تُروى بكلمات موجزة.

فحكومات البلدان الثلاث المجاورة التي ثارت حفيظتها لاستمرار احتياح أراضيها من قبل فرق دفن مافياوية منظمة أو عفوية تلقائية، قادمة من تلك الأرضي الشاذة التي لا يموت فيها أحد، وبعد احتجاجات دبلوماسية غير قليلة لم تُنْفَدْ في شيء، قررت الحكومات الثلاث في عمل منسق، أن تدفع قواتها وحامياتها الحدودية إلى التقدم، مع أوامر واضحة بإطلاق النار بعد التحذير الثالث. ومن المناسب الإشارة إلى أن موت بعض رجال المافيا، ممن صرّعوا عملياً عن

قرب شديد بعد اجتيازهم خط الحدود الفاصل، وهي حوادث جرت العادة على تسميتها مصاعب المهنة، قد استُخدمت الآن كذريعة لترفع المنظمة أسعار قائمة الخدمات التي تقدمها تحت بند أمن العاملين والمخاطر العملية. وبذكرنا هذا التوضيح الصغير حول سير عمل الإدارة المafياوية، ننتقل الآن إلى المهم. فمرة أخرى، وبعد تصريف ارباك الحكومة وتردد القيادة العليا للقوات المسلحة في مناورة تكتيكية واضحة، استعاد الرقباء زمام المبادرة وكانوا، أمام أنظار العالم بأسره، هم الدعاة والمحرضون - وبالتالي هم الأبطال أيضاً - لحركة احتجاج شعبية خرجت من البيوت لطالع، جماهيرياً، في الساحات، وفي الجادات والشوارع، بعودة القوات إلى جبهة المعركة فوراً. فباتت هنالك ودون تحسّن للمشاكل الخطيرة التي تواجهها هذه البلاد في أزماتها الرباعية، ديمغرافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، قامت بلدان الجانب الآخر الثلاثة بخلع الأقنعة أخيراً وكشفت في ضوء النهار عن وجهها الحقيقي، وجه الغزاة القساة والإمبرياليين المتعجرفين. كل ما هنالك أنهم يحسدوننا، هذا ما كان يقال في المتاجر والبيوت، ويُسمع من الإذاعة والتلفزيون، ويُقرأ في الصحف، كل ما هنالك أنهم يحسدوننا لأنه لا موت في وطننا، ولهذا يريدون غزونا واحتلال أراضينا، كيلا يموتونا هم أيضاً. وخلال يومين، في مسيرات منهكة، ورایات خفّاقة، عاد الجنود لهم ينسدون المارسيليز، وماريا البنبو، ونشيد الميثاق، ولن يروا بلادنا، والرایة الحمراء، والبرتغالية، ولويحفظ الله الملك، والنسيد الأممي، وألمانيا فوق الجميع، ونشيد الماريات الثلاث، ورایة النجوم والخطوط، عاد الجنود إلى الواقع التي كانوا قد جاؤوا منها. وانتظروا بأقدام ثابتة، مسلحين حتى الأسنان، الهجوم والمجد. لم يحدث ذلك. فلا هجوم ولا مجد. لأنه لم يكن ثمة غزو ولا إمبريالية، فما كانت ترمي إليه

البلدان الثلاثة المجاورة هو ألا يجري، دون تصريح، دفن هذا النوع الجديد من المهاجرين الاضطراريين، ولو أنهم يكتفون بالدفن، فلا بأس، ولكنهم قد يذهبون كذلك ليقتلوا، ليغتالوا، ليُصْفِّوا، ليُطْفَئُوا، لأنهم يتجاوزون الحدود في تلك اللحظة الدقيقة والمشؤومة وأقدامهم إلى الأمام تسبقهم كي تتمكن رؤوسهم من ملاحظة ما يجري في بقية أجسادهم، بينما يموت عاثرو الحظ، ويلفظون النفس الأخيرة. كان العسكريان الشجاعان يقفان وجهاً لوجه، ولكن الدماء لم تصل في هذه المرة أيضاً إلى النهر. ولاحظوا أن ذلك لم يكن بمشيئة جنود هذا الجانب الذي هنا، لأن هؤلاء كانوا واثقين من أنهم لن يموتون حتى لو قطع لهم زخة رشاش إلى نصفين. ولا بد لنا من التساؤل، وإن بدافع الفضول العلمي المشروع، كيف يمكن الإبقاء على حياة الجزأين المنفصلين في تلك الحالات التي تبقى فيها المعدة في جانب والأمعاء في جانب آخر. ومهما يكن الأمر، فإنه ما كان يمكن إلا لمحنون كامل يستحق التقييد أن تخطر له فكرة إطلاق الرصاص الأولي. ولكن هذه الرصاصية، والحمد لله، لم تُطلق قط. وحتى حالة بعض جنود الجانب الآخر الذين قرروا الانشقاق والهرب إلى مملكة إلدورادو التي لا موت فيها، لم تتخمس إلا عن إعادتهم فوراً إلى موطنهم الأصلي، حيث كان بانتظارهم مجلس حربي. وهذه الواقعة التي انتهينا من إيرادها ليس لها أي أهمية على الإطلاق في سياق القصة الشاقة التي نرويها، ولن نعود إلى التحدث عنها، ولكننا لم نشأ مع ذلك تركها غارقة في ظلمة دواة الحرب. فالاحتمال الغالب هو أن المجلس الحربي قد قرر مسبقاً ألا يأخذ في الاعتبار، في مداولاته، اللهفة الساذجة إلى حياة الخلود التي تسكن القلب البشري منذ الأزل، فأين سينتهي هذا كله إذا ما عشنا جميعنا حياة أبدية، أجل، أين سينتهي كل هذا، سيسأل الإدعاء موجهاً ضربة من أخفض

أشكال الخطابة، أما الدفاع، واسمحوا لنا أن نستبق الأمور، فلن تكون لديه روح للعثور على جواب على مستوى المناسبة، لأنه هو أيضاً لا يملك أي تصور عن أين سينتهي هذا كله. ويؤمل ألا ينتهي الأمر على الأقل بإعدام أولئك الجنود المساكين رمياً بالرصاص. لأنه سيقال عندئذ، وبكل حق، إنهم ذهبوا بحثاً عن الصوف ورجعوا مجزوزين.

فلنتحول عن هذا الموضوع. ولنتحدث عن ارتياب الرقباء وخلفائهم الملائمين والنقباء حول مسؤولية المافيا المباشرة في نقل المرضى حتى الحدود، وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن هذه الشكوك قد تعززت بفعل بعض الأحداث اللاحقة. وهذه هي اللحظة المناسبة للكشف عنها وعن كيفية تطورها. ففي محاكاة لما فعلته أسرة صغار المزارعين التي بدأت هذه العملية، لم يكن ما تفعله المافيا بكل بساطة سوى اجتياز الحدود ودفن موتى، ولكنها كانت تقاضي مقابل ذلك مبلغاً طائلاً. وفارق آخر، هو أنها تقوم بالدفن دون أي اهتمام بجمالية المكان، ودون أن تدون كذلك في سجل العمليات الإشارات ونقطاط العلام الطبوغرافية وقياسات الأبعاد التي يمكن لها في المستقبل أن تساعد العائلات الباكية والنادمة على إساءتها في العثور على المدفن وطلب الصفح من الميت. والآن، لا حاجة لأن يكون المرء مزوداً بعقل استراتيجي كي يفهم أن الجنود المصطفين في الجانب الآخر من الحدود الثلاثة الأخرى قد تحولوا إلى عائق جدي أمام عمليات الدفن التي كانت تجري حتى ذلك الحين في ظروف آمنة بالغة الدقة. ولكن المافيا لن تكون جديرة باسمها لو لم تجد حلّاً للمشكلة. وإنه لأمر مؤسف في الواقع، واسمحوا لي بهذا التعليق على اليماش، أن أشخاصاً بالغى الذكاء، مثل من يقودون هذه المنظمات الإجرامية قد انحرفوا عن دروب التقيد بالنظام والقانون السويف وعصوا الوصية التوراتية الحكيمية التي تأمر بأن نكسب الخبر بعرق جبيننا، ولكن

الواقع هي الواقع، حتى لو كررنا عبارة أدامستور<sup>(١)</sup> الجريحة، آه، لست أعرف عن الغيظ مثل هذا الذي تقوله، ولترك هنا الحيلة الباعة على القنوط التي استخدمتهاmafia لتفادي صعوبة بدا، حسب كل المؤشرات، أنه لا مخرج منها. ومن المناسب التوضيح، قبل أن نواصل، أن مصطلح غيظ الذي وضعه الشاعر الملحمي على فم المارد التعيس كان يعني في ذلك الحين، فقط، الاستياء، الحزن العميق، ولكن عموم الناس قدروا، منذ زمن حتى الآن، وقد أحسنوا صنعاً، أن في ذلك تبديد لكلمة مدهشة للتعبير عن مشاعر مثل النفور، الاشمئزار، القرف، وهذه الكلمات، مثلاً يمكن للجميع أن يعرفوا، لا علاقة لها بما ذكر أعلاه. فأي حذر مع الكلمات يظل قليلاً، لأنها تبدل رأيها كما الأشخاص. أما مسألة الخدعة فلم تكن بالطبع للخشوة والربط، ولترك كي تجف، وكان لا بد للمسألة من تقليبيها، ومن أن يتدخل فيها مبعوثون بشوارب مستعارة وقبعات متهدلة الحافة، وبرقيات مشفرة، وحوارات عبر خطوط سرية، وعبر هاتف أحمر، واللقاء في مفترقات دروب في منتصف الليالي، وأوراق نقدية توضع تحت حجر، وكل ما نعرفه إلى هذا الحد أو ذاك عن مفاوضات أخرى، من تلك التي يلعب فيها الحراس بالنرد، إذا صح هذا القول. ولا يمكن التفكير كذلك في أنها، كما في الحالة الأخرى، مجرد صفحات جانبية. فضلاً عن مافيا هذه البلاد التي لا موت فيها، شاركت في المفاوضات على قدم المساواة مafias البلدان المجاورة، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على استقلالية كل واحدة من المنظمات

---

(١) أدامستور adamastor أو مارد العواصف، شخصية متخيلة في ملحمة اللوسيداداس، أشهر ملاحم الشعر البرتغالي وأجملها، وتدور حول الكشوف الجغرافية البرتغالية، وبطل الملحمة الأساسي هو الملاح المكتشف فاسكودي غاما.

الإجرامية في الإطار الوطني الذي تعمل فيه واستقلالية حكومتها. ولم يكن هناك أي تقبل لدخول مافيا أحد هذه البلدان في مفاوضات مباشرة مع إدارة بلد آخر، بل كان أمراً يستوجب اللوم. وبالرغم من كل شيء، لم تصل الأمور إلى هذا الحد، وقد حال دون ذلك حتى الآن، كلمحة حياء أخيرة، مبدأ السيادة الوطنية المقدس والمهم جداً للمافيات والحكومات على السواء، وهو مبدأ يبدو واضحاً إلى هذا الحد أو ذاك بالنسبة إلى الحكومات، ولكنه سيكون محط شك بالنسبة للجمعيات الإجرامية إذا لم نأخذ في اعتبارنا غيرة أصحابها الوحشية التي يدافعون بها عادة عن أراضيهم من مطامع هيمنة زملائهم في المهنة. تسيق ذلك كله، ومواءمة ما هو عام وما هو خاص، وموازنة صالح هؤلاء مع صالح أولئك، لم يكن بال مهمة اليسيرة، وهو ما يفسر أن الجنود، خلال أسبوعين مدیدين ومضجرين من الانتظار، أمضوا الوقت في تبادل السباب بمكبرات الصوت، وإن كانوا يحذرون على الدوام من عدم تجاوز بعض الحدود، وعدم المبالغة في نبرة الصوت، حتى لا تصعد الإهانة إلى رأس كولونييل نرق وتشتعل طروادة. وكان أكثر ما أسهم في تعقيد المفاوضات وتأخيرها واقع أنه لم يكن لدى أي من مafيات البلدان الأخرى حراس من الشرطة يحققون بهم ما يريدونه، فكانت تقصصهم بالتالي وسيلة الضغط الفعالة التي أدت إلى نتائج جيدة هنا. ومع أن هذا الجانب الغامض من المفاوضات لم يرشح إلا من خلال الشائعات المعهودة، إلا أن هناك تخمينات بأن القيادات الوسطى في جيوش البلدان المجاورة، وبموافقة المراتب العليا على التساهل وغض النظر، قد اقتتلت، والله وحده يعلم بأي ثمن، بحجج الناطقين باسم المafيات المحلية، لمغزى غض الطرف عن مناورات الذهاب والإياب، والتقدم والتقهقر التي لا مفر منها، وفي ذلك يتلخص حل المشكلة. وقد كان بإمكان أي طفل التوصل إلى مثل

هذه الفكرة، ولكن توصله إلى جعلها فعلية يتطلب بلوغه ما نسميه سن الرشد، والاقتراب من باب شعبة التجنيد في المافيا ليقول، ميولي جاءت بي إليكم، فافعلوا بي ما تشاءون.

من المؤكد أن محبي الاقتضاب، محبي أسلوب الإيجاز، أسلوب الاقتصاد في اللغة، يتساءلون لماذا، إذا كانت الفكرة بهذه البساطة، تطلب الأمر كل ذلك التعليل من أجل الوصولأخيراً إلى النقطة الحرجة. الجواب على ذلك بسيط أيضاً، وسنقدمه مستخدمين مصطلحاً معاصرأً، حداثياً، ونأمل أن نرى فيه تعويضاً عن العبارات القديمة التي لطخنا بها هذه القصة بالصدأ، مثلما يُحتمل أن يكون رأي البعض، والمصطلح هو background. وحين نقول باكفراوند فإن الجميع يعرفون ما الذي يعنيه، ولكننا لن نعدم شكوكاً لو أنها بدلاً من باكفراوند قلنا بابتدال «خلفية»، هذا التعبير القديم الآخر الموجوج، والأدهى أنه أقل أمانة على الحقيقة، ذلك أن باكفراوند ليست الخلفية وحسب، إنها كافة المستويات التي لا حصر لها الموجودة بصورة جلية بين الموضوع المراقب وخط الأفق. سيكون من الأفضل أن نقول إطار المسألة، أجل، إطار المسألة بالضبط، والآن وقد صارت المسألة، أخيراً، مؤطرةً لدينا جيداً، الآن أجل، حان الوقت لكشف ماهية خدعة المافيا لتفادي إمكانية وقوع نزاع حربي لا ينفع إلا في إلحاق الضرر بمصالحها. وكان يمكن لطفل، كما قلنا، أن يتصور الفكرة، وقد كانت بكل بساطة هي التالية، نقل المريض إلى الجانب الآخر من الحدود، والعودة به إلى الوراء ميتاً لدفنه في أحضان مسقط رأسه الأمومي. إنها حركة كش مات متقدنة إلى أقصى حدود الصرامة، دققة ومضبوطة بكل ما في الكلمة من معنى. ومثلاً نرى، تم حل المشكلة دون أن يلحق الخزي بأي من الأطراف المشاركة، والجيوش الأربعية التي لم يعد لديها مسوغ للبقاء مستعدة

للحرب على الحدود، صار بإمكانها الانسحاب إلى السلام الحميد، لأن ما تقترح المafيا القيام به هو مجرد الدخول والخروج، ولنذكر مرة أخرى أن المرضى يفقدون الحياة في اللحظة نفسها التي يُنقلون فيها إلى الجانب الآخر، ومنذ تلك اللحظة لا يعودون بحاجة إلى البقاء هناك دقيقة واحدة، إنه الوقت اللازم للموت وحسب، وإذا كان هذا هو أقصر الأوقات على الدوام، مجرد زفراً وينتهي الأمر، فإنه يمكن لأحدنا أن يتصور، في هذه الحالة، ما هو انطفاء شمعة بصورة مفاجئة دون أن ينفح عليها أحد. لا يمكن لأشد أشكال الموت الرحيم أن تكون بمثيل هذه السهولة والعذوبة. والأكثر إثارة للاهتمام في هذا الوضع الجديد الناشئ هو أن العدالة في البلد الذي بلا موت وجدت نفسها مجردة من المرتكزات التي تتيح لها العمل قانونياً ضد الدافنين، على افتراض أنها تريد عمل ذلك فعلاً، وليس خاضعة لشروط اتفاق الجنتمان الذي كان على الحكومة أن توقعه مع المafيا. لا يمكن لها اتهامهم بالقتل، لأنه ليس قتلاً في الواقع إذا أردنا توصيفه تقنياً، وأن الفعل محط اللوم - وليسن فيه بعبارة أفضل من يجد لديه القدرة على ذلك - يُقْتَرَفُ في بلدان أجنبية، كما أنه لا يمكن لومهم لأنهم دفناً موتى، لأن هذا هو بالضبط قدر الموتى، ولا بد من تقديم الشكر لمن قرر، تحت آية تسمية، تولي مسؤولية هذا العمل الشاق، سواء من الناحية البدنية أو من الناحية المعنوية. وأقصى ما يمكن التعلل به هو أنه لم يتول أي طبيب إثبات الوفاة، وأن الدفن لم يكمل الشكليات المقررة للدفن، وأن القبر غير محدد جيداً - كما لو أن ذلك أمر غير مسبوق - بحيث يكون من شبه المؤكد أن معالم المكان ستضيع مع سقوط أولى الأمطار القوية، وستتبثق النباتات الطيرية والسعيدة بالدبال الخلاق. ومعأخذ المصاعب في الاعتبار، وشك الوقوع في الأساليب الموجلة التي يغوص فيها، دون ألم ولا رحمة، محامو المafيا المحنكون

في الدسائس، قرر القانون الانتظار بصبر لرؤية أين ستتوقف هذه التقليعات. وقد كان ذلك الموقف دون شك هوأشد المواقف حذراً. فالبلاد في حالة اضطراب لم تعرفها قط، والحكومة مرتبكة، والسلطة ذاتبة، والأسمهم في حالة تقلب متتابع، وفقدان الاحترام المتمدن ينتشر في كل قطاعات المجتمع، وربما لا يعرف الرب نفسه إلى أين سيوصلنا. تنتشر الإشاعة بأن المافيا تقواوض على اتفاق جنلمان آخر مع الصناعة الجنائزية من أجل إقرار عقلنة للجهود وتوزيع للمهام، مما يعني، باللغة البيتية، أن تتولى الأولى التموين بالموتي، وتساهم الوكالات الجنائزية في وسائل وتقنيات دفنهم. ويقال أيضاً إن اقتراح المافيا قوبل بأذرع مفتوحة من الوكالات التي سئمت من تبديد معارفها العريقة، وخبرتها، وبراعتها، وجوقات نواحها، في تنظيم ما تم لكلاب وقطط وكناريات، وفي بعض الأحيان ببغوات، أو سلحافة معمرة، أو سنجب مدجن، أو حرذون رفقه اعتاد صاحبه أن يحمله على كتفه. وكانوا يقولون، لم ننزل قط إلى مثل هذا الدرك.وها هو المستقبل يظهر لهم الآن قوياً ومشرقاً، والأمال تتفتح أزهار حديقة، حتى صار يامكانهم القول، مجازفين بالتقاضن الجلي، إن حياة جديدة لصناعة الدفن بدأت تطل أخيراً. وهذا كله بفضل مساعي المافيا الحميدة وخزائن أموالها التي لا تضب. فهذه المافيا هي التي دعمت وكالات الدفن في العاصمة ومدن البلاد الأخرى لتقيم لها فروعاً، مقابل تعويضات بالطبع، في أقرب القرى إلى الحدود، وهي التي اتخذت الاحتياطات اللازمة كي يكون هناك على الدوام طبيب ينتظر المتوفى عند إعادة إدخاله إلى الأرضي ويحتاج لمن يقول إنه ميت، وهي من توصلت إلى اتفاقيات مع الإدارات البلدية كي تكون لعمليات الدفن التي تتولاها أسبقية مطلقة على ما عداها، أيًّا كانت ساعة النهار أو الليل التي يناسبهم إجراء الدفن فيها. كل ذلك كان يكلف

أموالاً كثيرة بالطبع، ولكن تلك التجارة ظلت جديرة بالمعاناة، بعد أن صارت الإضافات الآن والخدمات الممتازة تشكل الجزء الأعظم من الفاتورة. وفجأة، دون سابق إنذار، أغلق الصنبور الذي كان يتدفق منه، دون توقف، ينبعو المرضى المنتهين السخي. بدا كما لو العائلات، في نوبة وعي مفاجئة، قد تناقلت الكلمة في ما بينها، بأنه انتهى أمر إرسال أحبابهم إلى الموت بعيداً، وإذا كان، بالمعنى المجازي، قد أكلنا لحومهم، فعلينا أن نأكل عظامهم كذلك الآن، ولسنا هنا للطبيات وحدها، عندما كان يتمتع هو - أو كانت تتمتع هي - بـكامل القوة والصحة، بل يجب أن تكون حاضرين كذلك في ساعات الشدة، وفي ساعات الحرج الشديد، عندما يصير هو، أو هي، مجرد خرقة نتهي لا جدوى من غسلها. انتقلت وكالات الدفن من الوفرة إلى اليأس، ومرة أخرى إلى الإفلاس، مرة أخرى إلى مذلة دفن كناريات وقطط، وكلاب وحيوانات أخرى، السلحافة، الببغاء، أما الحرذون فلا، لأنه لم يكن هناك حرذون آخر يسمح بأن يُحمل على كتف صاحبه. وبهدوء، دون فقدان أعصابها، ذهبت المافيا لترى ما الذي يحدث. المسألة بسيطة. فالعائلات قالت، وبكلمات موارية على الدوام، في محاولة لأن يفهموا ما تعنيه بأن زمن السرية كان شيئاً آخر، حين كان الأحباء يُنقلون خفية، في صمت الليل، دون أن يكون للجيران أي حاجة لأن يعرفوا إن كانوا لا يزالون في فراش آلامهم، أم أنهم تبخرموا. كان من السهل حينذاك القول بحزن، يا للمسكين، إنه في الداخل، حين تسأل الجارة على بسطة السلم، كيف هي حال الجد. أما الآن فكل شيء مختلف، هناك شهادة وفاة، وهناك لوحة قبر تحمل الأسماء والألقاب في المقبرة، وخلال ساعات قليلة سيعرف الجيران الحاسدون والنمامون أن الجد قد مات بالطريقة الوحيدة التي يمكن الموت بها، وهذا يعني، بكل بساطة، أن الأسرة القاسية

والجاحدة نفسها قد أرسلته إلى الحدود. ويعترفون، هذا يُخجلنا كثيراً.  
استمعت المافيا واستمعت، وقالت إنها ستفكر في الأمر. ولم تتأخر  
أربعاً وعشرين ساعة. فالموتى صاروا يرغبون في الموت، مثلما فعل ذلك  
العجوز في الصفحة الخمسين، وصاروا يُسجلون وبالتالي كمنتحرين  
في شهادة الوفاة. وعاد الصنبور إلى الانفتاح من جديد.

لم يكن كل شيء على هذا القدر من القذارة في ذلك البلد الذي بلا موت مثلما رُوي حتى الآن، فالمafia لم تتمكن من نَشب أظفارها المعقوفة في كل قطاعات مجتمع منقسم بين الأمل في حياة دائمة والخوف من عدم الموت، ولم تستطع إفساد الأرواح، وإخضاع الأجساد، وتلطيخ القليل المتبقى من مبادئ الزمن الغابر الحميدة، عندما كان أي مغلف يحتوي شيئاً تتبعه منه رائحة الرشوة يعاد فوراً إلى مرسله حاملاً رداً حازماً وواضحاً من نوع، اتبع بهذا المال دمية لأبنائك، أو لابد أنك أخطأت في العنوان. كانت الكرامة آنذاك طريقة للسمو والرفة في متناول جميع الفئات. وبالرغم من كل شيء، وبالرغم من المنتحرين المزيفين وصفقات الحدود القذرة، فقد ظلت الروح ترف فوق الماء، ليس فوق مياه البحر المحيط، فهذا يلامس أراضي أخرى بعيدة، وإنما فوق مياه البحيرات والأنهار، فوق الضفاف والجداول، فوق المستنقعات التي تخلفها الأمطار عند مرورها، وفي أعماق الآبار المتلائمة، وهي الأماكن التي يُلحظ فيها مدى علو السماء على أفضل وجه، وكانت ترف كذلك، مهما بدا ذلك غريباً، فوق سطح أحواض الأسماك الراكدة. وعندما كانت الروح تنظر إلى السمكة الصغيرة الحمراء الساهية وهي تفتح فمها لأخذ الماء، وتسأل وقد صارت أقل سهواً، منذ كم من الوقت لم يُجدد الماء، كانت تعرف جيداً ما أرادت السمكة قوله وهي تصعد لتشق الطبقة الرقيقة التي يختلط فيها الماء بالهواء، في هذه اللحظة الكاشفة بالضبط

ظهرت لها، صافية وعارية، المسألة التي ستكون الأصل في أشد مناظرة حماسية ومتأججة عرفها تاريخ هذه البلاد التي لا موت فيها. وهنا ما سأله الروح الحائمة فوق ماء الحوض للفيلسوف المتدرب، هل فكرتَ من قبل إن كان الموت هو نفسه لكل الكائنات الحية، سواء أكانت حيوانية، بمن فيها الكائن البشري، أم نباتية، بما في ذلك العشبة التي تداس وشجرة السيكويديندرون العملاقة sequoiadendron giganteum بأمتار ارتفاعها المئة، أيكون الموت نفسه هو الذي يقتل إنساناً يعرف أنه سيموت، وحصاناً لن يعرف ذلك أبداً. عادت تسأله، في أي لحظة تموت دودة القرز بعد أن تحبس نفسها في شرنقتها وتوصد الباب على نفسها، وكيف يمكن أن تولد حياة كائن من موت آخر، حياة الفراشة من موت الدودة، ويصير الشيء نفسه مختلفاً، أم أن دودة القرز لم تمت لأنها حية في الفراشة. فرد الفيلسوف المتدرب، دودة القرز لم تمت، وإنما الفراشة هي التي ستموت بعد أن تضع بيوضها، أعرف هذا قبل أن تولد أنت، قالت الروح التي ترف فوق ماء الحوض، فدودة الحرير لا تموت، لأنه لا تظل داخل الشرنقة أية جثة عند خروج الفراشة منها، وأنت نفسك قلت إن إداهاماً تولد من موت الأخرى، هذا يسمى تحولاً، والجميع يعرفون ما الذي يعنيه ذلك، قال الفيلسوف المتدرب متأنلاً، إنها كلمة حسنة الوقع، مليئة بالوعود واليقين، تقول تحولاً وتواصل قدماً، يبدو أنك لا تعرف أن الكلمات هي لافتات تلتصق بالأشياء، وليس الأشياء نفسها، ولن تعرف أبداً ما هي الأشياء، ولا حتى أية أسماء هي أسماؤها في الواقع، لأن الأسماء التي تطلقها عليها ليست سوى هذا بالذات، الاسم الذي أطلقته عليها. من هنا نحن الاثنين هو الفيلسوف، لا أنا ولا أنت، فأنت لا تتجاوز كونك فيلسوفاً متدرباً، وأنا لستُ سوى الروح التي ترف فوق ماء الحوض، فلنتحدث عن الموت، ليس عن الموت، بل عن الميتات، وقد

سألتُ عن سبب عدم موت الكائنات البشرية، بينما تموت الحيوانات الأخرى، ولماذا لا يكون سبب عدم موت أحدهم هو السبب في عدم موت الآخر، فعندما تنتهي حياة هذه السمكة الصغيرة الحمراء، وعلىَّ أن أنبهك إلى أنها لن تتأخر طويلاً إذا لم تستبدل لها الماء، هل سيكون بمقدورك أن تعرف في موتها على ذلك الموت الآخر الذي يبدو أنك الآن بمنجي منه، جاهلاً السبب، من قبل، في الزمن الذي كان الناس يموتون فيه، وفي المرات القليلة التي وجدت نفسي فيها أمام أشخاص ماتوا، لم أتخيل قط أن موتهم هو نفسه الذي سأموته ذات يوم، لأن لكل واحد منكم موته الخاص، تحملونه في مكان خفي منذ ولادتكم، هو ينتمي إليك، وأنت تنتمي إليه، وماذا عن الحيوانات، وعن النباتات، أعتقد أن الأمر نفسه يحدث لها، لكل منها ميتة، وهو كذلك، الميتات كثيرة إذاً، بقدر كثرة الكائنات الحية الموجودة، الموجودة والتي ستُوجَد، هذا صحيح بطريقة ما، إنك تقاضين نفسك، هتف الفيلسوف المتدرب، فميتات كل واحد هي ميتات، إذاً صَح القول، حياة محدودة، تابعة، تموت مع ذاك الذي تُميته، ولكن هناك فوق كل الميتات ميتة أخرى كبرى، هي التي تغطي مجموع الكائنات البشرية منذ فجر الجنس البشري، هناك وبالتالي تراتبية، أفترضُ ذلك، وللحيوانات أيضاً، ابتداءً من أكثر وحدات الخلية ضآلة حتى الحوت الأزرق، أجل، هي كذلك أيضاً، وبالنسبة للنباتات، ابتداءً من الفطريات وحيدة الخلية حتى شجرة السيكويَا العملاقة، وهذه ذكرناها من قبل باللاتينية بسبب ضخامة حجمها، يحدث لها جميعها الشيء نفسه، حسب ما أظن أني أعرفه، هذا يعني أن لكلِّ موته الخاص، سواء أكان شخصاً أم كائناً ثابتاً لا ينتقل من مكانه، أجل، وبعد ذلك ميتان عامتان، واحدة لكل مملكة من مملكتي الطبيعية، بالضبط، فسأل الفيلسوف المتدرب،

وعند ذلك الحد ينتهي توزع المراتب، إلى حيث تصل مخيتي، مازلتُ أرى أن هناك ميّة أخرى، الأخيرة، العليا، أيها تعني، تلك التي سيكون عليها أن تدمر الكون، وهذه هي التي تستحق بالفعل تسمية موٰت، مع أنه لن يكون هناك أحد يتحدث عنها عند حدوثها، وما سوى ذلك مما تحدثنا عنه لا يتعدى أن يكون صغارٍ تافهة، بلا معنى، والموت بالتالي ليس واحداً، أنه الفيلسوف المتدرب دون أن يكون بحاجة إلى قول ذلك، هذا هو ما تعبتُ من شرحه لك، وهذا يعني أن موتاً واحداً، الموت الذي يخصنا، قد أوقف نشاطه، وأن الميتات الأخرى، الخاصة بالحيوانات والنباتات، مازالت تعمل، إنها مستقلة بعضها عن بعض، وكل موٰت يعمل في قطاعه، هل افتعلتَ، أجل، امض إذاً خارجاً وأخبر الناس به، قالت الروح التي ترتفع فوق ماء الحوض. وهكذا بدأت المناظرة.

كانت الحجة الأولى ضد النظرية الجريئة في أن الروح التي ترتفع فوق ماء حوض الأسماك هي أن الناطق باسمها ليس فيليسوفاً أصيلاً يحمل لقب فيليسوف، وإنما هو مجرد متدرب لم يصل قط إلى ما هو أكثر من بعض المعرف البسيطة الأولية وغير المكتملة من مرجع مختصر، وهي شديدة البدائية بقدر بدائية أحاديث الخلايا تقريباً، وكذلك لو أن هذا غير قليل، فهي معارف جمعت بتسريع، من مزق منفصلة، بلا إبرة ولا خيط يجمع بعضها إلى بعض، حتى لو كانت متنافرة الألوان والأشكال، وباختصار، هي فلسفة يمكن تسميتها فلسفـة المدرسة التهريجـية أو الـانتقـائية. ولكن المسـألـة الأهم ليست هنا صحيح أن جوهر الأطروحة كان من عمل الروح التي ترتفع فوق ماء الحوض، وإن تكون العودة إلى قراءة الحوار الذي دار في الصفحـات السابقة كافية لمعرفـة أن مـسـاـهـمـةـ الفـيـلـوـفـ المـتـدـرـبـ كانـ لهاـ كـذـلـكـ تـأـثـيرـهاـ فيـ توـلـيدـ الفـكـرـةـ المـثـيـرـةـ لـلـاهـتـمـامـ، علىـ الأـقـلـ بـصـفـتـهـ مـسـتـمـعاـ

عاملًا ديالكتيكياً لا غنى عنه منذ سocrates كما هو معروف، هناك شيء على الأقل لا يمكن نكرانه، هو أن الكائنات البشرية لا تموت، ولكن الحيوانات الأخرى تموت. أما بالنسبة للنباتات، فإن أي شخص، حتى من لا يعرف شيئاً عن علم النبات، سيعرف دون صعوبة بأنها تولد، تحضر، وبعد ذلك تذبل، ثم تجف متيسة، وإذا كانت هذه المرحلة الأخيرة، بتعفن أو دونه، لا يمكن تسميتها موتاً، فيأتي إذاً من يقدم تفسيراً أفضل. وقد يقول بعض المعارضين إن كون الأشخاص الذين هنا لا يموتون، بينما جميع الكائنات الحية الأخرى تموت، يجب النظر إليه كدليل على أن ما هو عادي لم ينسحب تماماً من العالم بعد، وما هو عادي، والمعدرة لهذا القول، هو الموت ببساطة عندما تحين ساعة موتنا. الموت وعدم التوقف لمناقشة ما إذا كان هو موتنا المخصص لنا منذ الولادة، أو إذا ما كان يمر قريباً ببساطة وقرر التركيز علينا. في البلدان الأخرى يواصل الناس الموت ولا يبدو أن سكانها أكثر تعاسة بسبب ذلك. في البدء، مثلما هو طبيعي، كان هناك حسد، وكان تامر، وجرت محاولة أو أكثر للتجسس العلمي من أجل اكتشاف كيف توصلنا إلى عدم الموت، ولكن نظراً للمشاكل التي انهالت علينا منذ ذلك الحين، فإننا نظن أن الشعور العام لدى سكان تلك البلاد يمكن أن يُترجم كما يبدو بهذه الكلمات، يا لما نجونا منه.

ونزلت الكنيسة، كما لا يمكن إلا أن يكون، إلى ميدان الجدال ممتطية حصان المعركة المعهود، أي القول إن مقاصد الرب ونواياه، مثلما كانت على الدوام، عميقة لا يمكن سبر غورها، وهو ما يعني، بكلمات عادية وملطخة بشيء من الكفران اللغطي، أنه من غير المسموح لنا النظر من فرجة بوابة السماء لرؤيه ما يجري في الداخل. وتقول الكنيسة أيضاً إن توقفاً مؤقتاً يدوم طويلاً إلى هذا

الحد أو ذاك لأسباب ومفاسيل طبيعية ليس بالأمر الجديد، ويكتفي تذكر المعجزات غير المتناهية التي سمح الرب بتحقّقها خلال العشرين قرناً الماضية، والاختلاف الوحيد في ما يحدث الآن يكمن في اتساع المعجزة، لأن ما كان يؤثر فيما مضى على فرد واحد، بفضل إيمانه الشخصي، استُبدل باهتمام شامل، غير شخصاني، فبلد كامل يمتلك، إذا صح التعبير، أكسير الخلود، وليس المؤمنون وحدهم الذين ينتظرون كما هو منطقي أن ينعموا بتميز خاص، وإنما يشمل كذلك الملحدين، واللادريين، والمهربين، والخاطئين، وعديمي الإيمان من كل الأنواع، وأتباع الديانات الأخرى، الطيبين والأشرار والأكثر شرًا، الورعين والمافياويين، الجنادين والضحايا، الشرطيين واللصوص، القتلة والمترعرعين بالدم، المجانين وسلimenti العقل، جميعهم، الجميع بلا استثناء، كانوا في الوقت نفسه الشهدو المستفيدون من أعظم أعمدة شهدتها تاريخ المعجزات: الحياة الأبدية للجسد مجتمعة إلى الأبد مع حياة أبدية للروح. المراتب الدينية الكاثوليكية، من أسقف بما فوق، لم تستلم النكات الصوفية لبعض أطرها المتوسطة المتعطشة إلى الأعاجيب، وقد أبلغت ذلك للمؤمنين عبر رسالة حازمة جداً، فضلاً عن الإشارة إلى مقاصد الرب ونواياه التي لا يمكن الخوض فيها، تلح على الفكرة التي عبر عنها الكردينال بصورة مرتجلة في بداية الأزمة، في محادثته الهاتفية مع رئيس الوزراء، عندما افترض أنه البابا وتسلّم إلى الرب أن يغفر له حماقة الزهو تلك، وكانت الفكرة تقترح التشيط الفوري لأطروحة جديدة، أطروحة الموت المؤجل، استناداً إلى الثقة بحكمة الزمن المتداة مراراً وتكراراً، والتي تقول لنا إنه هناك غد على الدوام لحل المشاكل التي تبدواليوم بلا حل. وفي رسالة موجهة إلى مدير جريدة المفضلة، أعلن قارئ أنه مستعد لتقبل فكرة أن الموت قد قرر تأجيل نفسه، ولكنه

يلتمس، بكل احترام، أن يخبروه كيف عرفت الكنيسة بذلك، وإذا كانت مطلعة إلى هذا الحد حقاً، فإن عليها أن تعرف أيضاً كم سيستمر التأجيل. وفي ملاحظة من هيئة التحرير، ذكرت الجريدة القارئ بأن ما طرح ببساطة هو اقتراح عمل، ولم ينقل إلى حيز التطبيق حتى الآن، وهو ما يعني، هكذا تتهي الملاحظة، أن الكنيسة تعرف عن المسألة قدر ما نعرف جميعنا، أي أنها لا تعرف شيئاً. وفي أشاء ذلك كتب أحدهم مقالة يطالب فيها بإعادة النقاش إلى المسألة التي تسببت فيه، ألا وهي، إذا ما كان الموت واحداً أم متعددًا، هل هو موت مفرد، أم ميتات بالجمع، وأنهُ فرصة وجود الريشة في يدي لأبلغ بأن الكنيسة، بافتراضاتها الغامضة هذه، إنما تسعى إلى كسب الوقت دون أن تلزم نفسها، ولهذا سعت، مثلما هي عادتها، إلى تجسير قائمة الضفدع، وضرب ضربة على المسمار وضربة على الحافر. تسبب أول هذين التعبيرين الشعبيين بارتباك بين الصحفيين الذين لم يقرؤوا أو يسمعوا طيلة حياتهم مثل هذه العبارات. ومع ذلك، وحيال الأحجية، دفعهم حماسة المنافسة الشخصية إلى أن يسحبوا عن رفوف الخزائن المعاجم التي كانوا يستعينون بها في بعض المرات عند كتابة مقالاتهم وأخبارهم، وانطلقوا في تقسي ما يعنيه ذلك القول الضفدع في هذا المقام. لم يجدوا شيئاً، أو بكلمة أدق، وجدوا الضفدع، ووجدوا القائمة، ووجدوا الفعل جَبَر، ولكنهم لم يتمكنوا من ملامسة المعنى العميق الذي لا بد أن يمتلكه اجتماع هذه الكلمات الثلاث معاً. إلى أن خطر لأحدthem استدعاء بباب عجوز جاء من القرية منذ سنوات طويلة واعتاد الجميع على الضحك منه، لأنه بعد سنوات من العيش في المدينة، مازال يتكلم كما لو أنه يجلس أمام الموقد ويروي قصصاً للأحفاد. سأله إن كان يعرف الجملة فأجاب أجل يا سيدى، إنه يعرفها، سأله إن كان يعرف ما تعنيه، وأجاب أجل يا سيدى، إنه

يعرف. فقال رئيس التحرير، اشرحها إذاً، تجibir أيها السادة يعني تثبيت عظم مكسور بقطعتي خشب، هذا أمر نعرفه، وما نريد أن تخبرنا به هو ما علاقة هذا بالضفدع، له علاقة كبيرة، فلا أحد يستطيع وضع قطعتي خشب لقائمة ضفدع، لماذا، لأنها لا تُبقي قائمتها ساكنة أبداً، وما الذي يعنيه هذا، يعني أنه لا جدوى من محاولة ذلك، لأن الضفدع لن تسمح به، ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو المعنى المقصود في جملة القارئ، إنها تُستخدم أيضاً عندما تتأخر لوقت طويل في إنجاز عمل، وإذا ما تعمدنا إطالة الوقت، فهذا يعني أنها تُعرقل، وأننا تُجبر قائمة الضفدع، أي أن الكنيسة تعرقل، وأنها تُجبر قائمة الضفدع، أجل يا سيدي، هذا يعني أن القارئ الذي كتب كان محقاً تماماً، أظن ذلك، ولكنني لا أفعل شيئاً سوى مراقبة الدخول من البوابة، لقد قدمت لنا مساعدة كبيرة، ألا تريدون أن أشرح لكم الجملة الأخرى، أي جملة، جملة المسamar والحاfer، لا، فهذه نعرفها، ونحن نمارسها كل يوم.

المناقشة حول الموت والميتات التي بدأت جدية بين الروح الحائمة فوق ماء الحوض والفيلسوف المتدرب، كان يمكن لها أن تنتهي إلى ملهاة أو مهزلة لو لم يظهر مقال الخبير الاقتصادي. فمع أن الحسابات الحالية، وفق اعترافه هو نفسه، ليست اختصاصه المهني، إلا أنه يعتبر نفسه مطلعاً بما يكفي على الموضوع ليتساءل أمام الملأ من أين ستأتي البلاد بالأموال، بعد حوالي عشرين سنة، بنقطة أكثر أو فاصلة أقل، لتدفع الرواتب التقاعدية لملايين الأشخاص الذين هم في وضع الإحالة على المعاش بسبب عجز دائم سيظلون فيه لقرون القرون، والأموال التي ستُدفع لملايين آخرين سينضمون لا محالة إلى أولئك، وسواء أكانت المتواillية حسابية أو هندسية، فإن الكارثة مؤكدة أمامنا في كل الأحوال، وقد تكون الفوضى، النكبة، إفلاس الدولة، وقول «فلينج

كل من يستطيع النجاة»، ولن ينجو أحد. حيال هذه اللوحة المرعبة لم يجد الميتافيزيقيون حلاً آخر غير حفظ الفيولا في علبتها، فالكنيسة لم تجد مخرجاً سوى العودة إلى عدّها المضجر لحبات المسبيحة ومواصلة انتظار انقضاء الأزمنة، هذا الذي يمكن له، حسب رؤاها الأخرى، أن يحلّ كل شيء دفعة واحدة. وبالفعل، لو عدنا إلى مسوغات ذلك الاقتصادي المثير للقلق، فإن العملية الحسابية ستكون بسيطة، وللننظر: إذا كان لدينا العدد كذا من السكان في الخدمة الفعلية ويسهمون في التأمين الاجتماعي، وإذا كان لدينا كذا من السكان غير الفاعلين المحالين إلى المعاش، سواء بسبب الشيخوخة أم بسبب العجز، ويحصلون وبالتالي من أولئك على رواتبهم التقاعدية، وبكون الفئة الفعالة في تناقص مستمر بالمقارنة مع الفئة غير الفاعلة، وهذه الأخيرة في نمو مطرد مطلق، فلا يفهم كيف لم يتبه أحد على الفور إلى أن اختفاء الموت، هذه الذروة، القمة، السعادة القصوى، لم تكن في المحصلة أمراً طيباً. فكان لا بد للفلسفه وغيرهم من التجريديين من المضي تائبين في غابات هذيانهم حول الـ «تقريباً» والـ «أظن»، وهي الطريقة العامية لقول الـ «كينونة» والـ «عدم»، فيما يقدم الحسن العام نثراً، مع الورقة والقلم الشهر، لإثبات أب+ت أن هناك مسائل أكثر إلحاحاً للفكر فيها. وكما هو متوقع، مع معرفة الجوانب المظلمة من الطبيعة البشرية، وابتداء من اليوم الذي نُشرت فيه مقالة رجل الاقتصاد، راح موقف الأهالي الأصحاء في علاقتهم بالمرضى النهائين يتبدل إلى الأسوأ. فحتى ذلك اليوم، وعلى الرغم من أن الجميع كانوا متفقين على كثرة التقلبات والإزعاجات من كل نوع التي يسببونها لهم، إلا أنهم كانوا يفكرون في أن احترام الشيوخ والمرضى عموماً يمثل أحد الواجبات الأساسية لأي مجتمع متحضر، وبالتالي، وإن كانوا يتظاهرون بالشجاعة جاعلين من أحشائهم قلياً، ما كانوا

ينكرون عليهم الرعاية الضرورية، بل إنهم يُحلّون سلوكهم، في مناسبات معينة، بملعقة صغيرة من الشفقة والحب قبل أن إطفاء النور. صحيح أن هناك أيضاً، مثلما نعرف جيداً، تلك العائلات القاسية التي تُسلم قيادها إلى انعدام الإنسانية العossal، والتي وصلت إلى حد التعاقد مع خدمات المافيا للتخلص من البقايا البشرية التعيسة التي تحضر بلا نهاية بين ملايين مضمختين بالعرق وملطختين بالإفرازات الطبيعية، ولكن هذه العائلات تستحق توبيخنا، مثل ذلك التوبيخ الذي سنعبر عنه في الخرافة التقليدية حول القصعة الخشبية التي رُويت ألف مرة، وإن كانوا في القصة قد تخلصوا، لحسن الحظ، من الاشمئاز في اللحظة الأخيرة، والفضل في ذلك، كما سيرى، يعود إلى طيبة قلب طفل في الثامنة من عمره. إنها قصة تُروى بكلمات قليلة، وسنُودعها هنا من أجل تنوير الأجيال الجديدة التي تجهلها، على أمل لا يسخروا منها باعتبارها ساذجة وعاطفية. انتبهوا إذاً إلى العبرة الأخلاقية. كان يا ما كان، في بلد الخرافات القديم، كانت تعيش أسرة مؤلفة من أب وأم، ومن جد هو أبو الأب، وصبي هو الطفل الذي ذكرنا أنه في الثامنة من عمره. ولأن الجد متقدم جداً في السن، كانت يداه ترتجفان ويسقط الطعام من فمه وهم على المائدة، مما يسبب غضباً شديداً لابنه وكنته، فيقولان له طوال الوقت إنه عليه أن ينتبه إلى ما يفعله، ولكن العجوز المسكين، مهما رغب في الانتباه، لم يكن يمكن من كبح الرجفة، ويسوء الوضع أكثر حين يؤنبانه، وتكون النتيجة أن يلوث على الدوام، بتساقط الطعام منه، شرشف المائدة أو الأرض، ولن نتكلم عن الفوطة التي يربطونها حول رقبته ويتوjob استبدالها ثلاثة مرات في اليوم، عند الفطور، والغداء، والعشاء. كانت الأمور على هذه الحال دون أي أمل في التحسن عندما قرر الابن وضع حدًّا لذلك الوضع المزعج. ظهر في البيت في أحد الأيام ومعه

قصعة خشبية وقال لأبيه، ابتداء من الآن ستأكل من هذه وأنت جالس في الفناء لأن تنظيفه أسهل، وكيلا تظل كنتك قلقة من كثرة الشراسف والفوتوط المتسلخة. وكان ذلك هو ما جرى. فعند الفطور، والغداء، والعشاء، يظل العجوز جالساً وحده في الفناء، يرفع الطعام إلى فمه قدر ما هو ممكّن، فيضيّع النصف في الطريق، وقسم من النصف الآخر يسقط من فمه إلى أسفل، لم يكن ما يسلي شيئاً بالقدر الذي يسميه العامة قناة الحسأة. وكان يبدو على الحفيد أنه غير مهمّت بالمعاملة القبيحة التي يُعامل بها الجد، فكان ينظر إليه، ثم ينظر إلى أبيه وأمه، ويواصل تناول الطعام كما لو أنه ليس هناك ما يعنيه في المسألة. وذات مساء، عند عودة الأب من العمل، وجد ابنه يعمل بسكين على تشذيب قطعة من الخشب فظنّ، كما هو عادي وشائع في تلك الأزمنة البعيدة، أن الطفل يصنع لنفسه دمية بيديه. وفي اليوم التالي، انتبه إلى أن ما يصنعه الابن ليس عربة، لأنّه لا يظهر على الأقل المكان الذي يمكن أن تُركّب فيه العجلات، عندئذ سأله، ما الذي تفعله. فتظاهر الطفل بأنه لم يسمع وواصل نحت قطعة الخشب برأس السكين، وقد حدث هذا في زمن كان الآباء فيه أقل ذرعاً ولا يهرعون لينتزعوا من أيدي أبنائهم مثل تلك الأداة المفيدة جداً في صنع الدمى. ألم تسمعني، ما الذي تفعله بهذه الخشبة، أعاد الأب السؤال، ودون أن يرفع الطفل نظره عن العمل أجاب، إبني أصنع قصعة خشبية لك عندما تصير عجوزاً وترجف يداك، وحين يكون عليك أن تتناول طعامك في الفناء مثل الجد. كانت كلمات مقدسة. سقطت الغشاوة عن عيني الأب، رأى الحقيقة والنور، وفي اللحظة نفسها ذهب لطلب الصحف من أبيه وعندما حان موعد العشاء ساعدته بيديه على الجلوس على الكرسي، وبيديه قرّب الملعقة من فمه، وبيديه مسح برفق ما سال على ذقنه، لأنّه مازال يستطيع ذلك بينما أبوه الحبيب لم يعد قادرًا على

فعله. أما ما حدث في ما بعد فلا وجود في التاريخ لأي إشارة إليه، ولكننا نعلم علم اليقين أنه إذا كان صحيحاً أن ما بدأ الصبي بصنعه توقف في منتصفه، فإنه من الصحيح أيضاً أن قطعة الخشب مازالت موجودة. لم يشا أحد أن يحرقها أو يرمي بها، حتى لا تضيع العبرة في الفراغ، ولأنه قد يحدث ويكون هناك من يقررمواصلة العمل فيها وإنهاه، وهو احتمال غير مستحيل الحدوث بالكامل إذا ما أخذنا في الاعتبار مدى ضخامة القدرة على البقاء التي تتمتع بها الجوانب المظلمة المذكورة في الطبيعة البشرية. ومثلاً قال أحدهم، كل ما يمكن أن يحدث، سيحدث، والمسألة كلها مسألة وقت وحسب، وإذا لم نتوصل إلى رؤيته بينما نحن نمضي هنا، فإنما السبب هو أننا لم نعش بما يكفي. وعلى أي حال، وكيلاً لهم بأننا نرسم دوماً بألوان الجانب الأيسر من لوحة المزاج، هناك من يتقبل إمكانية اقتباس الحكاية اللطيفة للتلفزيون، فبعد أن أخرجتها إحدى الصحف، وفضلت عنها شباك العنكبوت، وغبار خزان الذكرة الجماعية، يمكن لها أن تسهم في أن يعود إلى ضمائر الأسر المشروخة تقديس ورعاية القيم الروحية غير المادية التي كان المجتمع يتغذى عليها في الماضي، عندما لم تكون المادية السائدة هذه الأيام قد سيطرت بعد على الإرادات التي كنا نظن أنها قوية وكانت في النهاية صورة الضعف الأخلاقي المبرح نفسها والتي لا شفاء لها. فلنحتفظ مع ذلك بالأمل. ففي اللحظة التي سيظهر فيها الطفل على الشاشة، يمكننا أن نكون واثقين من أن نصف سكان البلاد سيهرعون بحثاً عن منديل لتجفيف الدموع، وأن النصف الآخر، والذي ربما يكون روامي المزاج، سيترك الدموع تسيل على وجهه بصمت، كي يلاحظ بصورة أفضل كيف أن تأنيب الضمير على السلوك السيئ أو المتساهل ليس مجرد كلمة فارغة على الدوام، وعسى أن يكون مازال لدينا متسع لإإنقاد الأجداد.

بصورة غير متوقعة، وبانعدام حس مؤسف في انتهاز الفرص، قرر الجمهوريون استغلال الظرف الدقيق ليُسمعوا صوتهم. لم يكونوا كثيرين، حتى إنه لم يكن لهم ممثلون في البرلمان بالرغم من انتظامهم في حزب سياسي ومشاركتهم المنتظمة في الانتخابات. ولكنهم ينعمون مع ذلك بشيء من التأثير الاجتماعي، لاسيما في الأوساط الفنية والأدبية، حيث يوزعون بين الحين والآخر بيانات تكون جيدة الصياغة عموماً، ولكنها غير مؤذية على الدوام. ومنذ اختفاء الموت لم يُظهروا ما يشير إلى وجودهم، حتى إنهم لم يطالبوا، مثلما هو منتظر من معارضه تدعى المواجهة، بتوضيح ما يشاع عن مشاركة المافيا في تهريب المرضى النهائيين. ولكنهم يستغلون الآن حالة الاحتلال التي تعيشها البلاد المنقسمة بين الزهو بمعرفة أنها الوحيدة على الكوكب والقلق لعدم كونها مثل بقية العالم، ويطرحون على المنضدة مسألة النظام، لا أقل ولا أكثر. فهم الخصوم الواضحون للملكية، والمعادون للاتاج في التعريف، يعتقدون أنهم قد اكتشفوا حجة جديدة تؤيد ضرورة وإلحاح إقامة الجمهورية. يقولون إنه من المخالف للمنطق العام أن يكون في البلاد ملك لا يموت أبداً، وحتى لو قرر غداً التنازل عن العرش بسبب التقدم في السن أو ضعف القدرات الذهنية، فإنه سيظل ملكاً، وسيكون الأول في متوايلية لا نهاية من ملوك منزوعين عن العرش أو متزايلين عنه، سلسلة لا نهاية من ملوك يرقدون في أسرّتهم بانتظار موت لن يصل أبداً، سلسلة ملوك نصف أحيا نصف موتى سينتهي بهم الأمر، ما لم يضعوه في ممرات القصر، إلى أن يملؤوه ولا يتسع لهم في النهاية مجمع الملوك حيث جمع أسلافهم الخالدون الذين لن يعودوا أكثر من نظام مخلعة المفاسد أو بقايا موميائية كريهة الرائحة. متى لا يكون الوقت أكثر ملاءمة لأن يكون لنا رئيس جمهورية لفترة ثابتة قابلة للانتهاء، رئيس لفترة

محدودة، أو لفترتين على الأكثـر، وليتذرـر أمره بعد ذلك كيـفما استطاع، يتولـى أمور حياته بـحياته، يقدم محاضرات، يؤلف كتاباً، يـشارـك في مؤتمـرات وندـوات وجـلسـات حوار، يلقـي خطـابـات على موـائد مستـديـرة، يدور حول العالم في ثـمانـين حـفلـة استـقبالـ، يـعطـي رأـيه حول طـولـ التـانـيرـ عندـما يـعادـ استـخدامـها وـحـولـ انـحسـارـ طـبـقةـ الأـوزـونـ فيـ الجوـ إذاـ ماـ ظـلـ هـنـالـكـ جـوـ. كلـ شـيءـ ماـ عـدـاـ أنـ نـجـدـ فيـ كـلـ يـومـ فيـ الصـحـفـ، وـنـسـمعـ منـ التـلـفـزيـونـ وـالـإـذـاعـةـ التـقـرـيرـ الطـبـيـ نـفـسـهـ عـلـىـ الدـوـامـ، تـقـرـيرـ لاـ يـحـلـ وـلـاـ يـرـبـطـ، حـولـ حـالـةـ القـابـعـينـ فيـ المـصـحةـ الـمـلـكـيـةـ الـتـيـ لاـ بـدـ مـنـ القـوـلـ بـالـنـاسـيـةـ أـنـهـاـ بـعـدـ أـنـ وـسـعـتـ مـرـتـينـ، صـارـتـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ تـشـهـدـ تـوـسـعاـ ثـالـثـاـ. وـتـزـايـدـ المـصـاحـاتـ الـمـلـكـيـةـ مـاـشـلـ ليـشـيرـ إـلـىـ أـنـهـ، مـثـلـماـ يـحـدـثـ فيـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ أوـ مـلـحـقـاتـهاـ، سـيـكـونـ الـرـجـالـ فـيـهـاـ مـنـفـصـلـيـنـ عـنـ النـسـاءـ، أـيـ أـنـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ سـيـكـونـ فـيـ جـانـبـ، وـالـمـلـكـاتـ وـالـأـمـرـاتـ فـيـ جـانـبـ آـخـرـ. وـيـدـعـوـ الـجـمـهـوريـونـ الـشـعـبـ الـآنـ لـيـبـادـرـ إـلـىـ تـوـلـيـ مـسـؤـلـيـاتـهـ، وـيـمـسـكـ مـصـيـرـهـ بـيـدـيـهـ مـنـ أـجـلـ الـبدـءـ بـحـيـاةـ جـديـدةـ وـشـقـ طـرـيقـ مـزـهـرـ نـحـوـ فـجـرـ مـسـتـقـبـلـ جـديـدـ. لـمـ يـقـتـصـرـ تـأـثـيرـ الـبـيـانـ فـيـ هـذـهـ مـرـةـ عـلـىـ دـغـدـغـةـ مـشـاعـرـ الـفـنـانـيـنـ وـالـكـتـابـ، بلـ أـبـدـتـ فـئـاتـ اـجـتـمـاعـيـةـ أـخـرىـ تـقـبـلـهاـ لـلـصـورـةـ السـعـيـدـةـ عـنـ طـرـيقـ الـمـزـهـرـ وـتـبـاشـيرـ فـجـرـ الـمـسـتـقـبـلـ، مـمـاـ تـمـخـضـ عـنـ تـزـاحـمـ خـارـجـ عـنـ الـمـأـلـوفـ بـالـمـلـقـ فيـ اـنـضـمامـ أـعـضـاءـ جـددـ مـسـتـعـدـيـنـ لـلـانـطـلاقـ فيـ الـحـمـلةـ، كـمـاـ فـيـ حـمـلةـ الصـيدـ، وـالـصـيدـ تـسـمـيـةـ يـطـلـقـونـهاـ عـلـىـ السـمـكـ وـهـوـ لـاـ يـزالـ فـعـلـاـ كـذـلـكـ. وـالـمـؤـسـفـ أـنـ الـمـظـاهـرـ الـلـفـظـيـةـ لـلـتـعبـيرـ عـنـ الـحـمـاسـةـ الـتـمـدـنـيـةـ لـتـبـاشـيرـ الـفـجـرـ الـجـديـدـ لـهـذـاـ التـيـارـ الـجـمـهـوريـ الـمـسـتـقـبـليـ وـالـنـبـوـيـ، لـمـ تـكـنـ مـحـترـمـةـ عـلـىـ الدـوـامـ بـالـقـدـرـ الـذـيـ يـطـلـبـهـ حـسـنـ التـرـبـيـةـ وـالـتـعـاـيشـ الـدـيمـقـراـطيـ السـلـيـمـ. وـقـدـ وـصـلـ بـعـضـهـاـ إـلـىـ تـجاـوزـ حـدـودـ أـشـدـ الـأـلـفـاظـ

النامية إساءة، كالقول على سبيل المثال، لدى التحدث عن الأسرة الملكية، إن الجمهوريين غير مستعدين لتحمل نفقات بهائم بوضع الحلق في أنوفها ولا إعالة حمير بسكويت. وقد اجتمع رأي جميع أصحاب الذوق السليم على اعتبار أن هذه الكلمات ليست غير مقبولة وحسب، وإنما لا تغفر كذلك. وأنه كان يكفي أن يقال مثلاً إن خزانة الدولة لا تستطيع مواصلة تحمل التاميم المستمر في نفقات الأسرة المالكة ومتاعها، وسيفهم الجميع ما يعنيه ذلك. إنه الحقيقة وفي كلام غير مسيء.

هجوم الجمهوريين العنيف، وقبلها النبوءات المقلقة التي تضمنتها المقالة حول حتمية أنه لن تكون خزائن الدولة المذكورة قادرة، خلال وقت قصير، على دفع معاشات تقاعد الشيوخوخة والعجز إلى أمد لا تُعرف نهايته، جعلت الملك يخبر رئيس الوزراء بأنه يحتاج إلى إجراء محادثة صريحة معه، على انفراد، وبلا آلات تسجيل أو شهود من أي نوع. حضر الوزير الأول، وأبدى اهتمامه بصحة الشخصيات الملكية، وخاصة الملكة الأم، تلك التي كانت على وشك الموت في نهاية السنة الأخيرة، وبعد ذلك، متلماً حدث لأشخاص آخرين كثirين، ظلت وما زالت تتفسس ثلاث عشرة مرة في الدقيقة، وتلحظ إشارات قليلة من الحياة في جسدها الموسد تحت ظلة الفراش. شكره جلالته على اهتمامه، وقال إن الملكة الأم تعاني عذابها بالوقار الجدير بالدماء التي ما زالت تسري في عروقها، وانتقل بعد ذلك إلى ملاحظات الأجندة، وكانت الملاحظة الأولى حول إعلان الجمهوريين الحرب. لا أفهم ما الذي خطر في رأس هؤلاء الناس، قال الملك، فالبلاد غارقة في أرعب أزمة في تاريخها بينما هم يتكلمون عن تغيير النظام، أنا لا أفقن بشأنهم يا سيدى، ما يفعلونه هو استغلال الوضع لنشر ما يسمونه رؤيتهم للحكم، وهم في العمق ليسوا سوى صيادين بائسين في الماء

العكر، مع نقص مؤسف في الوطنية، يجب أن نضيف هذا أيضاً، وهو كذلك يا سيدى، فلدى الجمهوريين فكرة عن الوطن لا يمكن أن يفهمها أحد غيرهم، إذا كانوا يفهمونها حقاً، الأفكار التي لديهم لا تهمني، وما أريد أن أسمعه منك هو إذا ما كان هناك أي احتمال لتمكنهم من إحداث تغيير النظام بالقوة، ولكنهم لا يمكنون تمثيلاً في البرلمان يا سيدى، إننى أعني إمكانية قيامهم بانقلاب، بثورة، لا وجود لأى احتمال يا سيدى، فالشعب مع مليكه، والقوات المسلحة موالية للسلطة الشرعية، يمكن لي إذاً أن أستريح، يمكنك أن تستريح بالطلاق يا سيدى. وضع الملك إشارة ضرب في مذكرته، إلى جانب كلمة جمهوريين، وقال، انتهينا من هذا، ثم سأله، وما هي قصة معاشات التقاعد التي لا تُدفع، إننا ندفعها يا سيدى، ولكن المستقبل هو الذي يبدو شديداً السواد، لا بد أنني أخطأت في القراءة إذاً، ظننت أنه قد حدث توقف، إذا صح التعبير، في الدفع، لا يا سيدى، فالغد هو الذي يبدو مقلقاً جداً، إلى أي درجة هو مقلق، بكل المقاييس يا سيدى، إذ يمكن للدولة، بكل بساطة، أن تنهار مثل قلعة من ورق، هل نحن البلد الوحيد الذي في هذا الوضع، سأله الملك، لا يا سيدى، فالمشكلة ستطال الجميع على المدى البعيد، ولكن ما يؤخذ في الحسبان هو الفرق بين الموت وعدم الموت، وهذا فرق أساسي، وعدراً للابتهاج، لست أفهمك، في البلدان الأخرى يموتون بصورة اعتيادية، الوفيات مازالت تضبط تدفق الولادات، أما هنا يا سيدى، في بلادنا يا سيدى، فلا يموت أحد، انظر حالة الملكة الأم، تبدو أنها تلفظ النفس الأخير ولكنها موجودة لدينا، أعني لحسن الحظ، ولا أظن أنني أبالغ إذا قلت إن الحبل يطوق عنقنا، ومع ذلك، وصلتني إشاعات بأن هناك أشخاصاً يموتون، هذا صحيح يا سيدى، ولكنها مجرد قطرة ماء في البحر المحيط، فليس جميع الأسر تتجرأ على تلك

الخطوة، أية خطوة، تسليم مرضاهم إلى المنظمة التي تتولى أمر الانتحارات، لست أفهمك، ما جدو انتشارهم إذا كانوا لا يستطيعون الموت، هؤلاء يستطيعون، وكيف يتوصلون إلى ذلك، إنها قصبة معقدة يا سيدى، أخبرنى بها، إننا على انفراد، في الجانب الآخر من الحدود يا سيدى يوجد موت، أنت تعنى إذاً أن تلك المنظمة تحملهم إلى هناك، بالضبط، وهذه منظمة فاضلة، إنها تساعدنا في تأخير بعض التراكم للمرضى النهائين، ولكن مثلما قلت لك، إنها قطرة ماء في البحر المحيط، وما هي هذه المنظمة. تنفس الوزير الأول بعمق وقال، إنها المافيا يا سيدى، المافيا، أجل يا سيدى، المافيا، فالدولة لا تجد بداً في بعض الأحيان من البحث عن ينفذ الأعمال القذرة، أنت لم تقل لي شيئاً، سيدى، لقد أردت أن أبقي جلالتك بعيداً عن الموضوع، وأن أتحمل أنا مسؤوليته، وماذا عن القوات التي كانت على الحدود، لديهم مهمة يقومون بها، أية مهمة، مهمة التظاهر بأنهم يمنعون مرور المترحرين دون أن يفعلوا ذلك، ظلتُ أنهم هناك لمنع عملية غزو، لم يكن هناك وجود مثل هذا الخطر قطّ، ولقد توصلنا على كل حال إلى إقرار اتفاقيات مع حكومات تلك البلدان، وكل شيء تحت السيطرة، باستثناء مشكلة المعاشات التقاعدية، باستثناء مشكلة الموت يا سيدى، إذا لم نعد إلى الموت فلا مستقبل لنا. رسم الملك إشارة ضرب إلى جانب كلمة معاشات وقال، من الضروري أن يحدث شيء، أجل يا صاحب الجلالة، من الضروري أن يحدث شيء.

كان المغلف يقع على منضدة مدير عام التلفزيون عندما دخلت السكرتيرة إلى المكتب. لونه بنسجي، غير مألف، والورق من نوع مطبع، يحاكي نسيج الكتان. وكان يبدو قدّيماً ويعطي الانطباع بأنه قد استُخدم من قبل. لم يكن عليه أي عنوان، سواء أكان عنوان المرسل، وهو ما يحدث أحياناً، أم عنوان المرسل إليه، وهو ما لا يحدث أبداً، وكان في مكتبه بابه مغلٍ بالفتح، وقد فتح في تلك اللحظة بالذات، ولا يمكن لأحد أن يكون قد دخل إليه خلال الليل. وحين قلبته السكرتيرة لترى إذا ما كان هناك شيء مكتوب على قفاه، شعرت بأنها تفكّر، بإحساس مشوش، بعبيبة ما فكرت فيه وما شعرت به من أن المغلف لم يكن موجوداً هناك في اللحظة التي أدخلت فيه المفتاح وأدارت آلية القفل. يا للبلاهة، دمدمت، لم أنتبه إلى وجوده هنا عندما خرجت بالأمس. جالت ببصرها على أنحاء المكتب لترى إذا ما كان كل شيء عادياً وانسحبت إلى مكان عملها. لقد كانت مخولة، باعتبارها سكرتيرة، ومحظى ثقة، بفتح ذلك المغلف أو أي مغلف آخر، وخاصة إذا لم تكن عليه أية إشارة ذات طابع تقيدي، مثلما هي عبارات: شخصي، أو حصري، أو سري، ولكنها لم تفتحه، ولم تفهم لماذا لم تفعل. نهضت مرتين عن كرسيها وفتحت باب المكتب قليلاً. وكان المغلف لا يزال هناك. إنني أتحول إلى مهووسة، أ يكون ذلك بتأثير الحر، فكرت، سيأتي هو وينتهي الغموض. وكانت تشير بذلك إلى رئيسها، إلى المدير العام الذي يتّبعه. وكانت الساعة العاشرة والربع عندما حضر أخيراً. لم يكن شخصاً كثير

الكلام، فهو يصل، ويلقي تحية الصباح ثم يدخل فوراً إلى مكتبه، حيث لدى السكرتيرة أوامر بـلا تدخل إلا بعد خمس دقائق من وصوله، وهو الوقت الضروري، حسب تقديره، لكي يجلس براحة ويشعل سيجار الصباح الأول. وعندما دخلت السكرتيرة، كان المدير لا يزال يرتدي المعطف، ولم يكن قد بدأ التدخين بعد. كان يمسك بكلتا يديه ورقة لها لون المغلف نفسه، وكانت يداه ترتجفان. التفت نحو السكرتيرة التي تقترب، ولكنه بدا كما لو أنه لم يتعرف إليها. مدّ فجأة أحد ذراعيه بيد مفتوحة لجعلها تتوقف وقال لها بصوت بدا كأنه يخرج من حنجرة أخرى، اخرجي فوراً، أغليقي الباب ولا تسمحي بدخول أحد، لا أحد، هل سمعت ما قلته، أيّاً يكن الشخص. أرادت السكرتيرة أن تعرف فقط إذا كانت ثمة مشكلة، ولكنه قاطع كلامها بعنف، ألم تسمعني أقول لك أن تخرجني، سألهما. وأضاف بما يشبه الصراخ، اخرجي فوراً. انسحبت السيدة المسكينة والدموع في عينيها، لم تكن معتادة على أن تُعامل بهذه الطريقة، صحيح أن للمدير عيوبه، مثل الناس جمِيعاً، ولكنه شخص مهذب على العموم، وليس من عادته إساءة احترام السكرتيرات. السبب هو شيء وارد في الرسالة، ولا وجود لتفسير آخر، هكذا فكرت بينما هي تبحث عن منديل لتمسح دموعها. ولم تكن مخطئة. ولو أنها تجرأت على الدخول مرة أخرى إلى المكتب لرأى المدير العام يتقلّب بسرعة من جانب إلى آخر، وملامح الهذيان على وجهه، كما لو أنه لا يدرِّي ما عليه عمله، وهو مدرك بوضوح في الوقت نفسه أنه هو وحده، وليس أحد سواه، من يستطيع عمل ذلك. نظر المدير إلى الساعة، ثم نظر إلى ورقة الرسالة، ودمدم بصوت خافت، شبه سري، ما زال لدى وقت، ما زال لدى وقت، ثم جلس بعد ذلك ليعيد قراءة الرسالة الغامضة بينما هو يمر بيده الطليقة على رأسه بحركة آلية، كما لو أنه يريد التأكّد

من أن رأسه مازال في مكانه، وأنه لم يفقده **مُبئًعاً** في دوامة الخوف التي تلوي معدته. انتهى من قراءة الرسالة، وظلت عيناه ذاهلتين في الفراغ، يفكر، على أن أكلم أحداً، وبعد ذلك وردت إلى ذهنه، لنجده، فكرة أن الأمر قد يكون مزاحاً، قد تكون مزحة سمجة من مشاهد تلفزيوني مستاء، وهناك الكثير منهم، والأدهى أن لهم مخيلة مريضة، ومن يتحمل مسؤوليات إدارية في التلفزيون يعرف جيداً أنه ليس كل شيء هناك هو بحر من الورود، ولكنني لست الشخص الذي يكتب إليه للتفريج عن النفس، فكر. وكما هو طبيعي، قاده هذا التفكير إلى رفع سماعة الهاتف ليصال السكريتيرة، من الذي جاء بهذه الرسالة، لا أعرف يا سيدي المدير، فعندما وصلت وفتحت باب مكتبك، مثلما أفعل دائماً، كانت الرسالة هناك، ولكن هذا مستحيل، فليس بإمكان أحد دخول هذا المكتب في الليل، وهو كذلك يا سيادة المدير، كيف تفسرين الأمر إذاً، لا تسألني أنا يا سيدي المدير، فقبل لحظات أردت أن أخبرك بما جرى، ولكنك لم تمنعني حتى مجرد الوقت لذلك، أتعرف بأنني كنت فظاً بعض الشيء، اغذريني، لا أهمية لذلك يا سيدي المدير، ولكن تصرفك ألمني. عاد المدير العام لفقدان صبره، لو أخبرتك بما لدى هنا، فسوف تعرفين حقاً ما هو الألم. وأغلق الهاتف. أعاد النظر إلى الساعة، ثم قال لنفسه، إنه المخرج الوحيد، لا أرى مخرجاً سواه، وهناك قرارات لست مخولاً باتخاذها. فتح مفكرة وبحث عن الرقم الذي يهمه، وجده، ها هو، قال. كانت يداه لا تزالان ترتجفان، تكلف مشقة في الإصابة بالأرقام، وصعوبة أكبر في التحكم بصوته عندما ردوا عليه من الجانب الآخر، وقال، حولني إلى مكتب رئيس الوزراء، أنا مدير التلفزيون، المدير العام. رد على مكالمته مدير مكتب رئيس الوزراء، صباح الخير أيها السيد المدير العام، يسعدني سماع صوتك، بماذا

يمكنني أن أخدمك، إنني بحاجة لأن ألتقي بالوزير الأول في أسرع وقت ممكن من أجل موضوع يستدعي العجلة القصوى، يمكنك أن تخبرني بالموضوع وسأنقله إلى السيد الوزير الأول، متأسف، لكن ذلك مستحيل، فالقضية، فضلاً عن كونها مستعجلة، تستوجب أقصى حدود السرية أيضاً، ومع ذلك، إذا ما أعطيتني فكرة عنها، لدى هنا، أمام عيني الذين سياكلهما التراب، وثيقة ذات أهمية وطنية عظمى، وإذا كان هذا الذي أقوله لك غير كافٍ، إذا لم يكن كافياً لكي تضعني الآن فوراً على اتصال مع الوزير الأول أينما كان، فإني أخشى كثيراً على مستقبله الشخصي والسياسي، بهذه الجدية هي المسألة، لن أقول إلا أنك ستكون منذ هذه اللحظة المسؤول الوحيد عن كل دقة تمضي، سأرجي ما يمكنني فعله، فالسيد الوزير الأول مشغول جداً، فلتته انشغاله إذاً، إن كنت ترغب في نيل ميدالية، على الفور، إبني بالانتظار، هل يمكنني توجيه سؤال آخر إليك، أرجوك، ما الذي تريد معرفته أكثر، لماذا قلت "عيني هاتين اللتين سياكلهما التراب"، وهذا كان في الماضي، أنا لا أعرف ما الذي كنته حضرتك في الماضي، ولكنني أعرف أنك الآن أبله خالص، حولني إلى الوزير الأول وكفى. قسوة كلمات المدير العام تثبت إلى أي حد كانت روحه متوترة. كان كمن فرض عليه نوع من المواجهة، لم يعرف معه، ولا يفهم كيف أمكن له شتم شخص مجرد أنه توجه إليه بسؤال عقلاني بالملطقي، سواء بكلماته أو بنوایاه. يجب علي أن اعتذر منه، فكر نادماً، فقد أحتج إليه جداً. عندئذ دوى صوت الوزير الأول بنفاذ صبر، ما الذي جرى، سأله، فالتلفزييون حسب علمي ليس من اختصاصي، ليس التلفزيون هو القضية أيها السيد رئيس الوزراء، لدى رسالة، أجل، لقد أخبروني بأن لديك رسالة، وماذا تريدين أن أفعل، لا أريد منك إلا أن تقرأها، ولا شيء

أكثر، وما سوى ذلك، باستخدام كلماتك نفسها، لن يكون من اختصاصي، ألاحظ أنك متواتر الأعصاب، أجل أيها السيد رئيس الوزراء، إنني أكثر من متواتر الأعصاب، وما الذي تقوله هذه الرسالة الغامضة، لا يمكنني قول ذلك في الهاتف، خططي الهاتفي مضمون، وحتى في هذه الحالة لا يمكنني إخبارك بأي شيء، فكل الحرصن يظل قليلاً، أرسلها إلى إذاً، سأسلمها باليد، ولا أريد المجازفة بإرسالها مع مراسل، سأرسل لك شخصاً من هنا، مدير مكتبي مثلاً، فمن الصعب إرسال شخص مقرب أكثر منه، سيادة الوزير الأول، أرجوك، ما كنت سأزعجك لو لم يكن لدى سبب جدي جداً، إنني أحتاج إلى مقابلتك، متى، الآن بالذات، إنني مشغول، أرجوك يا سيادة رئيس الوزراء، لا بأس، بما أنك تلح، تعال، وأمل أن يكون في السر ما يستحق العناء، شكراً، سأجيء راكضاً. أغلق المدير العام الهاتف، دسَ الرسالة في الملف، وخبأها في أحد جيوب سترته الداخلية ونهض. لم تعد يداه ترتجفان، لكن جبينه كان مبللاً بالعرق. مسح وجهه بمنديل، ثم اتصل بالسكرتيرة بالهاتف الداخلي، قال لها إنه سيخرج، وأن تطلب له السيارة. واقع أنه قد نقل المسئولية إلى كاهل شخص آخر طمأنه قليلاً، فخلال نصف ساعة سيكون دوره في هذه القضية قد انتهى. فتحت السكرتيرة الباب، السيارة في انتظارك يا سيدي المدير، شكراً، لا أدرى كم من الوقت سأتغيب، لدي لقاء مع الوزير الأول، ولكن هذه المعلومة لك أنت فقط، فلتكن مطمئناً يا سيدي المدير، لن أقول شيئاً، إلى اللقاء، إلى اللقاء يا سيدي المدير، وليمض كل شيء على ما يرام، في ظل هذه الأوضاع، لم نعد نعرف ما هو الذي على ما يرام وما هو السيئ، معك حق، وبالمناسبة، كيف حال أبيك، في الوضع نفسه يا سيدي المدير، بالنسبة للمعانا، لا يبدو أنه يعاني، ولكنه يبدو على وشك الوفاة، الانتهاء، وهو منذ شهرين

على هذه الحال، وبالنظر إلى ما يحدث، فإن الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله هو انتظار دوري كي يمددوني في سرير مجاور لسريره، من يدري، قال المدير ذلك وخرج.

استقبل مدير مكتب الوزير الأول المدير العام عند الباب، حياد بفتور واضح، ثم قال، سأوصلك إلى السيد رئيس الوزراء، لحظة واحدة، أريد طلب المغذرة منك أولاً، في الواقع كان هناك أبله خالص في محادثنا، ولكنه أنا، الاحتمال الأكبر هو أنه لم يكن أياً منا، قال مدير المكتب مبتسماً، لو كان بإمكانك رؤية ما أحمله في جيبي هذا لفهمت حالي الروحية، لا تقلق بشائي، فقد قبلت اعتذارك،أشكرك، وسوف ترى، لم تبق إلا ساعات قليلة لتفجر القنبلة وتصبح معروفة للملأ، عسى ألا تحدث دوياً كبيراً لدى انفجارها، سيكون الدوي أعظم منأسوء الرعدات التي سمعت على الإطلاق، وأشد إبهاراً من كل البروق مجتمعة، إنك تثير قلقي، ولكن متأكداً من أنك ستعذرني مرة أخرى في تلك اللحظة، هلم بنا، فالسيد الوزير الأول بانتظارك. اجتازا قاعة لا بد أنها كانت تسمى في أزمنة سابقة قاعة انتظار، وبعد دقيقة كان المدير العام في حضرة الوزير الأول الذي استقبله بابتسامة، فلنر مشكلة الحياة أو الموت هذه التي تحملها إليّ، مع كل فروض الاحترام، أنا على قناعة من أنه لم تخرج من فمك قط كلمات أكثر حقيقة من هذه الكلمات يا سيد رئيس الوزراء. أخرج الرسالة من جيبي، وقدمها إليه من فوق المنضدة. استغرب الوزير الأول، إنها لا تحمل اسم المرسل إليه، ولا اسم مرسلها، قال المدير العام، كما لو أنها رسالة موجهة إلى الجميع، تعني أنها رسالة مغفلة، لا يا سيادة رئيس الوزراء، فهي تحمل توقيعاً كما يمكنك أن ترى، اقرأها، أرجوك. فتح الملف بتمهل، وأخرجت الورقة، ولكن رئيس الوزراء رفع عينيه فور رؤيته السطور

الأولى وقال، يبدو الأمر مزاحاً، يمكن له أن يكون كذلك في الواقع، ولكنني لا أظن ذلك، فقد ظهرت الرسالة على منضدة عملي دون أن يعرف كيف، لا أرى أن هذا يمكن أن يكون سبباً كافياً لتصديق ما يقال هنا، واصل القراءة، أرجوك. عندما وصل رئيس الوزراء إلى نهاية الرسالة نطق ببطء، وبتحريك شفتيه بصمت، حروف كلمة التوقيع. ترك الرسالة على المنضدة، نظر إلى محدثه محدقاً وقال، فلنتخيل أنها مزحة، ليست كذلك، وأنا أيضاً لا أظن أنها كذلك، ولكنني إذا طلبت أن تخيل ذلك فإنما لأتوصل إلى أنها لن تأخر ساعات طويلة لمعرفة الأمر، اشتبأ عشرة ساعة بالضبط، لأن الوقت الآن منتصف النهار، هذا ما أريد الوصول إليه، فإذا تحقق ما تعلن عنه الرسالة، وإذا نحن لم نبه الناس مسبقاً فسوف يتذكر، ولكن بصورة معكوسة، ما حدث في ليلة رأس السنة، سيكون سياسياً أنبهنا أم لم نبه يا سيادة رئيس الوزراء، فالتأثير سيكون هو نفسه، إنما معكوس، معكوس ولكن نفسه، بالضبط، ولكننا إذا نبهنا ثم تبين بعد ذلك أن الأمر مزحة، سيكون الناس قد مرروا بوقت حرج دون طائل، مع أن الحقيقة هي أنه سيكون هناك الكثير مما يقال عن ملامعة هذا التبيه، لا أظن أن الأمر يستحق العناء، فحضرتك قد قلت إنك لا تعتقد أنها مزحة، هذا صحيح، ما الذي علينا عمله إذاً، هل ننذر أم لا ننذر، هذه هي المسألة يا عزيزي المدير العام، علينا أن نفكّر، نوازن، نتأمل، لقد صارت القضية بين يديك يا سيادة الوزير الأول، والقرار لك الآن، القرار لي، أجل، حتى إنه يمكن لي أن أمزق الورقة إلى ألف نتفة وأن أجلس منتظراً ما سيحدث، لا أظنك تفعل ذلك، معك حق، لن أفعل ذلك، وبالتالي لا بد لي من اتخاذ قرار، فمجرد القول إنه يجب تبيه الناس غير كافيٍ، من الضوري معرفة كيف نفعل ذلك، وسائل الاتصال الاجتماعي موجودة

لها الغرض يا سيادة الوزير الأول، لدينا التلفزيون، الصحف، الإذاعة، فكرتك هي أن توزع على كل هذه الوسائل نسخاً من الرسالة مرفقة ببلاغ من الحكومة تطلب فيه من الأهالي الهدوء وتقدم بعض النصائح حول كيفية التصرف في حالة الطوارئ، سيادة الوزير الأول، لقد صفت الفكرة بأفضل مما يمكن لي فعله في أي وقت، أشكر رأيك المتملق، ولكنني أطلب منك الآن أن تبذل جهداً وتخيل ما الذي سيحدث إذا ما تصرفنا على هذا النحو، لست أفهمك، كنتُ أنتظر أكثر من هذا من المدير العام للتلفزيون، إذا كان هذا ما تنتظره، فإننيأشعر بالأسف لأنني لست على هذا المستوى يا سيدي رئيس الوزراء، بل أنت كذلك، وكل ما في الأمر أنك مرتبك بسبب المسؤولية، وحضرتك، ألسْت مرتبكَ وأنت رئيس الوزارة، بلـ، إنني مرتبك أيضاً، ولكن الارتباك في حالي لا يعني أنني مشلول، هذا من حسن حظ البلاد، أشكرك مرة أخرى، لم نتبادل الحديث كثيراً من قبل، لأنني أتحدث في شؤون التلفزيون مع الوزير المختص، ولكنني أظن أن الوقت قد حان لنجعل منك شخصية وطنية، لم أفهمك مطلقاً الآن يا سيادة الوزير الأول، الأمر بسيط، هذه المسألة ستبقى في ما بيننا، وفي ما بيننا بكل صرامة، حتى الساعة التاسعة ليلاً، وفي هذه الساعة تُفتح نشرة أخبار التلفزيون بقراءة بلاغ رسمي يُشرح فيه ما سيحدث في منتصف ليل اليوم، ويُقرأ كذلك ملخص للرسالة، والشخص الذي سيقدم هذه القراءة سيكون المدير العام للتلفزيون، أولاً لأنه هو من تلقى الرسالة، وإن لم يذكر بالاسم فيها، وثانياً لأن المدير العام هو الشخص الذي أثق فيه كي نجز المهمة التي أوكلتها إلينا، ضمنياً، السيدة صاحبة التوقيع على هذه الورقة، يمكن لمذيع أن يقوم بالعمل بصورة أفضل يا سيادة رئيس الوزراء، لا أريد مذيعاً، أريد المدير العام للتلفزيون، إذا كانت هذه هي رغبتك، فسوف أعتبر

ذلك شرفاً لي، إننا الشخصان الوحيدان اللذان يعرفان ما الذي سيحدث اليوم في منتصف الليل، وسنظل كذلك حتى الساعة التي ستلتقي فيها البلاد بأسرها الخبر، أما إذا فعلنا ما اقترحه من قبل، أي توزيع الخبر على وسائل الاتصال الاجتماعي، فسوف تكون لدينا اشتراط عشرة ساعة من الاضطراب، الذعر، الصخب، والهستيريا الجماعية، ولا أرديكم من الأشياء الأخرى، وبالتالي، وأنه ليس ضمن إمكاناتنا، أعني كحكومة، تجنب ردود الفعل تلك، فإننا سنقلصها إلى ثلاثة ساعات فقط، ومنذ تلك اللحظة لن يكون الأمر بيدنا، سيكون هناك من كل شيء: دموع، يأس، حالات إحساس براحة سيئة المواراة، حسابات جديدة للحياة. تبدو لي فكرة جيدة، أجل، ولكنها جيدة لأنها ليس لدينا أفضل منها. تناول رئيس الوزراء الورقة ومر عليها بعينيه دون أن يقرأها وقال، غريب، من المفترض أن يكون الحرف الأول من التوقيع كبيراً، وهو صغير هنا، لقد بدا ذلك لي غريباً أيضاً، فكتابة اسم بحروف صغيرة هو أمر غير عادي، قل لي، هل ترى شيئاً عادياً في كل هذا الذي نعيشه، لا شيء في الواقع، وبالمناسبة، هل تعرف كيفية استنساخ صور فوتوكوبي، لستُ اختصاصياً، ولكنني فعلت ذلك في بعض المرات، رائع. خباء الوزير الأول الرسالة والمغلف في حقيبة ممتلئة بالوثائق وأمر باستدعاء مدير مكتبه، ووجه إليه الأوامر، أخل فوراً القاعة التي توجد فيها آلات الاستنساخ الفوتوكوبي، إنها موجودة حيث يعمل الموظفون يا سيدى رئيس الوزراء، فهذا هو مكانها، فليذهبوا إلى مكان آخر، فلينتظروا في الممر أو يخرجوا لتدخين سيجارة، إننا نحتاج إلى ثلاثة دقائق فقط، أليس كذلك أنها المدير العام، ليس أكثر يا سيدى رئيس الوزراء، فقال مدير المكتب، يمكنني استنساخ الصورة بتكميل مطلق، إذا كان هذا هو المطلوب، مثلاً أسمح لنفسي بأن أفترض،

هذا ما هو مطلوب بالضبط، التكتم، ولكنني في هذه المرة سأتولى العمل بمنفسي، وبمساعدة، فلننقل، تقنية، من السيد المدير العام للتلفزيون الحاضر هنا، حسن جداً يا سيدي رئيس الوزراء، سأذهب لإصدار الأوامر الالزمة لإخلاء القاعة. رجع بعد دقيقتين من ذلك، لقد صارت خالية يا سيدي رئيس الوزراء، وسأعود إلى مكتبي إذا لم يكن هناك أي مانع، يسعدني أنك لم تضطرني إلى أن أطلب منك ذلك، ولا تأخذ على محمل السوء هذه الحركة التي تبدو في الظاهر تأميرية بسبب استبعادك منها، فالليوم بالذات ستعرف أسباب كل هذه الاحتياطات دون أن أخبرك بها شخصياً، بالتأكيد يا سيادة الوزير الأول، فأنا لا أسمح لنفسي أبداً بالارتياح في وجاهة مسوغاتك، هكذا يكون الكلام يا صديقي العزيز. عندما خرج مدير المكتب، تناول رئيس الوزراء الحقيقة وقال، هيا بنا. كانت القاعة مقرفة. وفي أقل من دقيقة كانت الصورة المستنسخة جاهزة، حرفاً حرفاً، ولكنها كانت شيئاً آخر، كانت تتحصلها لمسة الورق البنفسجي المثيرة للقلق، إنها الآن رسالة مبتدلة، عادية، من نوع عسى أن تجدكم هذه السطور بسعادة وصحة جيدة مع الأسرة كلها، ومن جهتي لا يمكنني أن أقول إلا حمداً للحياة ومن صنعها. سلم الوزير الأول الصورة المستنسخة إلى المدير العام، إليك هذه، وسأحتفظ بالأصلية، قال، وبلغ الحكومة، متى سألتقاء، اجلس، وسوف أصوغه أنا بنفسي خلال لحظة، إنه سهل، أعزائي المواطنين، ترى الحكومة أن من واجبها إطلاع البلاد على أمر رسالة وصلت اليوم إلى يديها، إنها وثيقة لا يتطلب مغزاها وأهميتها الإلحاد، على الرغم من أننا لسنا في ظروف تسمح لنا بضمانتها، إلا أنها نقر، دون أن نستبق مضمونها، بإمكانية إلا يحدث ما تعلنه الوثيقة نفسها، وعلى كل حال، وكيلا يفاجأ الأهالي بوضع لا يستبعد فيه تصاعد التوترات ومظاهر الانتقاد المختلفة فور

قراءتها التي أوكلت، بموافقة الحكومة، إلى المدير العام للتلفزيون، ولدي كلمة أخرى قبل الانتهاء، ليس من الضروري التأكيد أن الحكومة، كما هي العادة، ستبقى مت卿ظة لما فيه مصالح و حاجات الأهالي التي ستكون الآن، دون شك، الأقسى منذ تكوننا كأمة وشعب، وهذا مسوغ لدعوة الجميع إلى الحفاظ على الهدوء والسكينة اللتين رأينا أدلة كثيرة عليهما خلال الوضع القدري الذي مررنا به منذ بداية العام، في الوقت نفسه الذي نشّق فيه بأن مستقبلاً أكثر رفقاً سيعيد إلينا الأمان والسعادة للذين نستحقهما وكنا نستمتع بهما من قبل، أعزائي المواطنين، أذكركم بأن الاتحاد يصنع القوة، هذا هو شعارنا ورأيتنا، فلنبق متحدين وسيكون المستقبل لنا، حسن، هاهو ذا البيان، وقد كان سريعاً جداً كما ترى، فهذه البيانات الرسمية لا تتطلب جهداً كبيراً من الخليفة، بل يمكن القول أنها تُكتب من تلقاء نفسها، لديك هناك آلة كاتبة، اطبع البيان عليها واحتفظ به بكل تمنى حتى الساعة التاسعة ليلاً، ولا ترك هذه الأوراق لحظة واحدة، كن مطمئناً يا سيدي رئيس الوزراء، فأنا أعي جيداً مسؤولياتي في هذه الظروف، وكن على ثقة من أنني لن أخيب أمليك، حسن جداً، يمكنك الآن العودة إلى عملك، اسمح لي أن أتوجه إليك بسؤالين آخرين قبل انصرافي، قل ما لديك، لقد قلت لي إن شخصين فقط سيعلمان بهذا الأمر حتى الساعة التاسعة ليلاً، أجل، أنت وأنا، ولا أحد سوانا، حتى ولا الحكومة، وماذا عن الملك، إذا لم تكن جرأة من جنبي التدخل في ما لا يعنيني، جلالته سيعلم بالأمر في الوقت نفسه مع الآخرين، هذا إذا كان يشاهد التلفزيون طبعاً، أعتقد أنه لن يكون راضياً عن عدم إخباره مسبقاً، لا تقلق، فأفضل المزايا التي تجمل الملوك، وأنا أعني الملوك الدستوريين بكل تأكيد، هي أنهم أشخاص مفهومون إلى أبعد الحدود، آه، معك حق، وما هو السؤال

الثاني الذي تود توجيهه، ليس سؤالاً، ماذا إذاً، الأمر بصرامة يا سيادة الوزير الأول أنني مندهش لبرودة الأعصاب التي تبديها، بينما أرى أن ما سيحدث في البلاد في منتصف الليل سيكون كارثة، بل كارثة لم يُعرف مثلها قط، نوع من نهاية العالم، وأنا أرى حضرتك تعامل مع الأمر كما لو أنه مثل أي مسألة أخرى من روتين الحكم، تُصدر أوامرك بطمأنينة، بل لقد بدا لي قبل لحظة أنني رأيتك تتسم، إبني واثق يا عزيزي المدير العام من أنك ستتبسم أنت أيضاً لو كانت لديك فكرة عن كمية المشاكل التي ستحلها لي هذه الرسالة دون أن تحتاج إلى تحريك إصبع واحدة، والآن دعني أعمل، فعليّ أن أصدر بعض الأوامر، والتحدث مع وزير الداخلية كي يضع الشرطة في حالة تأهب، وسأحاول أن أختلق مبرراً معقولاً، احتمالات وقوع اضطرابات في الأمن العام، فهو ليس بالشخص الذي يضيع الكثير من الوقت في التفكير، إنه يفضل العمل إذا أردتم رؤيته سعيداً، سيد رئيس الوزراء، تقبل مني أن أقول إنني أرى في وجودي إلى جانبك خلال هذه اللحظات المصيرية امتيازاً لا يقدر بثمن، لحسن الحظ أنك ترى الأمر على هذا النحو، ولكن أعلم أنك ستغير رأيك إذا ما عرفت خارج هذا المكتب كلمة واحدة مما قيل هنا، سواء مما قلته أنا أم ما قلته أنت، أتفهم ذلك، مثل ملك دستوري، أجل يا سيادة رئيس الوزراء.

كانت الساعة حوالي الثامنة وثلاثين دقيقة عندما استدعى المدير العام مسؤولاً قسم الأخبار ليطلعه على أن نشرة الأخبار في هذه الليلة ستُفتح بقراءة بيان من حكومة البلاد، وسيتولى قراءته، كما هي العادة، مُقدم الأخبار المناوب، وبعد ذلك، سيقوم هو نفسه، المدير العام، بقراءة وثيقة تكميلية للبيان الأول. وإذا كان هذا التصرف قد بدأ مسؤولاً الأخبار غير طبيعي، وغير معهود، وخارجًا عن المألوف، فإنه لم يبيّن ذلك، واكتفى بطلب الوثقتين لإدخالهما في التيلي

برومتور، ذلك الجهاز الجدير بالتقدير الذي يتيح توليد الوهم بأن المذيع يتوجه مباشرةً وحصراً إلى كل واحد من الأشخاص الذين يستمعون إليه. فأحابه المدير العام بأن التلي برومتور لن يستخدم في هذه الحالة. وقال، سنقوم بالقراءة على الطريقة القديمة، وأضاف أنه سيدخل إلى الاستوديو في الساعة العشرين وخمس وخمسين دقيقة بالضبط، وهي اللحظة التي سيسلم فيها بيان الحكومة إلى المذيع الذي سيكون قد تلقى معلومات صارمة بـألا يفتح الملف الذي فيه البيان إلا في لحظة قراءته. وفي هذه اللحظة فكر مسؤول قسم الأخبار بأن هناك مسوباً لإبداء قدر من الاهتمام بالموضوع، فهو على هذا القدر من الأهمية، سأله، خلال نصف ساعة ستعرف ذلك، وماذا عن العلم الوطني يا سيادة المدير العام، أتريد أن أطلب وضعه وراء الكرسي الذي ستجلس عليه، لا، لا أريد أعلاه، فأنا لست رئيس حكومة ولا وزيراً، ولا ملكاً، قال مسؤول قسم الأخبار بلامح تواطؤ متملق، كما لو أنه يريد أن يفهمه بأنه ملك حقاً، ولكنه ملك التلفزيون الوطني. ظاهر المدير العام بأنه لم يسمعه، يمكنه الانصراف، وخلال عشرين دقيقة سأكون في الاستوديو، لن يكون لدينا متسع من الوقت لإجراء المكياج لك، لا أريد مكياجاً، القراءة ستكون مقتضبة جداً، وسيكون لدى مشاهدي التلفاز في تلك اللحظات أمور يفكرون فيها أكبر من كون وجهي ممكيناً أو دون مكياج، حسن جداً، مثلما تشاء حضرتك، على أي حال، اتخذ الاحتياطات كيلاً ظهر لي مصابيح الإضاءة زرقة حول عيني، فأنا لا أحب أن يراني الناس على الشاشة بمظهر خارج من القبر، واليوم أقل من أي وقت آخر. في الساعة العشرين وخمس وخمسين دقيقة دخل المدير العام إلى الاستوديو، قدم للمذيع الملف الذي يتضمن بيان الحكومة وجلس في المكان الذي حُصص له. ولغرابة الوضع، ولأن

الخبر كان قد انتشر، كما هو متوقع، فقد احتشد في الاستوديو عدد من الأشخاص أكبر من المعتاد. أمر المخرج بالصمت. وفي الساعة الحادية والعشرين بالضبط، وبرفة الأنغام المعروفة، سلسلة صور متنوعة وسريعة يراد منها إقناع المشاهد بأن ذلك التلفزيون الذي يعمل في خدمته أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، موجود في كل مكان، مثلما كان يقال عن الألوهية في الزمن القديم، ويرسل الأخبار إلى كل مكان. وفي اللحظة نفسها التي انتهى فيها المذيع من قراءة بيان الحكومة، وضعت الكاميرا رقم اثنين المدير العام على الشاشة. بدا عليه أنه متوتر، وأن حنجرته مغلقة. تتحنج قليلاً لينطف صوته وبدأ قراءة الرسالة، السيد المدير العام للتلفزيون الوطني، سيد العزيز، من أجل ما يرى الأشخاص المعنيون أنه مناسب، أُخبارك أنه ابتداء من منتصف ليل هذا اليوم سيعود الناس للموت مثلما كان يحدث، دون اعتراضات معلنة، منذ بداية الأزمة حتى يوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول (ديسمبر) من العام الفائت، ولا بد لي من أن أوضح لك أن النية التي دفعتني إلى وقف نشاطي، بالامتناع عن القتل، وإغمام المنجل الطويل الرمزي الذي وضعه في يدي رسامو وفنانو جرافيك أزمنة أخرى، أقول إن نيتني كانت أن أقدم لهذه الكائنات البشرية التي طلما مقتتني نموذجاً صغيراً على ما سيعنيه بقاوئهم أحياه دائماً، هذا يعني إلى الأبد، وإن يكن عليّ، وأقول هذا بيني وبينك أيها السيد المدير العام للتلفزيون الوطني، أن أعترف لك بجهلي الكامل حول إذا ما كانت كلامنا دائماً وإلى الأبد مترادفتين مثلما يعتقد عموماً، أما الآن، وقد انقضت فترة الشهور هذه التي يمكن لنا تسميتها اختبار الصمود أو الزمن المجاني، ومع الأخذ بالاعتبار النتائج المؤسفة للتجربة، سواء من وجهة النظر الأخلاقية، أي الفلسفية، أم من وجهة النظر البرجماتية، أي الاجتماعية، فقد رأيت أنه من الأفضل للعائلات

وللمجتمع بمجمله، سواء بالمعنى العمودي أو بالمعنى الأفقي، أن أعلن اعتراضي أمام الملأ بالخطأ الذي أتحمل مسؤوليته وأن أعلن عن العودة الفورية إلى الحالة الطبيعية، وهذا يعني أن جميع أولئك الأشخاص الذين يتوجب أن يكونوا ميتين، ولكنهم ظلوا بعافيتهم أو من دونها في هذا العالم، سينطفئ قنديل حياتهم حين تتلاشى في الهواء آخر دقات انتصاف الليل، ولاحظ أن الإشارة إلى دقات منتصف الليل هي إشارة رمزية محضة، كيلا تخطر ببال أحد الفكرة الحمقاء بوقف ساعات الأبراج أو انتزاع مدققات الأجراس معتقداً أنه بهذه الطريقة سيوقف الزمن ويعارض قراري الذي لا رجعة عنه، وهذه الإعادة لأعظم خوف إلى قلوب البشر      معظم الأشخاص الذين حضروا إلى الاستوديو من قبل كانوا قد اختفوا، ومن ظل منهم راحوا يتهمسون فيما بينهم، وكانت همهمتهم تتعالى دون أن يخطر للمخرج، وكان فمه مفتوحاً لمجرد الذهول، أن يأمرهم بالصمت بتلك الإيماءة الغاضبة التي يستخدمها عادة في ظروف أقل دراماتيكية بكثير      لينصاعوا بعدها ويموتوا دون جدال لأنه ليس هناك ما ينفعهم، ومع ذلك، توجد نقطة أشعر معها باضطراري إلى الاعتراف بخطئي، وهي المتعلقة بأسلوبي الجائر والقاسي الذي كنت أسير عليه، حيث كنت أنتزع حياة الأشخاص بفتة، دون إشعار مسبق، ودون القول لهم خذ حذرك، أنقهم أن في ذلك قسوة غير محترمة، فكم من المرات لم أمنحهم الوقت حتى لتقديم وصيthem، صحيح أني كنت أرسل إليهم في معظم الحالات مرضاً يفتح لهم الطريق، ولكن في الأمراض أمراً مثيراً للفضول، فالكائنات البشرية تأمل على الدوام بالتخلص من الأمراض، وعندما يكون الوقت قد تأخر جداً ينتهي بهم الأمر إلى معرفة أن هذه ستكون الأخيرة، واعتباراً من الآن سينتهي الجميع مسبقاً بالطريقة نفسها وستكون لديهم مهلة أسبوع كي ينظموا ما تبقى لهم

في الحياة، فينجزوا وصيّتهم، ويودّعوا الأسرة، ويطلبوا الصفح عن العمل السيئ أو يتصالحوا مع ابن العم الذي قطعوا العلاقة به منذ عشرين عاماً، بعد قوله هذا، لم يبق لي إليها السيد المدير العام للتلفزيون الوطني إلا أن أطلب منك أن توصل في هذا اليوم بالذات، إلى جميع بيوت البلاد، رسالتى الخطية هذه التي أوقعها بالاسم الذى يعرفوننى به عموماً، موت. نهض المدير العام عن الكرسي عندما رأى أنه لم يعد على الشاشة، طوى نسخة الرسالة وحفظها في جيب سترته الداخلية. لاحظ أن المخرج يقترب منه، شاحباً، وبوجه ممتعق، كان هذا هو الأمر إذاً، قال بهمهمة تكاد تكون غير مسموعة. هز المدير العام رأسه بصمت، وتوجه نحو المخرج. لم يسمع الكلمات التي بدأ المذيع يتلعلع بها، انتهيتم من الاستماع إلى..، وبعد ذلك الأخبار التي فقدت أهميتها لأنّه لم يكن هناك في سائر أنحاء البلاد من يوليهما أدنى اهتمام، ففي البيوت التي فيها مريض نهائى اجتمعـت أفراد العائلات حول فراش عاشر الحظ، وإن كانوا غير قادرين على القول له إنه سيموت بعد ثلاثة ساعات، لا يستطيعون القول له إن بإمكانه استغلال الوقت ليملي وصيته التي رفض إملاءها على الدوام، أو سؤاله إذا ما كان يرغب في أن يستدعوا ابن العم ليتصالح معه، ولم يكن يامكانهم كذلك ممارسة النفاق المعهود بسؤاله عما إذا كان يشعر بأنه أحسن حالاً، كانوا يقفون متأنلين الوجه الشاحب والطري، ثم ينظرون خفية إلى الساعة بانتظار أن يمر الوقت وأن يعود قطار العالم إلى سكته المعهودة كي يقوم ببرحلته المعروفة. ولم تكن قليلة العائلات التي كانت قد دفعت مسبقاً للمافيا كي ترفع عن كاهلهم الفضلة البشرية الحزينة، وبافتراض أنهم، في أفضل الحالات، لن يبيروا النقود الضائعة، سيرون كيف أنهم كانوا سيحققون الإخلاص مجاناً لو أنهم تمتعوا بقليل من الرحمة والصبر. كانت الشوارع في

حالة هائلة من المهرج والمرج، يُرى أشخاص متوقفون بذهول، حائرون، لا يعرفون بأي اتجاه يهربون، وآخرون ي يكون بتفجع، وآخرون يتعانقون، كما لو أنهم بدؤوا الوداع هناك، وآخرون يتجادلون إذا كانت الحكومة هي من تتحمل تبعة ذلك كله، أم العلوم الطبية، أم بابا روما، وارتياحي يتحج بأن الذاكرة لم تحتفظ قط بخبر أن الموت قد كتب رسالة وأنه لا بد من إجراء تحليل للخط بالسرعة القصوى لأن يداً مركبة من قطع عظمية، على حد قوله، لا يمكن لها بأي حال أن تكتب بالطريقة نفسها التي يمكن أن تفعل به ذلك يدًّا كاملة، حقيقية، حية، بدم وأوردة وأعصاب وأوتار، وجلد ولحم، وإذا كان صحيحاً أن العظام لا تختلف بصمات أصابع مطبوعة على الورق ولا يمكن وبالتالي تحديد هوية كاتب الرسالة، فإن فحصاً لـ DNA ربما يلقي ضوءاً ما على هذه الظاهرة الرسائلية غير المتوقعة من كائن، سواء أكان الموت أم لم يكن، كان في حالة صمت طوال الحياة. في هذه اللحظات بالذات كان رئيس الوزراء يتحدث هاتفياً مع الملك، ويوضح له الأسباب التي جعلته يقرر عدم إطلاعه على أمر رسالة الموت، والملك يرد بنعم، إنه يتفهم الأمر تماماً، وعندئذ يقول له رئيس الوزراء إنه متأسف جداً لأن الدقة الأخيرة المسؤومة لمنتصف الليل ستضع حياة الملكة الأم في خطر، وبهز الملك كتفيه، فمن أجل قدر ضئيل من الحياة، يكون عدم الحياة أفضل، واليوم هي، وأنا غداً، وبصورة خاصة الآن حيث الأميرولي العهد بيدي التململ وقدان الصبر، ويسأل متى يحين دوره في أن يصير ملكاً دستورياً. بعد انتهاء هذه المحادثة الحميمة، مع لمسات صراحة غير معتادة، أعطى الوزير الأول تعليماته لمدير مكتبه كي يدعو جميع أعضاء الحكومة إلى اجتماع بالسرعة القصوى، أريدهم هنا خلال ثلاثة أربعاء الساعة، في العاشرة بالضبط، قال، علينا أن نناقش، ونقر، ونضع موضع التنفيذ المهدئات الضرورية

لتقليل كل أنواع الاضطرابات الفوضى التي ستتشاء دون مفر عن الوضع الجديد في الأيام القادمة، أتعني كمية الأشخاص الميتين الذين يتوجب إخراهم في هذه المهلة القصيرة جداً يا سيادة رئيس الوزراء، هذا هو أقل الأمور أهمية يا صديقي العزيز، فمن أجل حل مشكلات من هذا النوع توجد وكالات الدفن، بل أكثر من ذلك، فالأزمة بالنسبة لهذه الوكالات قد انتهت، ولا بد أنهم سعداء جداً الآن وهم يحسبون ما سيجنونه من أرباح، وهكذا ستتولى وكالاتهم دفن الموتى، مثلما هي صلاحيتها، أما نحن فسوف نشغل بالأحياء، سوف ننظم، على سبيل المثال، فرق نفسيانيين يساعدون الأفراد على تجاوز صدمة أنهم سيعودون للموت بعد أن افتقعوا بأنهم سيعيشون إلى الأبد، سيكون ذلك قاسياً بالفعل، أنا نفسي فكرت في الأمر، لا تضيع الوقت، ولن يأتي الوزراء معهم بأمناء الدولة المرتبطين بوزاراتهم، أريدهم جمياً هنا في العاشرة تماماً، وإذا سألك أحدhem، قل له إنه أول من وجهت إليه الدعوة، إنهم مثلأطفال صغار يريدون حلوى. رن الهاتف، وكان وزير الداخلية، سيادة الوزير الأول، إنني أتلقي اتصالات من كل الصحف، قال، يطلبون أن تُسلم إليهم نسخاً من الرسالة التي قُرئت للتو في التلفزيون باسم الموت وأنا لا علم لي بها للأسف. لا تتآسف، وإذا كنت قد صممت على تحمل مسؤولية إخفاء السر فإنما فعلت ذلك كيلا يكون علينا تحمل اشتئ عشرة ساعة من الملح والفووضى، مادا عليّ أن أفعل إذاً، لا تقلق لهذا الأمر، سيتولى مكتبي توزيع الرسالة الآن بالذات على كل وسائل الاتصال الاجتماعي، حسن جداً يا سيادة الوزير الأول، الحكومة ستجتمع في العاشرة بالضبط، أحضر معك أمناء الدولة التابعين لك، وهل أحضر معي معاوني الأمناء أيضاً، لا، فليظل هؤلاء لحراسة البيت، فلطالما سمعت أن أناساً كثريين معاً لا يستطيعون النجاة، أجل يا سيادة رئيس

الوزراء، كن دقيقاً بالحضور في الموعد، الاجتماع سيبدأ في العاشرة ودقيقة واحدة، إنني متأكد من أننا سنكون أول الوافصلين يا سيادة الوزير الأول، ستلتقي ميداليتك، أية ميدالية، إنها مجرد طريقة في الكلام، فلا تهتم بما قلته.

اجتمع ممثلو مؤسسات الماتم، والدفن، وإحراق الجثث ونقلها، والخدمات المرتبطة بها، في الساعة نفسها في مقر الجمعية. وكان يواجههم التحدي المهني الضخم الذي لم يعرفوه من قبل، والذي يشكله الموت المتزامن بالجملة والتصريف الجنائزي التالي لآلاف الأشخاص في كافة أنحاء البلاد، الحل الجدي الوحيد الذي يُطرح عليهم، فضلاً عن ارتقاء منفعته من الوجهة الاقتصادية بفضل الخفض العقلاني للتکالیف، سيكون أن يضعوا في اللعبة، بطريقة جماعية ومنظمة، إمكانات العاملين والوسائل التقنية المتوفرة لديهم، وباختصار، كل الوسائل اللوجستية، وأن تُقر في أثناء ذلك حصة الكعكة بما يتاسب مع المشاركة، مثلما قال بظرف رئيس جمعية المهنة، مع تصفيق متحفظ من الجمع، وإن يكن باسماً. ولا بد من الأخذ في الحسبان، على سبيل المثال، أن إنتاج صناديق، وتوابيت، وقبور، ونحوش، وأكفار استخدام البشري قد توقف منذ اليوم الذي توقف فيه الناس عن الموت، وحتى في الحالة غير المحتملة، بوجود ورشة نجارة ذات إدارة محافظة، فإنها ستكون مثل الصغيرة روزيت دي مالهيرب التي لم يعد بإمكانها، بعد تحولها إلى وردة، أن تستمر لأكثر من فترة صباح مقتضبة. وقد جاء الاقتباس الأدبي من الرئيس، ومع أن اقتباسه كان في غير محله، إلا أنه أثار تصفيق الحاضرين، ثم أتبع ذلك بالقول، مهما يكن الأمر، فقد انتهى بالنسبة لنا عار المضي في دفن كلاب وقطط وكناريات داجنة، وببغوات، قال صوت من الصفوف الخلفية، أجل، وببغوات، أكد الرئيس، وأسماك

تروبيكالية، ذكرهم صوت آخر، فصحح له سكريتر المنضدة، هذا لم يبدأ إلا بعد النقاش الذي أثارته الروح الحائمة على سطح ماء الحوض، وابتداء من هذه اللحظة سيكون عليهم تقديم تلك الأسماك الميتة إلى القطب، استناداً إلى رأي لافوازيه حين قال إن الطبيعة لا تخلق شيئاً ولا تفقد شيئاً، وإنما كل شيء فيها يتحوال. لم يتم التوصل إلى الحدود التي يمكن أن تبلغها استعراضات تقويم الوكالات الجنائزية المجتمعية هناك لأن أحد ممثليها، ولقلقه من إضاعة الوقت الذي كان يشير في ساعته إلى الثانية والعشرين وخمس وأربعين دقيقة، رفع ذراعه من أجل الاتصال هاتفياً بجمعية النجارين وسؤالهم كيف تمضي أحوال النعوش، وأنهى كلامه بالقول، نحتاج إلى معرفة عدد التوابيت التي ستتوفر لنا ابتداء من الغد. ومثلاً كان متوقعاً، قوله الاقتراح بترحيب حار، ولكن الرئيس، وبإخفاء غير موفق لاستيائه، لأنه لم يكن صاحب الفكرة، أبدى ملاحظته، الاحتمال شبه المؤكد هو أنه لا وجود لأحد في ورش التجارة في مثل هذا الوقت، اسمح لي أنأشكك في ذلك أيها السيد الرئيس، فالأسباب نفسها التي دفعتنا إلى الاجتماع هنا ستدفعهم هم أيضاً إلى الاجتماع. وقد أصاب صاحب الاقتراح عين الحقيقة. ردوا عليهم من جمعية النجارين بأنهم نبهوا الأعضاء المنضوين إلى الجمعية فور سماع قراءة رسالة الموت، ولفتوا انتباهم إلى ضرورة إعادة تصنيع الصناديق الجنائزية في أسرع وقت ممكن، وحسب الأخبار التي يتلقونها بصورة متواصلة، فإن كثيراً من المؤسسات لم تتوصل إلى استدعاء عمالها وحسب، وإنما صار معظمها كذلك في أوج عملية التصنيع. إن ذلك مخالف لمواعيد العمل المقررة، قال الناطق باسم الجمعية، وأضاف، ولكن بالنظر إلى أن الأمر يتعلق بضرورة وطنية ملحة، يبدي محامونا ثقتهم المؤكدة بأن الحكومة لن تجد مفرأً من أن تغمض عينيها، وأن تشكرنا فوق ذلك، وما لا

يمكنا تقديم ضمادات بشأنه في هذه المرحلة الأولى هو كون التوابيت التي سنقدمها من النوعية المتقدة التي اعتاد عليها زبائننا، فسحج الخشب والطلاء بالورنيش والصلبان الخارجية يجب تأجيلها للمرحلة التالية، حين يكون ضغط الجنازات قد بدأ بالانخفاض، ونحن واعون على كل حال لمسؤولية كوننا جزءاً أساسياً من هذه العملية. سمع تصفيق جديد وأشد حرارة في اجتماع ممثلي وكالات الدفن الجنائزية، الآن أجل، الآن شمه مسوغ لتبادل التهاني، لن يبقى جسد واحد دون دفن، ولا فاتورة واحدة دون جباية. وماذا بشأن حفاري القبور، سأل صاحب الاقتراح، حفارو القبور يفعلون ما يأمرون به، أجابه الرئيس بنزق، لم يكن الأمر كذلك بالضبط. فمن خلال مكالمة هاتفية أخرى علم أن حفاري القبور يطالبون بزيادة كبيرة في أجورهم ودفع ساعات العمل الإضافية بثلاثة أمثال الأجر العادي. هذا من اختصاص البلديات، فلتحل هي المسألة كييفما تستطيع، قال الرئيس. وسألته السكرتير، وماذا إذا وصلنا إلى المقبرة ولم يكن هناك من يحرف القبور. تواصل النقاش ملتهباً. وفي الساعة الثالثة والعشرين وخمسين دقيقة أصيب رئيس جمعية وكالات الدفن باحتشاء في عضلة القلب. ومات مع دقة الناقوس الأخيرة في منتصف الليل.

أكثر بكثير من مجرزة. فخلال سبعة شهور، هي المدة التي دامتها هدنة الموت من جانب واحد، راح يتراكم على قائمة انتظار لم تُر قط أكثر من ستين ألف محتضر، ولكي تكون دقيقين، فإن اثنين وستين ألفاً وخمسين شخصاً قد رقدوا بسلام في لحظة واحدة، في ثانية من الزمن مشحونة بقوة موت لا تجد مقارنة حصرية لها إلا في بعض الممارسات البشرية المستكراة. وبالمناسبة، لا يمكننا مقاومة تذكر أن الموت وحده، وبحد ذاته، بدون مساعدة خارجية، قد قتل على الدوام أقل مما يقتل الإنسان. ربما هناك نفسٌ ما تتساءل بدافع الفضول كيف تمكنا من الحصول على العدد الدقيق اثنين وستين ألفاً وخمسين شخصاً أطبقوا عيونهم في اللحظة نفسها وإلى الأبد. لقد كان ذلك بمنتهى البساطة. فإذا علمنا أن البلاد التي يحدث فيها هذا كله تضم حوالي عشرة ملايين نسمة، وأن معدل الوفيات يصل إلى عشرة بالألف تقريباً، فإن عمليتين حسابيتين بسيطتين، هما العمليتان الأكثر بدائية، وتعني عمليتي الضرب والقسمة، مع موازنة حذرة للنسبة الوسطية الشهرية والسنوية فإن الكمية المشار إليها تمثل المتوسط الحسابي المعقول، وإذا كانا نقول المعقول فإنما ذلك لأنه كان بإمكاننا أيضاً أن نبني العدددين المجاورين، أي الاثنين والستين ألفاً وخمسين وتسعة وسبعين أو اثنين وستين ألفاً وخمسين وواحداً وثمانين شخصاً لو لم يدخل موت رئيس جمعية الوكالات الجنائزية الاحتلال في حساباتها، لأنه لم يكن

متوقعاً وحدث في اللحظة الأخيرة. ونحن واثقون على كل حال من أن التتحقق من الوفيات الذي سيبدأ منذ أولى ساعات اليوم التالي، سيؤكد دقة حساباتنا. وتساءل نفسُ أخرى محنة للفضول، من تلك التي تقاطع الراوي على الدوام، كيف يمكن للأطباء معرفة إلى أي العناوين عليهم أن يتوجهوا ليقوموا بواجبٍ ما لم ينفذ لا يُعتبر الميت ميتاً بصورة شرعية، وإن كان ميتاً لا جدال في موته. في بعض الحالات، وعذراً لهذا القول، كانت عائلة المتوفى نفسها هي من تستدعي طبيبها المساعد أو الخاص، ولكن هذا الأسلوب محدود جداً، لاسيما أن المطلوب هو إضفاء الصبغة الرسمية في زمن قياسي على وضع غير قياسي، ومن أجل لا يتأكد مرة أخرى القول الذي يؤكّد أن المصيبة لا تأتي وحدها أبداً، والذي إذا ما طُبِّقَ على هذا الوضع، فسوف يعني موتاً مفاجئاً ونثانية في البيت. وكان أن ثبت حينئذ أن المصادفة ليست هي التي تُوصل رئيس وزراء إلى منصبه السامي، ومثلما لا تكُلُ حكمة الشعوب المعصومة عن الخطأ على التأكيد، كل شعب ينال الحكومة التي يستحقها، وتتوجب مع ذلك الملاحظة، في هذا التفصيل بالذات، ومن أجل استكمال توضيح المسألة، أنه إذا كان صحيحاً أن جميع رؤساء الوزراء، خيراً أو شرّاً، ليسوا جميعهم متماثلين، فليس أقلّ حقيقة من ذلك أن الشعوب نفسها ليست متطابقة على الدوام. وبكلمة واحدة، الأمر في هذه الحالة أو تلك نسبي. أو حسب الحال إذا أردنا قول ذلك بكلمتين اثنتين. وكما يمكن أن يلاحظ أي شخص، بمن في ذلك من هو غير ميال إلى الحياد في أحکامه، فإنه لا مجال لأدنى شك في الاعتراف بأن الحكومة قد عرفت كيف تكون على مستوى خطورة الوضع. فجميعنا نتذكر بسعادة ومرة تل ذلك الأيام الأولى من الخلود، وقد كانت أياماً قصيرة في نهاية المطاف، كيف استسلم لها هذا الشعب ببراءة، وكيف أن سيدة،

وهي أرملة منذ وقت قريب، خطرت لها فكرة الاحتفال بتلك السعادة الجديدة بأن تعلق العلم الوطني على شرفة مطبخها المزهرة، تلك الشرفة المطلة على الشارع الرئيسي. ونتذكر أيضاً انتشار رفع الأعلام، خلال أقل من ثمان وأربعين ساعة، كان انتشار النار في البارود، مثل وباء جديد، في كل أنحاء البلاد. وبعد مرور هذه الشهور السبعة من خيبة الآمال المتواصلة والمعاناة، لم تبق سوى أعداد قليلة من الرايات، وحتى هذه المتبقية، تحولت إلى خرق كثيرة، التهمت الشمس أولانها وأفقدتها المطر بريقتها، فضلاً عن التحلل المحزن الذي أصاب بنية الشعار الوطني. والحكومة التي قدمت دليلاً على روح بعيدة النظر تستحق التقدير، كان من بين إجراءاتها المستعجلة، للتحفيف من الأضرار الجانبية لعودة الموت المفاجئة، استعادتها استخدام راية الوطن كإشارة إلى أنه هناك، في ذلك الطابق الثالث الأيسر، يوجد ميت ينتظر. وبعد تصنيع الأعلام، أرسلت الأسر التي جرحتها إلهة الموت المقيدة أحد أفرادها إلى المتجر لشراء الراية، وعلقوها على النافذة، وبينما هم يهشون الذباب عن وجه المتوفى، جلسوا ينتظرون الطبيب الذي سيأتي ليؤكد الوفاة. لا بد من الاعتراف بأن الفكرة، فضلاً عن فعاليتها، كانت في منتهى الأناقة. فلم يكن على أطباء كل مدينة، وبلدة، وقرية، أو مجرد مكان، إلا أن يجوبوا الشوارع في سيارة، أو على دراجة، أو مشياً على الأقدام، وعيونهم تتبع الأعلام، والصعود إلى البيت المعلم، وبعد التأكد من الوفاة بالعين المجردة، دون استخدام أدوات، لأنه من المستحيل إجراء فحص عميق آخر بسبب السرعة، يتربكون ورقة موقعة يطمئنون بها وكمالات الدفن حول طبيعة المادة الأولية لهنتم، هذا يعني أنها إذا جاءت إلى هذا البيت الذي في حالة حداد للبحث عن أربن، فلن يكون ما تجده هرراً. وما صار بالإمكان إدراكه هو أن لفكرة استخدام العلم الوطني الحميـدة هدفاً مزدوجاً

وفائدة مزدوجة. فقد كانت دليلاً يوجه الأطباء، وستكون الآن منارة لمعابي الموتى. وفي حالة المدن الكبرى وخاصة العاصمة، وهي متروبول لا تتناسب ضخامتها من صغر حجم البلاد، جرى تقسيمها إلى قطاعات، من أجل إقرار الحصص النسبية للمشاركة في المهمة، مثلما قال بروح دققة رئيس جمعية وكالات الدفن عاثر الحظ، مما سهل بصورة هائلة مهمة ناقلية الحمولة البشرية في سباقهم مع الزمن. وكان هناك تأثير آخر للعلم الوطني، لم يُلحظ مسبقاً، ولم يكن متوقعاً، ولكنه أثبت إلى أي حد يمكن لنا أن نكون مخطئين عندما نتهمك في غرس شوكوك من النوع المنهجي، وتمثل ذلك في الحركة الفاضلة لعدد من المواطنين المحترمين ذوي التقاليد المتجددة بمراعاة العرف الاجتماعي، ومنمن ما زالوا يستخدمون القبعة، وذلك بالكشف عن رؤوسهم لدى المرور قبلة النوافذ المزينة بالرياحات، مخلفين بحركتهم تلك الشك المتعجب مما إذا كانوا يفعلون ذلك احتراماً للميت أم احتراماً لرمز الوطن الحي والمقدس.

أما الصحف، ولا حاجة إلى قول ذلك، فكانت محطة اهتمام كبير، بل أكبر مما كانت عليه عند ظهور خبر أنه لم يعد ثمة موت. هناك أعداد كبيرة من الناس تلقت من التلفزيون طبعاً أخبار انقلاب الأوضاع الذي حل بهم، بل كان لدى كثيرين منهم أقارب ميتون في البيت بانتظار الطبيب، وأعلام باكية على الشرفات، غير أنه من السهل تفهم وجود شيء من الاختلاف بين الصورة المتواترة لمدير عام يتكلم ليلة أمس من الشاشة، وهذه الصفحات المتشنجـة، الهائجة، الملطخة بعنوانين رئيسية صارخـة ومرعبة، والتي يمكن لها أن تُطوى، وأن توضع في الجيب وتُحمل إلى البيت لتُقرأ بكل اهتمام، وكذلك على ذلك نكتفي بأن نلتقط هنا عدداً محدوداً ولكنه معبـر من الأمثلة التي وردت في عنـاويـن الصحفـ، بعد النـعـيمـ، جاءـ الجـحـيمـ، الموـتـ هو

من يقود الرقصة، خالدون لوقت قصير، محكومون بالموت من جديد، كش مات، تنبية مسبق اعتباراً من الآن، بلا استئناف وباستثناء متزايد، ورقة بنفسجية اللون، اثنان وستون ألف ميت في أقل من ثانية واحدة، الموت ينقض في منتصف الليل، لا أحد يفلت من قدره، الخروج من الحلم للدخول في الكابوس، عودة إلى الحالة الطبيعية، ما الذي فعلناه لنستحق هذا كله، إلى آخره، إلى آخره. الصحف جميعها، بلا استثناء، نشرت على صفحاتها الأولى مخطوطة الموت، ولكن صحيفة منها، لتسهيل القراءة، استساخت النص في إطار بحرف قياس أربعة عشر، وصححت علامات الترقيم وال نحو بما يتاسب ووضع الألفاظ، ووضعت الحرف الكبير حيث يتوجب وضعه، دون نسيان توقيع الموت في ذيل الرسالة الذي تبدل من morte إلى Morte، وهو فرق لا يمكن للسمع تمييزه، ولكن سيسثير في هذا اليوم بالذات احتجاجاً ساخطاً من كاتبة الرسالة، وهو احتجاج خطّي وعلى الورق البنفسجي نفسه أيضاً. فالموت ببساطة - حسب رأي نحوي مخول استشارته الصحفية - لا يتقن أوليات فن الكتابة البدائية. فالخطأ، قال النحوي، غير منتظم بصورة غريبة، يبدو كما لو أنه قد اجتمعت فيه كافة أساليب الخط المعرفة، والمتحمّلة في رسم حروف الأبجدية اللاتينية، وكان كل حرف منها كتبه شخص مختلف، ولكن هذا يمكن غفرانه مع ذلك، يمكن اعتباره عيباً صغيراً حيال العيب الهائل في التراكيب النحوية المشوّشة، وغياب نقاط النهاية، وعدم استخدام أقواس الحصر الضرورية بالمطلق، والإلغاء المهووس للنقطة على السطر وبدء فقرة جديدة، ونشر الفواصل دون ضابط، وهناك الخطيئة التي لا تفتقر الممثلة بالإلغاء المتعمد وشبه الشيطاني لاستخدام الحرف الكبير، حتى إنه حُذف، ولاحظ ذلك، من توقيع الرسالة نفسه واستُبدل بالحرف الصغير الموافق. إنه شيء مُخجل، أمر استفزازي، واصل

النحوى وتساءل، إذا كان الموت الذى تتمتع فى ما مضى بامتياز مساعدة كبار عباقرة الأدب، يكتب بهذه الطريقة، فكيف لن يفعل ذلك غداً أطفالنا إذا ما خطر لهم محاكاة مثل هذه الفظاعة اللغوية تحت ذريعة أنه لا بد للموت، وهو الذى يجول هنا منذ أزمنة بعيدة، أن يعرف كل شيء عن كافة فروع المعرفة. وينتهي النحوى إلى القول، إن الأخطاء النحوية الفاحشة التي تملأ الرسالة المؤسفة تدفعنى إلى التفكير في أننا حيال خدعة عظيمة وفظة لولا كابة الواقع البالغة، والتجلی المؤلم لتحقق التهديد الرهيب. بعد ظهر ذلك اليوم بالذات، مثلما ذكرنا مقدماً، وصلت إلى مكاتب تحرير الجريدة رسالة من الموت يطالب، بكلمات أشد حماسة، بأن يُصحح اسمه فوراً، السيد المدير، كتب الموت، أنا لست *al Morte*، إنني بكل بساطة *al morte* لأن *al Morte* شيء لا يمكن أن تخطر ماهيته ولو كشبح لبالكم أنتم عشر البشر الذين لا تعرفون، وليدون النحوى ملاحظة بأننى أنا أيضاً أعرف أنكم، عشر البشر، لا تعرفون إلا هذا الموت الصغير، *al morte*، اليومي الذي هو أنا، هذا العاجز حتى في أسوأ الكوارث عن منع الحياة من الاستمرار، وستصلون ذات يوم إلى معرفة ما هو الموت الذي يبدأ بحرف كبير - *al Morte*. في تلك اللحظة، إذا ما منحكم هو الوقت لمعرفة ذلك، وهذا غير محتمل، فسوف تفهمون الفرق الحقيقي القائم بين ما هو نسبي وما هو مطلق، بين ما هو ممتنئ وما هو فارغ، بين ما لا يزال كائناً وإنعدام الكينونة، وعندما أتكلم عن اختلاف حقيقي فإنما أعني شيئاً لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه أبداً، نسبي، مطلق، ممتنئ، فارغ، لا يزال كائناً، إنعدام الكينونة، ما هذا أيها السيد المدير، فالكلمات، إذا كنت لا تعرف، تتحرك كثيراً، تتبدل من يوم إلى آخر، إنها غير مستقرة كالظلال، وهي نفسها ظلال، سواء أكانت موجودة أم تخلت عن وجودها، إنها

فقاعات صابون، حلزونات لا تكاد تسمع في التنفس، جذوع مقطوعة، وهنا أترك لك هذه المعلومات، إنها مجانية، لن أتقاضى شيئاً مقابلها، وفي أثناء ذلك اهتم بأن توضح جيداً لقرائك الـ «كيف» والـ «لماذا» حول الحياة والموت، وبعد هذه التوضيحات، نعود الآن إلى الهدف من هذه الرسالة، المكتوبة بخط يدي، وبالطريقة نفسها التي قرئت بها تلك في التلفزيون، فأدعوك على الفور إلى تنفيذ الترتيبات النziehه لقانون الصحافة الذي يقضي بتصوير الخطأ في المكان نفسه وبالخطوط نفسها التي شر بها الخطأ، أو السهو، أو الزلة المقصودة، وستجاذف حضرتك في هذه الحالة، ما لم تنشر رسالتي هذه بكمالها، بأن أرسل إليك، غداً بالذات، وبمفعول فوري، التبليغ المسبق الذي لم أكن قد حجزته لك إلا بعد سنوات، لن أخبرك بعدها كيلاً أملأ بالمرارة ما تبقى من حياتك، ودون أي شيء آخر، أوقع بالاهتمام المطلوب، موت.

ظهرت الرسالة بحذاييرها في اليوم التالي مع فيض من اعتذارات المدير، وكان ظهورها بصورة مزدوجة أيضاً، هذا يعني، الرسالة المخطوطة، وأخرى بحروف طباعية، بخط أربعة عشر ضمن إطار. وعند خروج الصحفية إلى الشارع فقط، تجرأ المدير على الخروج من الغرفة المحصنة التي حبس نفسه فيها بسبعة مفاتيح منذ اللحظة التي قرأ فيها رسالة التهديد. وكان لا يزال مذعوراً جداً إلى حد رفض معه نشر دراسة حول الخط سلمه إليها شخصياً أحد أهم المتخصصين في الموضوع. تكفيني المشاكل التي سببها لي نشر توقيع الموت بحرف كبير، قال، خذ تحليلك للخط إلى صحيفة أخرى، ولنجرِ تقاسم الشر بين القرى، وابتداء من الآن فليكن ما يشأه الرّب، وكل شيء إلا معاناة رعب مثل الذي مررتُ فيه. ذهب دارس الخطوط إلى جريدة، ثم إلى أخرى، وفي الجريدة الرابعة فقط، وكان على وشك أن يفقد

الأمل، تمكن من جعلهم يتلقون ثمرة ساعات غير قليلة من العمل المتأهيّ التي كرسها لإنجازه مستعيناً بعدها بمكّرة نهارية وليلية. وكان التقرير الجوهرى ووافر العصارة يبدأ بالذكرى بأن تحليل الكتابة، في أصوله، كان فرعاً من علم الفراسة، وأما أن الفروع الأخرى، لمعلومات من هو على غير دراية بهذا العلم الدقيق، هي المحاكاة، والإيمائية، والبانتوميم، والفنونجذمونيا، وأنّى بعد ذلك على ذكر أعظم المرجعيات في هذا الموضوع المعقد، وكل منهم في زمانه ومكانه، من أمثل، كاميلو بالدي، وجوهان كاسبار لافتير، وإدوارد أغوست باتريس هوّكارت، وأدولف هينز، وجان جين هيبلويت ميشون، وويليام شيري بريير، وسيزر لوبروس، وجول كرايبو يامين، ورودولف بوفال، ولودفعن كلافس، وفيلهيلم هيلموت مولير، وأليس إنسكات، وروبين هيس، الذين أعيد بفضلهم وضع أسس علم الاستدلال الخطى بمظهره النفسي وبإثبات ازدواجية معنى الخصائص الخطية وضرورة استيعاب تعبرها ككل إجمالي، وبعد عرض المعطيات التاريخية والأولية للمسألة، تقدم خبيرنا في الخطوط عبر ميدان التعريف المستفيض بمعالم الكتابة ما قبل الوعية، أي الحجم، الضغط، الدقة، التسقّي في المكان، الزوايا، التقسيط، التناسب بين الذيول العالية والواطئة للحروف، أي ما يمكن التعبير عنه بكلمات أخرى، الكثافة، الشكل، الميلان، اتجاه تواصل الرموز الخطية، وأخيراً، وبعد أن أوضح أن الهدف من دراسته لم يكن تشخيصياً إكلينيكياً، ولا تحليلًا للشخصية، ولا تفحصاً للأهلية المهنية، ركز الاختصاصي اهتمامه على الأدلة الواضحة المتعلقة بميدان علم الإجرام الذي تكشفه الدراسة في كل خطوة، ومع ذلك، يكتب بإحباط وحزن، أجد نفسي أمام تاقض لا أرى طريقة لحله، بل إنني أشك في وجود حل ممكّن له، فإذا كان صحيحاً أن كل

مؤشرات تحليل الخط المنهجية والدقيقة التي سبق وأشارت إليها تدل على أن صاحبة الكتابة هي ما يسمى serial killer، أي قاتل متسلسل، فإن حقيقة أخرى غير قابلة للدحض كذلك، وناتجة عن بحثي الدقيق، تطيح بطريقة ما بالأطروحة السابقة، وقد انتهت إلى فرض نفسها، وهي حقيقة أن الشخص الذي كتب هذه الرسالة ميت. هكذا كان الأمر عملياً، ولم يجد الموت نفسه بدأ من تأكيدِه، السيد اختصاصي الخطوط على صواب، هذه كانت كلماته بعد قراءته العرض المتبحر في العلم. إلا إنه من غير المفهوم، إذا كان الموت ميتاً، ومكوناً كلَّه من عظام، فكيف يمكن له أن يقتل. وأن يكتب رسائل فوق ذلك. هذه الأسرار لن تتضح أبداً.

انشغلنا بشرح ما حدث بعد ساعة شؤم الاثنين وسبعين ألفاً وخمسمئة وستين شخصاً الذين كانوا في حالة حياة معلقة، جعلنا نرجل إلى لحظة أخرى ملائمة أكثر، هي هذه اللحظة، التأملات التي لا بد منها حول الطريقة التي تلقت بها هذا التبدل في الوضع ببيوت الأفول السعيد، والمستشفيات، وشركات التأمين، والمافيا، والكنيسة، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية، لأنها تمثل الأغلبية في البلاد، إلى حدّ وجود اعتقاد شائع بأن السيد يسوع المسيح لن يختار مكاناً آخر يولد فيه إذا ما أتيح له إعادة الكُرَّة، من الألف حتى الياء، بوجوده الدنيوي الأول، ول يكن معلوماً أنه وجوده الوحيد المستمر حتى الآن. ففي بيوت الأفول السعيد، ولنبدأ بها، كانت المشاعر هي تلك التي يمكن توقعها. فإذا أخذ في الاعتبار أن تواصل حركة دوران النزلاء، مثلما شُرِح مع بدء هذه الأحداث المفاجئة، هو الشرط الملائم لازدهار المؤسسة اقتصادياً، فلا بد لعودة الموت من أن تكون، مثلاً حدث، سبباً لابتهاج الإدارات المعنية وتجدد آمالها. وبانقضاء الصدمة الأولية الناجمة عن قراءة الرسالة المشهورة في التلفزيون، بدأ المديرون

على الفور وضع افتراضات الحياة ووجدوا أنها كلها تخرج معهم رابحة. لم تكن قليلة زجاجات الشمبانيا التي شُربت في منتصف الليل للاحتفال بعودة الأمور غير المتوقعة إلى نصابها، وإذا بدا ذلك ذروة في عدم المبالغة بحياة الآخرين وازدرائهما، فإنه لم يكن، باختصار، سوى وجه آخر للراحة الطبيعية، للتفريج المشروع عن النفس من وضع أمام باب مغلق أضاع مفتاحه، ويراه الآن مشرعاً على مصراعيه، دون عراقيل، والشمس تشرق في الجانب الآخر. سيقول الموسوسون إنه كان عليهم على الأقل أن يتجنبو مباهة الشمبانيا الصاخبة والساذجة، السداداة التي تطير مفرقة، والرغوة التي تفيض متدفقة، وإن كأساً وقوراً من نبيذ أبورتو أو مايرا، أو قطرة كونياك، أو رشفة براندي مع القهوة، ستكون احتفالية أكثر من كافية، أما نحن، هنا، الذين نعرف جيداً السهولة التي تفلت بها الروح عنده الجسد عندما تتجاوز السعادة الحدود، فإننا نرى أنه حتى حين لا تتوجب التبرئة، يكون الصفح ممكناً على الدوام. في صباح اليوم التالي استدعى مسؤولو الإدارة أهالي النزلاء ليبحثوا عن الأجساد، وأمرروا بتهوية الغرف واستبدال الملاءات، وبعد أن جمعوا العاملين لإخبارهم بأن الحياة ستتواصل أخيراً، وجلسوا لتفحص قائمة طلبات الراغبين في الإقامة والاختيار من بين المتقدمين أولئك الذين يبدون واعدين أكثر من غيرهم. ولأسباب غير مطابقة من جميع الأوجه، ولكن لا اعتبارات مماثلة، كانت الحالة المعنوية لإداري المستشفيات قد تحسنت بين عشية وضحاها. مع أن قسماً كبيراً من المرضى، كما قلنا من قبل، ممن لا علاج لهم ووصلت أمراضهم إلى أقصاها وإلى درجتها الأخيرة إذا صح قول ذلك عن حالة مرضية أعلن عنها أنها أبدية، كانوا قد أعيدوا إلى بيوتهم، وفي أي أيد أفضل يمكن لأولئك المساكين أن يكونوا، كانوا يتساءلون بربأء، غير أن عدداً كبيراً ممن لا أقرباء معروفين لهم

ولا نقود لديهم يدفعونها مقابل ما تتطلبه الإقامة في دور الأفول السعيد، كانوا يتراكمون هناك في المرات، مثلاً هي العادة القديمة في أماكن الرعاية هذه، أمس، واليوم، ودائماً، وفي غرف مهملات، وفي أركان، وفي زوايا وعلّيات، كثيراً ما يتربكون فيها مهجورين لعدة أيام، دون أن يهتم أحد بذلك، إذ إنهم، كما كان يقول الأطباء والممرضون، لن يموتوا مهما ساءت أحوالهم. وهما الآن قد ماتوا، وأخرجوا من هناك ودُفنتوا، وصار هواء المستشفيات نقىًّا وبلورياً، يعيق بذلك الشذى المعروف من الأثير واليود والكريولين، كما في الجبال العالية، وتحت السماء المكشوفة. لم تُفتح زجاجات شمبانيا، ولكن ابتسامت سعادة مدير وإداري المستشفيات الخاصة كانت تمنح الراحة للنفوس، أما بالنسبة للأطباء، فيكفي القول إنهم قد استعادوا النظارات الملتهمة التي يلاحقون بها عاملات التمريض في قسم الإسعاف. إنها الأحوال العادبة وبالتالي وبكل معنى الكلمة. أما شركات التأمين، الثالثة في القائمة، فلا وجود في هذه اللحظات للكثير مما يمكن قوله، لأنها لم تتوصل بعد إلى الاتفاق حول إذا ما كان الوضع الراهن، على ضوء التغييرات التي أدخلت إلى بوالص التأمين على الحياة التي أشرنا إليها بالتفصيل من قبل، سيكون نافعاً أم ضاراً بمصالحها. وهي لن تقدم على أي خطوة قبل التأكد من رسوخ الأرض التي ستطئها، ولكنها عندما تخطو تلك الخطوة أخيراً، ستغرس هناك بالذات جذورها الجديدة على شكل عقد ستتوصل إلى ابتكاره ليكون ملائماً أكثر لمصالحها. وفي أثناء ذلك، ولأن المستقبل في يد الرب، وأنه لا يعرف ما الذي يحمله لنا الغد، فإنها ستواصل اعتبار جميع المؤمن عليهم ميتين عند بلوغهم سن الثمانين، وهذا العصفور على الأقل صار في اليد، وما عليهم إلا أن يروا إن كان بإمكانهم في الغد إيقاع عصفورين في الشبكة. ومع ذلك، سيكون

هناك من يستبق أنه ربما لن تكون بالفكرة السيئة أن تُرفع سن الموت التأميني إلى الخامسة والثمانين، وحتى إلى التسعين، باستغلال حالة الاضطراب المخيّمة على المجتمع الذي هو الآن، أكثر من أي وقت مضى، محشور بين السيف والجدار، بين إسيلا وكاربيديس، بين المطارق وفكوك الكمامات. والمسوغ العقلاني لمن دافعوا عن هذا التعديل كان شفافاً واضحاً كالماء، فهم يقولون إنه ببلوغ الأشخاص هذه السن، فضلاً عن أنه لا يكون لديهم، بصورة عامة، أقارب يساعدونهم في حالة الضرورة، أو يكون لهم أقرباء متقدمون في السن، وهو ما يعني الأمر نفسه، فإنهم يعانون من انخفاضات جدية في معاشات تقاعدهم نتيجة التضخم وارتفاع تكاليف الحياة المتزايد، وهو وضع يجعلهم في حالات كثيرة جداً مضطربين إلى وقف أقساط التأمين المتوجبة عليهم، فيوفرون بذلك لشركات التأمين أفضل المسوغات لاعتبار عقودهم ملغاة وباطلة المفعول. هذا تصرف غير إنساني، اعترض البعض. الأعمال هي الأعمال، رد آخرون. ولسوف نرى كيف سينتهي هذا.

المافيا هي المؤسسة التي كان يدور الحديث بكثرة في هذه الأوقات عن الأعمال والصفقات. وربما لأن الوصف المقدم في هذه الصفحات كان مفرطاً في عرض التفاصيل، وتنقبل ذلك دون تحفظ، عن السراريب القائمة التي توغلت فيها المنظمة الإجرامية في الاستغلال الجنائي، فإنه يمكن لأحد القراء أن يكون قد فكر في هذه المافيا التافهة التي لم تجد طريقة أخرى لكسب المال بقدر أقل بكثير من الجهد وجنى أرباح أكبر بكثير. لقد كان لدى المافيا المحلية تلك الطرق المتوعة، مثل منظمات جنسها الأخرى المنتشرة في ستة أجزاء العالم، ولكنها بالغة البراعة في موازنة التكتيكات والاستراتيجيات وإمكاناتها المشتركة، ولا تكتفي بالراهنة بصورة

تافهة على الريح السريع، لأن أهدافها أكثر اتساعاً بكثير، فهي تتطلع إلى الخلود، بمعنى أن تتوصل بانحراف الأسر الضمني وبرحمة الموت الرحيم، مع مباركة السلطة السياسية التي تتظاهر بالنظر إلى جهة أخرى، إلى فرض احتكارها المطلق على موت ودفن الكائنات البشرية، وأن تتولى في خطوة واحدة مسؤولية الحفاظ على الكثافة السكانية عند المستويات المناسبة للبلاد في كل لحظة، بأن تفتح أو تغلق الصنبور، وفق الصورة المستخدمة سابقاً، أو التحكم بمقاييس التضخم إذا استخدمنا كلمة أكثر صرامة تقنية. وإن هي لم تكن قادرة، في هذه المرحلة الأولى على الأقل، على تتشيط أو إبطاء التكاثر، فسيكون في يدها على الأقل تسريع أو تأخير الرحلات إلى الحدود، ولا يعني هنا الحدود الجغرافية، وإنما حدود الأبدية. وفي لحظة دخولنا القاعة بالضبط، كان النقاش يتركز على الطريقة المثلث لإعادة تفعيل القوى العاملة التي تعطلت مع عودة الموت، وتوظيفها في نشاطات مجرية، وإذا كان صحيحاً أن اقتراحات كثيرة كانت معروضة على المائدة، بعضها أكثر جذرية من الأخرى، إلا أن الأمر انتهى إلى تفضيل الاقتراح الذي يتمتع بتاريخ طويل من الخبرة لأنه لا يحتاج إلى تجهيزات معقدة، ويعني به تأمين الحماية. وفور بدء اليوم التالي، شهدت الوكالات الجنائزية في كل أنحاء البلاد، من الشمال إلى الجنوب، دخول شخصين عبر الباب، هما رجلان في معظم الحالات، أو رجل وامرأة في بعض الحالات، أو امرأتان في حالات نادرة، يسألان بأدب شديد عن المدير، ثم يشرحان له بعد ذلك بأفضل السبل أن مؤسسته معرضة لخطر المهاجمة أو حتى التدمير بقنبلة، أو الإلحرق، على يد ناشطين من بعض جمعيات المواطنين غير الشرعية التي كانت تطالب بتضمين الحق بالخلود في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، وتسعى هذه الجمعيات الآن، بعد أن أُصيبت بالإحباط، إلى

التفريج عن غضبها بإعمال ذراع الانتقام الثقيلة ضد مؤسسات بريئة مجرد أنها كانت المسئولة عن نقل الجثث إلى منزلها الأخير. إننا مطلعون ولدينا معلومات، يقول أحد المبعوثين، بأن أعمال التخريب مؤكدة، وأنها يمكن أن تصل، في حالة مقاومتها، إلى اغتيال المالك والمدير وأفراد أسرتهما، وفي حال غيابهما اغتيال موظف أو اثنين، وستبدأ هذه العمليات يوم غد بالتحديد، ربما في هذا الحي بالذات، أو في حي آخر، وما الذي يمكنني عمله، يسأل المدير المسكين مرتجفاً، لا شيء، أنت لا يمكنك عمل أي شيء، أما نحن فنستطيع الدفاع عنك إذا طلبت منا ذلك، طبعاً أنا موافق، أطلب الحماية بالطبع، أرجوكم، هنالك شروط لقبول طلبك، مما كانت الشروط، أرجوكم، وفروا لي الحماية، الشرط الأول هو ألا تتحدث في هذا الموضوع مع أحد، ولا حتى مع زوجتك، لست متزوجاً، لا فرق، مع أمك، مع جدتك، مع خالتك، لن يفتح فمي، هذا أفضل لك، لأنك إذا فتحته تجازف بأن يُغلق إلى الأبد، وما هي الشروط الأخرى، شرط واحد فقط، تدفع ما تطلبه منك، دفع، سيكون علينا أن نرتب عمليات الحماية، وهذا يكلف أموالاً يا سيد العزيز، إنفهم ذلك، يمكن لنا حماية البشرية كلها إذا كانت مستعدة لدفع الثمن، ولكن، بما أنه بعد كل زمن يأتي زمن آخر، فإننا لم نفقد الأمل بعد، ألاحظ ذلك، لحسن الحظ أنك سريع الملاحظة، كم يتوجب علي أن أدفع، المبلغ مدون على هذه الورقة، كل هذا المال، إنه المبلغ الدقيق بالضبط، وهذا يتوجب دفعه سنوياً أم شهرياً، بل أسبوعياً، هذا كثير على إمكاناتي، فبتجارة الجنائز لا يغتنى المرء بسهولة، إنك محظوظ لأننا لم نطلب منك ما تساويه حياتك حسب رأيك، هذا طبيعي، فانا لا أملك حياة أخرى، لن تمتلكها، ولهذا نوجه إليك النصيحة بأن تحاول حمايتها، سأفكـر في الأمر، لا بد لي من

الباحث مع شركائي، فمنحك أربعاءً وعشرين ساعة، دون زيادة دقيقة واحدة، وبعدها نغسل أيدينا، وستكون المسؤولية كلها على عاتقك، فإذا ما تعرضت لحادث، ونحن واثقون من أنه لن يكون قاتلاً، لأنه سيكون الأول، فربما سنعود عندئذ للتحدث معك، ولكن السعر سيتضاعف، وحينئذ لن يكون لديك حل آخر سوى دفع ما نطلب، لا يمكنك تخيل مدى تصلب جمعيات المواطنين تلك المطالبة بالخلود، لا بأس، سأدفع، أربعة أسابيع مقدماً من فضلك، أربعة أسابيع، حالتك من الحالات المستعجلة، ومثلاً قلنا لك، ترتيبات أعمال الحماية مكلفة، وهل سيكون الدفع نقداً أم بشيك، نقداً، فالشيكات لصفقات من نوع آخر ومساندات أخرى، عندما لا يكون ملائماً انتقال الأموال مباشرة من يد إلى أخرى. فتح المدير صندوق الخزنة، وعد النقود، ثم سأله وهو يسلمها، ألن تقدموا لي إيصالاً، وثيقة تضمن لي الحماية، لا إيصال ولا ضمانات، عليك أن تكتفي بكلمة الشرف التي نقدمها إليك، كلمة شرف، بالضبط، كلمة شرف، فأنت لا تعرف إلى أي حدّ نحترم كلمتنا، وأين يمكنني أن أجدهم إذا ما تعرضت لمشكلة، لا تقلق، نحن سنجدك، هل أراقبكم حتى المخرج، لا حاجة إلى ذلك، فنحن نعرف الطريق، الانعطاف يساراً بعد مستو دع النuoush، فالى قاعة تجميل الجثث، ثم ممر، فقاعه الاستقبال، ويظهر على الفور الباب المؤدي إلى الشارع، لا يمكن أن تضيعوا، لدينا حس توجه مرهف جداً، لا نضل الطريق أبداً، فعلى سبيل المثال، في الأسبوع الخامس التالي لهذا الأسبوع سيأتيك شخص ليقبض المبلغ الأسبوعي، وكيف سأعرف أنه الشخص الصحيح، لن يخامرك أي شك حين تراه، طاب مساؤكم، طاب مساؤك، ولا حاجة بك لأن تشكرنا على أي شيء.

وأخيراً، أخيراً وليس آخراً، كان لدى الكنيسة الكاثوليكية

الرسولية الرومانية أسباب كثيرة لترضى عن نفسها. فقد كانت مقتنعة منذ البداية بأن إبطال الموت لا يمكن له أن يكون إلا من عمل الشيطان، وأنه من أجل مساعدة الرب ضد الأعمال الشيطانية لا شيء أقوى من المثابرة على التمجيد، فوضعت جانباً فضيلة التواضع التي رعتها بانتظام ليس بالقليل من الجهد والتضحية، من أجل أن تسهل، دون تحفظ، الحملة الوطنية لصلوات كان هدفها، نذكر بذلك، التضرع إلى الرب بأن يتلطف ويعيد الموت بأسرع ما يمكن للتوفير على البشرية البائسة أسوأ الكوارث الرهيبة، نهاية الاقتباس. تأخرت الصلوات حوالي ثمانية شهور للوصول إلى السماء، إنما علينا أن نتذكر أننا نحتاج إلى ستة شهور من أجل الوصول إلى كوكب المريخ فقط، والسماء لا بد أن تكون بعده بكتير، كما يمكن تخيل ذلك بسهولة، فهي على بعد ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية عن الأرض، بأرقام صحيحة. لقد كان في رضا الكنيسة مع ذلك ظل من السواد. فقد كان اللاهوتيون يجادلون، ولا يتوصلون إلى اتفاق، حول الأسباب التي دفعت الرب إلى الأمر بعودة الموت المفاجئة، دون توفير الوقت ولو لتقديم المسحة الأخيرة لستين ألف محضر الذين، بحرمانهم من السر المقدس الأخير، ماتوا بأسرع من الوقت الذي يتطلبه قول ذلك. الشك حول إذا ما كانت للرب سلطة على الموت، أم أن الموت، على العكس من ذلك، هو الأعلى مرتبة من الرب، كان يعذب خفية أذهان وقلوب المؤسسة المقدسة، حيث اعتبر ذلك التأكيد الجريء القائل إن الرب والموت هما وجهان للعملة نفسها، أكثر من هرطقة، وتدليس مقين لل المقدسات. هذا ما كان يدور في الداخل. أما أمام عيون العالم فإن ما كان يقلق الكنيسة حقاً هو مشاركتها في جنازة الملكة الأم. فالآن وقد رقد الاثنين وستون ألف ميت عادي في مستقرهم الأخير وما عادوا يعرقلون حركة المرور في المدينة، حانت ساعة نقل السيدة المجلة،

محفوظة بصورة مناسبة في تابوتها المصنوع من الرصاص، إلى المدافن الملكية. ومثلما لم تنس الصحف أن تقول، جرى قلب صفحة من التاريخ.

من المحتمل أن تربية متقدة فقط، من تلك التي صارت نادرة، وبما يكون، في الوقت ذاته، الاحترام المتظير إلى هذا الحد أو ذاك الذي تبئه الكلمة المكتوبة في النفوس الهمية، هو الذي حمل القراء - وإن كانت لا تقصهم الأسباب لإظهار إشارات واضحة إلى صبرهم المكبوح - على عدم مقاطعة ما رحنا نرويه باستفاضة، ورغبتهم في أن يخبرهم بما كان يفعله الموت منذ الليلة المشوومة التي أعلن فيها عن عودته. ونظراً لأهمية الدور الذي تولته في هذه الأحداث غير المسبوقة دور الأفول السعيد، والمستشفيات، وشركات التأمين، والمافيا، والكنيسة الكاثوليكية، فقد أحسنا صنعاً بتوسيع وافر التفاصيل لما كان عليه ردهم على تبدل الوضع المفاجئ والدراميكي، ومع ذلك، لو لا أن الموت، مع الأخذ في الاعتبار كمية المتوفين الهائلة التي يتوجب دفنتها في الساعات التالية مباشرة، قد قرر في إيماءة غير متوقعة وجديرة بالثناء، أن يطيل تغيبه لبضعة أيام إضافية لإنارة الوقت للحياة كي تدور حول محاورها القديمة، كان لا بد لأناس متوفين آخرين، في الأيام الأولى لعودة النظام، من أن ينضموا إلى التعساء الذين عاشوا لشهور حياة بائسة متراجحين بين هنا وهناك، وكان علينا، كما يفرض المنطق، أن نتحدث عن هؤلاء الموتى. ولكن ذلك لم يحدث، فالموت لم يكن كريماً جداً. والسبب في عطلة الأيام الثمانية التي لم يتم فيها أحد وبدأ ينتشر الوهم السعيد بأن شيئاً لم يتبدل، إنما هو القواعد الحالية للعلاقة الحالية بين الموت والبشر

الفنانين، أي قاعدة أن كل شخص سيتلقى إشعاراً مسبقاً بأن لديه أسبوعاً من الحياة قبل انتهاء مهلة الكمبيالة مستحقة الدفع، إذا صحت هذه الطريقة في القول، ليحل قضيابه، وبعد وصيته، ويدفع الضرائب المتأخرة، ويودع الأسرة والأصدقاء المقربين. هذه النظرية تبدو فكرة جيدة، ولكن الممارسة لن تثبت أن أنها ليست بتلك الجودة. فلنتخيل شخصاً، من أولئك الذين يتمتعون بصحة رائعة، ومن لم يشعروا قط بأي ألم في الرأس، من المتفائلين من حيث المبدأ، ولأسباب واضحة وموضوعية، ومع ذلك، لدى خروجه ذات صباح من بيته إلى العمل، يجد في الشارع ساعي بريد المنطقة النشيط يقول له، لحسن الحظ أنتي رأيتكم يا سيد فلان، فأنا أحمل رسالة لك، وعلى الفور يظهر بين يديه مغلف بنفسمجي ربما لا يستثير اهتماماً خاصاً في البدء، إذ يمكن أن يكون سفاهة أخرى من سادة الدعاية المباشرة، لولا الخط الغريب الذي كتب به اسمه، الشبيه بخط الفاكس الشهير الذي ظهر في الجريدة. فإذا ألمت بقلبه طفرة ذعر، وإذا ما داهمه هاجس مأتمي بمصيبة لا مفر منها، ويريد وبالتالي أن يرفض استلام الرسالة، فإنه لن يستطيع ذلك، وسيكون عندئذ كما لو أن أحداً يثبته برفق من ذراعه، يساعده على نزول درج، وعلى تجنيب قدمه قشرة موز على الأرض، وعلى الانعطاف في الناصية دون التعثر بقدميه. ولن يفيد كذلك تمزيق الرسالة إلى نتف صغيرة، فمن المعروف أن رسائل الموت في التعريف غير قابلة للإتلاف، ولا يمكن لنفخة لهب من غاز الأسيتيلين بأقصى طاقتها أن تخترقها، كما أن الحيلة الساذجة بالاظهار بأنها سقطت من يده ستكون غير مجدية أيضاً، لأن الرسالة لا تتيح له إفلاتها، تظل كما لو أنها ملتصقة بأصابعه، وإذا ما أمكن لعكس ذلك أن يحدث بمعجزة، فمن المعروف جيداً أن مواطناً طيب الإرادة سيظهر فجأة ليلتقط الرسالة عن الأرض ويركض في إثر

الساهي الزائف قائلًا له، أظن أن هذه الرسالة لك، وربما تكون ذات أهمية، فيتوجب عليه عندئذ أن يرد بكتابة، أجل، إنها مهمة، شكرًا جزيلاً للطفك. مع أنه يمكن لهذا كله أن يكون قد حدث في البداية فقط، عندما كان قلة هم الذين يعرفون أن الموت يستخدم خدمة البريد العام كمراسل لأغراضه المأتمية. وخلال أيام قليلة، سيتحول اللون البنفسجي إلى الأكثر مقتاً بين الألوان كلها، حتى يصير مكروهاً أكثر من الأسود، بالرغم من أن هذا اللون يعني الحداد، وهو ما يمكن تفهمه بسهولة إذا ما فكرنا في أن الحداد لباس يرتديه الأحياء وليس الأموات، حتى عندما يُدفن هؤلاء ببدلات سوداء. تصوروا اضطراب وارتباك من هو ذاهم إلى عمله ويرى فجأة كيف يخرج له الموت بهيئة ساعي بريد لا يطرق الباب مرتين أبداً، لأنه إذا لم تُقْدِه المصادفة إلى الالتقاء بالمرسل إليه في الشارع، فإنه يكتفي بدس الرسالة في صندوق البريد البيتي للشخص المعنى، أو إدخالها من تحت الباب. الرجل يقف هناك ثابتاً، وسط الرصيف، بصحته الرائعة، ورأسه المتين، وهو متين إلى حد لا يؤلمه معه حتى في هذه اللحظة على الرغم من الصدمة الرهيبة، وفجأة لم يعد العالم ينتمي إليه أو لم يعد هو ينتمي إلى العالم، وصار كل منهما معاراً إلى الآخر لمدة ثمانية أيام، ثمانية أيام وحسب، هذا ما تقوله الرسالة البنفسجية التي أذعن لتسلّمها للتو، العينان غائمتان بالدموع، ويُكاد لا يتمكن من حل الرموز المكتوبة، عزيزي السيد، يؤسفني إخبارك أن حياتك ستنتهي خلال مهلة الأسبوع التي لا رجوع عنها وغير القابلة للتهديد، فاستغل بأفضل ما تستطيع الوقت المتبقى لك، خادمتك المخلصة، موت<sup>(١)</sup>.

---

<sup>(١)</sup> لا بد من الإشارة إلى أن كلمة موت morte بلغة المؤلف مؤنثة، كما أن التقاليد الشعبية تقدم الموت على هيئة هيكل عظمي لامرأة تحمل منجلًا طويلاً الذراع، ولهذا سنعتمد في بعض الأحيان إلى استخدام كلمة منية المؤنثة، حين تقضي الضرورة.

التوقيع يبدأ بحرف صغير، وهو ما يمثل بطريقة ما، كما نعرف، ضمانة المصدر. يتعدد الرجل، فقد ناداه ساعي البريد باسمه، وساعي البريد من الجنس المذكر، وفي يوم ما سنتأكد من ذلك نحن بالذات. يتعدد الرجل حول إذا ما كان عليه الرجوع إلى البيت والتفريج عن نفسه مع أسرته بشأن ذلك الحكم الذي لا رجعة عنه، أم عليه أن يتبع دموعه ويواصل طريقه، يذهب إلى حيث ينتظره العمل، ويكمel كل الأيام المتبقية له، وعندئذ يمكنه أن يسأل، أيها الموت، أين هو انتصارك، مع أنه يعلم أنه لن يتلقى جواباً، لأن الموت لا يرد أبداً، وليس ذلك لأنه لا يريد الرد، وإنما مجرد أنه لا يعرف ما الذي يقوله في مواجهة أشد ألم إنساني.

هذا الحدث في الشارع، غير الممكن إلا في بلد صغير يعرف الجميع فيه بعضهم بعضاً، أكثر من بلغ حول عدم مناسبة نظام الاتصال الذي أقامه الموت من أجل فسخ العقد الزمني غير المكتوب، الذي نسميه حياة أو وجوداً. يمكن له أن يكون مظهراً سادي القسوة، مثل تلك المظاهر الكثيرة التي نراها كل يوم، غير أن الموت ليس بحاجة لأن يكون قاسياً، لأن ما يقوم به من انتزاع حياة الأشخاص يكفي ويزيد. إنه لم يفكر في الأمر، هذا كل ما هنالك. والآن، بينما هو مستغرق في تنظيم خدماته الداعمة، بعد توقف طويل دام سبعة شهور، لم تعد لديه عيون ولا آذان تتتبه لصرخات يأس وغم الرجال والنساء الذين تصلهم، واحداً فواحداً، إشعارات موتهم الوشيك، يأس وغم يكون لهما، في بعض الحالات، تأثيرات معاكسة لما جرى توقعه مسبقاً، هذا يعني أن الأشخاص المحكوم عليهم بالاختفاء لا يحلون مشاكلهم، ولا يُعدون وصيّتهم، ولا يدفعون الضرائب المدينين بها، أما بالنسبة لوداع الأسرة والأصدقاء المقربين، فكانوا يتركونه حتى اللحظة الأخيرة، أي ما لا يكفي، كما هو

واضح، لأكثر الوداعات كآبة. ولضاللة معلوماتها حول طبيعة الموت، واسمها الآخر القدر، تمادت الصحف في هجمات غاضبة ضد المنية، واتهامها بأنها عديمة الرحمة، قاسية، طاغية، شريرة، دموية، مصادصة دماء، إمبراطورة الشر، دراكولا بتوره، عدوة الجنس البشري، غادرة، سفاحه، serial killer، بل كانت هناك أسبوعية، من مجلات الفكاهة، وبعد عصر كل ما لدى مبدعيها من سخرية، توصلت إلى تسميتها ابنة العاهرة. ولحسن الحظ أن الحس السليم كان لا يزال موجوداً في تحرير بعض الصحف. فإذاً أكثر الجرائد احتراماً في المملكة، وعميدة الصحافة الوطنية، نشرت افتتاحية رصينة دعت فيها إلى حوار مفتوح وصريح مع الموت، دون تحفظات ذهنية، وبقلب على راحة اليد، وروح أخوية، في حالة تم التوصل، كما هو جلي، إلى اكتشاف مأواه، جحره، وكرهه، مقره العام. واقترحت صحيفة أخرى على السلطات الشرطية أن تتحرى في المكتبات ومصانع الورق، لأن مستخدمي الملفات البنفسجية من البشر، إن وجدوا، لا بد أن يكونوا قلة ضئيلة، ولا بد أن يكون ذوقهم الرسائل قد تبدل بالنظر إلى الظروف الأخيرة، وبهذا سيكون من السهل اصطياد الزبون القبوري عندما يأتي ليتمون من جديد. صحيفة أخرى، وهي خصم عنيد للأخيرة، سارعت إلى تصنيف الفكرة بأنها غباء مطبق، لأنه لا يمكن أن يخطر إلا لأبله كامل أن المنية، وهي هيكل عظمي ملتف بملاءة مثلاً يعرف الجميع، ستخرج بقدميها، مقطقطة بكمبيها على حجارة الشارع، وتذهب إلى مركز البريد لترسل الرسائل. ولم يشا التلفزيون أن يتخلّف عن الصحف، ففتح وزير الداخلية بنشر عملاء حراسة عند الصناديق والعلب البريدية، متناسياً كما يبدو أن الرسالة الأولى التي وجهت إليهم إنما ظهرت في مكتب المدير العام الذي كان بابه مقفلًا بلفتيّ مفتاح،

وكان زجاج النوافذ سليماً. كما أنه لا وجود في الأرضية أو الجدران أو السقف ولو مجرد شق بسيط يتسع لمرور شفرة حلاقة. ربما كان ممكناً بالفعل إقناع الموت بمعاملة المحكومين التعساء بمزيد من الشفقة، ولكن ذلك يتطلب بالضرورة البدء بالعثور عليه، وليس هناك من يعرف كيف أو أين.

وكان عندئذ أن خطرت لطبيب شرعي، وهو شخص مطلع على كل ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمهنته، خطرت له فكرة الطلب بأن يؤتى من الخارج بخبير مشهور في إعادة بناء الرفات بالاستناد إلى الجمجمة، كي يحاول الخبير المذكور، انطلاقاً من تمثيل المنية في رسوم وأعمال غرافيك قديمة، وخاصة تلك التي ظهرت الجمجمة مكشوفة، أن يعيد ترميم الجمجمة في الموضع التي تحتاج إلى ترميم، وإعادة ضبط العينين في المحجرين، وأن يوزع الشعر والأهداب وال حاجبين بنسب ملائمة، وينشر على الوجه الألوان المناسبة، إلى أن يظهر أمامه الرأس المكتمل والناجز الذي ستصنع منه ألف نسخة فوتوغرافية يحملها عدد مماثل من التحريين في محافظهم ليقارنوها مع كل ما يقابلونه من الوجوه النسائية. السيئ في الأمر هو أنه بعد انتهاء مداخلة الخبير الأجنبي، لم يكن بمقدور سوى عين غير مدربة أن تتقبل تماثل الجمامجم الثلاث المختارة، مما يضطر التحريين وبالتالي إلى العمل على ثلاثة صور بدل صورة واحدة، وهو ما يصعب مهمة اصطياد المنية، وهذه هي التسمية الطموحة التي أطلقت على العملية. أمر وحيد تأكّد دون أي نوع من الشك، فأشد الإيقونات بدائية، وأشد الرسوم التوضيحية اختلاطاً، وأشد الرسوم الرمزية غموضاً لم تخطئ جميعها. فالموت، بكل ملامحه، سماته المميزة، وخصائصه، هو امرأة بصورة لا تقبل الجدل. وإلى هذه النتيجة نفسها، كما تذكرون دون شك، كان قد توصل خبير الخطوط الذي درس

مخطوطة الرسالة الأولى عندما أشار إلى صاحبتها، وليس إلى صاحبها، غير أن هذا يمكن أن يكون مجرد نتيجة للعادة اللغوية، ذلك أن الموت كان على الدوام اسم علم مؤنث، باستثناء بعض اللغات القليلة التي فضلت، لسبب غير معروف، اختيار الجنس المذكر أو المحايد. ومع أن هذه المعلومات قد قدمت من قبل، فإنه من المناسب، من أجل عدم النسيان، التأكيد على أن الوجوه الثلاثة بالرغم من أنها كانت جميعها لنساء، ولنساء شابات، إلا أنهن كن مختلفات في بعض النقاط المحددة، على الرغم في الوقت نفسه من نقاط التشابه الجلية التي يمكن الإجماع في التعرف عليها. وأنه من غير المعقول وجود ثلاث منيات مختلفة، تعمل بالتناوب، فلا بد من استبعاد اثنين منها، مع أنه من الممكن أيضاً، ومن أجل زيادة في تعقيد الوضع، أن يكون نموذج الهيكل العظمي الحقيقي والواقعي للموت لا يتفق مع أي من الهياكل العظمية الثلاثة التي جرى اختيارها. ووفقاً للجملة المعروفة، سيكون ذلك كإطلاق رصاصة في الظلام والثقة بأن المصادفة الطيبة ستجد الوقت الكافي لتضع الهدف في مسار الرصاصة.

بدأت التحريات، كما لا يمكن بطريقة أخرى، في أرشيف خدمات التحري الرسمية حيث تجتمع، مصنفة ومرتبة حسب السمات الأساسية، ذورو الرؤوس المستطيلة في جانب، وذورو الرؤوس القصيرة في الجانب الآخر، صور جميع سكان البلاد، الوطنيين منهم والأجانب. كانت النتائج مخيبة للأمال. ولا بد أن يكون واضحاً منذ البدء، أن النماذج المختارة لترميم الوجه، مثلما أشرنا سابقاً، إنما أخذت من أعمال جرافيك ورسم قديمة، ومن غير المتوقع وبالتالي العثور على صورة بشرية للموت في أنظمة تحديد الهوية الحديثة التي أقرت منذ أكثر من قرن بقليل، ولكننا إذا ما أخذنا بالاعتبار، من ناحية

أخرى، أن الموت نفسه موجود منذ الأزل ولا يُلمح وجود أي سبب يضطره إلى تغيير وجهه على امتداد الأزمنة، دون نسيان أنه لا بد أن يكون من الصعب عليه إنجاز عمله بطريقة تامة إذا ما كان يعيش في السرية، فمن المنطقي تماماً تقبل فرضية أنه قد سُجل في السجل تحت اسم مزيف، ذلك أنه لا يوجد شيء مستحيل، كما هو معروف، على الموت. ومهما يكن من أمر، فالصحيح أنه على الرغم من أن التحريرات قد لجأت إلى مواهب الفنون المعلوماتية ومقاطعة المعلومات، فإن أيّاً من صور النساء المحدّدات الهوية لم تتطابق مع أيّ من صور الموت الافتراضية الثلاث. ولم يعد هناك مفر إذاً من العودة إلى أساليب التحقيق التقليدية، وهو ما كان قد أخذ في الحسبان في حالة الضرورة، إلى أساليب حرفية القص واللصق البوليسيّة، وذلك بأن يُشر الألف شرطي في كافة أنحاء البلاد، وأن يتقدّموا من بيت لبيت، ومن متجر لمتجّر، ومن مكتب لمكتب، ومن مصنع لمصنع، ومن مطعم لمطعم، ومن بار لبار، بما في ذلك الأماكن المخصصة للممارسات الجنسية الباهظة، مزودين بصلاحية استعراض النساء جميعهن، باستثناء المراهقات والمتقدّمات في السن أو الناضجات، ذلك لأن الصور التي يحملونها في جيوبهم لا تترك مجالاً للشك في أن المنية، إذا ما حدث وعُثر عليها، ستكون امرأة في حوالي السادسة والثلاثين من العمر، وباهرة الجمال كما هن قليلاً. ووفقاً للنموذج الذي تم التوصل إليه، يمكن لأيّ واحدة أن تكون المنية، ولكن أيّاً منها لم تكن هي المنية مع ذلك. وبعد جهود مضنية، بعد التخبّط لفراش وفراش في الشوارع، والطرق العامة والدروب، وبعد صعود أدراج إذا ما جُمعت معاً توصّلهم إلى السماء، تمكّن التحريريون من تحديد اثنتين من هؤلاء النساء، وإذا كانتا تختلفان قليلاً عن الصور الموجودة في الأرشيف فإنما السبب في ذلك هو أنهما استفادتا من مداخلات

جراحية تجميلية أبرزت، بتوافق مذهل، وبمصادفة غريبة، من أوجه الشبه بين وجهيهما ووجوه النماذج الثلاثة التي جرى ترميمها. ومع ذلك، فإن فحصاً دقيقاً لسيرتي حياتهما ألغى، دون أي هامش خطأ، أية إمكانية في أن تكونا قد كرستا يوماً واحداً من حياتهما، ولا حتى في ساعات فراغهما، لنشاطات مقص باركاً الميتة، لا كمحترفين ولا ك مجرد هاويتين. أما المرأة الثالثة التي جرى تحديد هويتها بفضل ألبوم الصور العائلية، فكانت قد ماتت في العام الفائت. وباستبعاد بسيط للتفاصيل، ما كان يمكن لها أن تكون الموت الذي كانت هي نفسها ضحية له. ويبدو من غير الضروري القول إنه بينما كانت التحريرات تجري، وقد استمرت بضعة أسابيع، واصلت المغلفات البنفسجية الوصول إلى بيوت المرسل إليهم. وكان واضحًا أن الموت لم يتراجع عن التزامه للبشرية.

كان من الطبيعي التساؤل عما إذا كانت الحكومة تشهد سلبية المأساة اليومية التي يعيشها عشرة ملايين نسمة من أهالي البلاد. والجواب مزدوج، تأكيدی من جانب، سلبي من جانب آخر. تأكيدی، وإن يكن بمعايير نسبية فقط، لأن الموت في نهاية المطاف هو من أكثر الأمور عادية وطبيعية في الحياة، إنه مسألة روتينية محضة، حدث متواتر بلا نهاية من الآباء إلى الأبناء، منذ زمن آدم وحواء على الأقل، وتسيء حكومات العالم بأسره إلى الطمأنينة العامة المستتبة إذا ما أعلنت عن ثلاثة أيام حداد وطني كلما توفي عجوز هرم في مأوى للمعوزين. وهو سلبي لأنه من غير الممكن، ولو بامتلاك قلب من حجر، البقاء دون مبالغة حيال الدليل الملموس بأن أسبوع الانتظار الذي أقره الموت قد اتخاذ أبعاد نكبة جماعية حقيقة، ليس فقط لمتوسط الثلاثمئة شخص الذين يطرق سوء الحظ بابهم يومياً، وإنما كذلك لبقية الناس، لا أقل ولا أكثر من تسعة ملايين وتسعمئة وتسعمائة

وتسعين ألفاً وسبعمائة شخص من كافة الأعمار والحظوظ والظروف يرون في كل صباح، بعد الاستيقاظ من ليلية معدنة بأشد الكوابيس رعباً، سيف ديموقليس معلقاً بخيط فوق رؤوسهم. أما الثلاثمائة نسمة الذين تلقوا رسالة الشؤم البنفسجية، فإن كيفية رد فعلهم على الحكم المبرم كانت متعدة، كما هو منطقي، حسب شخصية كل منهم وطبيعته. ففضلاً عن أولئك الأشخاص الذين ذكرناهم سابقاً، والمدفوعين بفكرة مشوهة عن الانتقام الذي يمكن القول إنه يكتسب معنى جديداً قبل الموت، فمن قرروا عدم إنجاز واجباتهم المواطنية والأسرية، فلم يعدوا وصية ولم يدفعوا ضرائبهم المتأخرة، كان هناك أشخاص كثيرون آخرون وضعوا موضع الممارسة تفسيراً أشد رذيلة من شيطان هوراس، فبددوا الوقت القليل المتبقى لهم في الحياة باستسلامهم لحفلات مجون جنسي ومخدرات وكحول مستتركة، وربما كانوا يفكرون في أنه يمكن لهم، باقتصار هذا الشطط المفرط، أن يجتنبوا إلى رؤوسهم انهياراً صاعقاً، وإذا تعذر ذلك، فصاعقة إلهية تقتلهم هناك بالذات وتحررهم من براثن تلك المنية، فيلعنون معها بذلك لعبة خبيثة ربما تتفع كتعويض. وهناك أشخاص آخرون، رابطاً الجأش، جديرون، شجعان، اختاروا جذرية الانتحار المطلقة، معقددين أيضاً بأنهم يقدمون بهذه الطريقة درساً في التمدن لقوة كثرين، وهذا ما كان نسميه قدماً بالصفعة دون يد وكانت أشد إيلاماً، وفق قناعات ذلك العصر النزيحة، لأنها كانت تستند إلى العرف الأخلاقي والمعنوي وليس إلى حركة جهد جسدي أولي. علينا أن نقول إن جميع تلك المحاولات قد أخفقت، باستثناء بعض الأشخاص العنيدين الذين أخّروا انتحارهم حتى اليوم الأخير من المهلة. أجل، إنها لعبة بارعة لم يجد الموت ردأً عليها.

شرفٌ لا بد من الاعتراف لها به، فأول مؤسسة أدركت بوضوح

خطورة الحالة المعنوية للشعب عموماً هي الكنيسة الكاثوليكية الرسولية والرومانية، والتي لن يكون من السيئ، ونحن نعيش في أزمنة يسودها تضخم في استخدام الرموز في التواصل اليومي، العام منه والخاص، أن نطلق عليها الاختصار البسط (ك.ك.ر.ر). ومن الصحيح أيضاً أنه يتوجب أن تكون عمياء بالكامل إذا هي لم تر كيف كانت تمتلئ المعابد، بين لحظة وأخرى، بأناس أصحابهم الغم ويأتون بحثاً عن كلمة أمل، عن عزاء، عن بلسم، عن مُسْكِن، عن مهدئ روحي. أناس كانوا يعيشون حتى ذلك الحين مدركون أن الموت حق وأنه لا سبيل إلى الإفلات منه، ولكنهم يفكرون في الوقت نفسه أنه، بوجود أناس كثرين جاهزين للموت، سيكون من سوء الحظ أن ينال منهم، وهم يقضون الوقت الآن في الترصد من وراء ستارة النافذة ليروا إذا ما جاء ساعي البريد، أو يرتجفون وهم في طريق عودتهم إلى البيت، حيث يمكن أن تكون الرسالة البنفسجية الأسوأ من وحش خراطي دموي مفتوح الأشداق، بانتظارهم للانقضاض عليهم. وفي الكنائس لم تكن تتوقف لحظة واحدة صفوف الخاطئين الحزينين، والمتجددة باستمرار كما لو أنها سلاسل آلات تجميع، تدور ملتفة مرتين في المر الأوسط. ولم يكن متلقى الاعترافات المناوبون يتوقفون عن العمل، قد يسهون من الإرهاق في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى يتيقظ انتباهم فجأة لتفصيل مستكَر في ما يروي لهم، وعند الانتهاء يفرضون توبية من نوع، تردّد «أبانا الذي في السماء» كذا مرة، و«يا قدِيسة مريم» كذا مرة، ثم يمنحون مغفرة متسرعة. وفي اللحظة الفاصلة بين المُعترف المنسحب والتائب الذي يتقدم ليجثو، يقضمون لقمة من ساندوتش لحم الدجاج الذي سيكون غدائهم الوحيد، بينما هم يتخيّلون التعويض على العشاء. وكانت المواعظ كلها تتحدث عن موضوع الموت باعتباره البوابة الوحيدة إلى الفردوس

السماوي، الذي لم يدخله أحد وهو حي، كما يقال. وكان الوعاظون في سعيهم للمواساة لا يتزدرون عن اللجوء إلى أساليب الفصاحة وإلى أدنى خداع التعاليم الدينية لإقناع المؤمنين المذعورين بأنه يمكنهم، في نهاية المطاف، اعتبار أنفسهم أوفر حظاً من أسلافهم، على اعتبار أن الموت منحهم وقتاً كافياً لتهيئة أرواحهم للصعود إلى جنة عدن. وكان هناك كهنة مع ذلك، وسط عتمة مقصورة الاعتراف كريهة الرائحة، يجعلون من أحشائهم قلباً، والله أعلم بأي ثمن، لأنهم تلقوا هم أنفسهم هذا الصباح المغلق البنفسجي، ولديهم بالتالي ما يكفي من الأسباب للشك بالفضائل المهدئة لما كانوا يقولونه في تلك اللحظة.

وكان الشيء نفسه يحدث للمعالجين النفسيين الذين سارع وزير الصحة، في محاكاة لاستعدادات الكنيسة العلاجية، بإرسالهم لتقديم العون إلى أشد اليائسين. ولم تكن قليلة المرات التي وجد فيها النفسياني نفسه، في اللحظة التي كان ينصح فيها مريضه بأن يفلت العنان لدموعه كأفضل وسيلة لتخفييف الألم الذي يعذبه، ينفجر هو نفسه في بكاء مختلط مفكراً في أنه يمكن له هو نفسه أن يكون متلقى مغافر مماثل في أول توزيع للبريد في الغد. وينهي كلًاهما جلسة العلاج في بكاء بلا كابح، متعانقين بالنكبة نفسها، ولكن المعالج النفسياني يفكر في أنه إذا ما حدث له مثل سوء الحظ ذاك فستكون لديه ثمانية أيام، مئة واثنان وستون ساعة من الحياة. وأنه يمكن لحفلة جنس صاحبة، ومخدرات وكحول، كالتي سمع أنها تنظم، أن تساعده في الانتقال إلى العالم الآخر، وإن كنت ستتجاوزف بأن الامكان الأثيري الذي صعدت إليه سيزيد من حنينك إلى هذا العالم.

يقال، تقول ذلك حكمه الشعوب، إنه لا وجود لقاعدة بلا استثناء، ولا بد أن الأمر كذلك حقاً، لأنه حتى في حالة القواعد التي تعتبرها جماعتنا حصينة بصورة قصوى، مثلاً هو الموت المطلق على سبيل المثال، حيث، في تعريف بسيط للمفهوم، سيكون من غير القبول وقوع أي استثناء سخيف، وقد حدث مع ذلك أن رسالة بنفسجية اللون أُعيدت إلى مصدرها. يمكن الاعتراض بأن مثل هذا الأمر غير ممكن، ذلك أن الموت، وبالتحديد لأنه في كل مكان، لا يمكن له أن يكون في مكان معين تحديداً، ومن هذا يتبيّن، في هذه الحالة، الاستحالة المادية والميتافيزيقية على السواء في تحديد أو تعريف ما نعنيه بالمصدر، أو المكان الذي جاءت منه الرسالة، وهو ما يعني هنا وقد يُعرض كذلك، وإن يكن بقدر أقل من المزاعم التأملية، بأنه إذا كان ألف تحدّي من رجال الشرطة قد بحثوا عن الموت طوال أسابيع، ومشطوا البلاد كلها، بيتاً بيتاً، بمشط ناعم، وكان الأمر يتعلق بجملة متهرية وبارعة في تجاوز العقبات، ولم يروا المنية أو يশموها، وإذا كان لم يُقدم لنا حتى هذه اللحظة التي نحن فيها أي تفسير عن كيفية وصول الرسائل إلى البريد، فمن الواضح أنه سيكون أقل بكثير ما يمكن أن يقال لنا عبر أي قنوات سرية وصلت إلى يدي الموت الآن الرسالة المرتجعة. نعترف بمذلة إلى غياب هذه التوضيحات وغيرها كثير بكل تأكيد، نعترف بأننا لسنا في ظروف تسمح لنا بتقديمها حسب مزاج من يريدها، اللهم إلا إذا عمدنا إلى استغلال تصديق القارئ وتجاوزنا الاحتراض المتوجب لمنطق الأحداث، وأضفنا لا واقعيات

جديدة إلى لا واقعية الخرافات الخلقية، ونحن ندرك أن مثل هذه العيوب تُتحق ضرراً جدياً بالمصداقية، وإن كان لا شيء من هذا كله يعني، نكرر لا شيء من هذا كله يعني أن الرسالة بنفسجية اللون التي ذكرناها لم تُعد فعلاً إلى المرسل. فالوقائع هي الواقع، وهذه تنتهي، سواء شئنا أم لم نشاء، إلى الأمور غير القابلة للدحض. ولا يمكن وجود دليل أفضل على ما نقول إلا صورة موت نفسها التي هي الآن أمام أعيننا، جالسة على كرسي وملتفة بملاءتها، وملامح الببلة الكاملة بادية على تضاريس وجهها العمظيم. إنها تنظر ببرية إلى الملف البنيسجي، تقلب لترى إن كانت عليه واحدة من الملاحظات التي يكتبها سعاة البريد عادة في مثل هذه الحالات، مثل كتابة: لم يقبل سلامها، أو تبدل في العنوان، أو غائب في مكان مجهول ولزمن غير محدود، أو متوفى، يا لبلاهتي، تدمدم المنية، كيف يمكن له أن يكون متوفى إذا كانت الرسالة التي ستقته قد رجعت القهقري. كانت قد فكرت في الكلمتين الأخيرتين دون أن تتبه، ولكنها استعادتهما على الفور لتردد़هما بصوت عالٍ، كتعبير حالم، رجعت القهقري، لا حاجة لأن يكون المرء ساعي بريد كي يعرف أن رجوع القهقري لا يعني الشيء نفسه الذي تعنيه كلمة معاد، فرجوع القهقري يمكن أن يعني فقط أن الرسالة لم تصل إلى مستقرها، وأن شيئاً قد حدث في نقطة ما من الطريق وجعلها تعيد ذرع طريقها، وتعود إلى المكان الذي جاءت منه. ولكن الرسائل لا تستطيع الذهاب إلا إلى المكان الذي تحمل إليه، فهي لا تمتلك أقداماً ولا أجنحة، كما أنها غير مزودة، مثلاً هو معروف، بالقدرة على المبادرة الخاصة، ولو أنها كانت مزودة بها لراها على أنها سترفض حمل الأخبار الرهيبة التي عليها أن تنقلها في أحيان كثيرة. مثل رسالتى هذه، أقرت المنية بتجرد، فإن خبر شخص بأنه سيموت في موعد محدد هو أسوأ الأخبار،

إنه أشبه بكون المرء في حجرة المحكومين بالإعدام منذ سنوات عديدة وفجأة يأتي السجان ليقول له، ها هي رسالتك، فاستعد. المثير للضجوك أن جميع رسائل الإصدار الأخير قد سُلمت ل أصحابها، وإذا كانت هذه الرسالة لم تُسلم، فلا بد من وجود مصادفة عارضة، مثلاً هي الحال في تأخر رسالة حب - لا يعلم إلا الله في آية ظروف - خمس سنوات في الوصول إلى متلقيها الذي يسكن على بُعد شارعين، أي أقل من ربع ساعة مشياً على الأقدام، كما يمكن لهذه الرسالة أن تكون قد انتقلت من حزام ناقل إلى آخر دون أن ينتبه أحد إلى ذلك ثم رجعت إلى نقطة الانطلاق مثل من يضيع في الصحراء، ولا يجد ما يثق به سوى الآخر الذي خلفه وراءه. **سيكون** الحل في إرسالها مرة أخرى، قالت موت للمنجل طويل الذراع الموضوع إلى جانبها، مستنداً إلى الجدار الأبيض. ولا يُنتظر من منجل طويل الذراع أن يجيب، وهذا المنجل لم يخالف القاعدة. وواصلت موت الكلام، لو أنتي أرسلتِكَ أنت، بعيلوك هذه إلى تسوية الأمور بسرعة، لكان المسألة قد حلّت، ولكن الأزمنة تغيرت كثيراً في الآونة الأخيرة، ولا بد من تحديد الوسائل والأساليب، ومن متابعة التقنيات الجديدة، كاستخدام البريد الإلكتروني على سبيل المثال، فقد سمعتُ أنه من أنظف الوسائل، وأنه لا يخلف لطخات حبر ولا يلوث الأصابع، وهو سريع، ففي اللحظة نفسها التي يفتح فيها الشخص الأوتلوك اكسبريس في ميكروسوفت تكون الرسالة قد علقت، والمشكلة هي أن ذلك سيضطرني العمل في أرشيفين منفصلين، أرشيف من يستخدمون الحاسوب، وأرشيف من لا يستخدمونه، ولدينا على كل حال متسع طويل من الوقت لنقرر، فما زالت تظهر موديلات جديدة، وتصاميم جديدة، وتقنيات أكثر اتقاناً في كل مرة، وربما أقرر تجربتها ذات يوم، ولكن حتى ذلك الحين، سأواصل الكتابة بالريشة والورقة والحبير، فلهذه الأشياء سحر

التقاليد، وللتقاليد وزنها في أمور الموت. نظرت موت بتمعن إلى المخلف البنفسجي، وأوسمات بيدها اليمنى فاختفت الرسالة. وهكذا نعرف، خلافاً لما كان يعتقد على نطاق واسع، أن موت لا تحمل الرسائل بنفسها إلى مركز البريد.

هناك على المنضدة قائمة من مئتين وثمانين وتسعين اسماءً، أي أقل بقليل من المتوسط المعهود، منها مئة واثنان وخمسون رجلاً، ومئة وستة وأربعون اسم امرأة، وعدد مماثل من المخلفات والأوراق البنفسجية المخصصة للعملية البريدية التالية، أو الوفاة عبر البريد. أضافت المنية إلى القائمة اسم الشخص الذي وجهت إليه الرسالة الراجعة إلى مصدرها، ورسمت خطأ تحت الكلمات ووضعت الريشة في المقلمة. لو كانت لها أعصاب لأمكن لنا أن نقول إنها منفعلة بعض الشيء، وليس ذلك دون مسوغ. فقد عاشت ما يكفي لأن تقدر أن إعادة رسالة هو حدث بلا أهمية. من السهل أن نفهم، ويكتفي قليل من التخييل، أن موقع عمل الموت هو، بالصادفة، الأكثر رتابة بين كل الأعمال التي حُلقت منذ أن أقدم قابيل، بخطأ حصري من رب، على قتل هابيل. فبعد ذلك الحدث المؤسف جداً، وفور بدء العالم الذي جاء ليثبت مدى صعوبة العيش في أسرة، حتى أيامنا هذه، ظل الأمر نفسه يتكرر لقرون، وقرون، ومنذ من القرون، مكررراً، دون توقف، دون انقطاع، دون حل للاستمرارية، مختلفاً في الطرق المتعددة للانتقال من الحياة إلى اللاحيا، ولكنه في العمق مشابه على الدوام لنفسه، لأن النتيجة كانت هي نفسها أيضاً على الدوام. والحقيقة أنه لم يُرَّ قط عدم موت من يتوجب مותו. والآن، وبصورة فريدة، إشعار موقع من موت، بخط يدها، إشعار يعلن الموت الذي لا رجعة عنه وغير القابل للتأجيل لشخص، قد أعيد إلى مصدره، إلى هذه القاعة حيث كاتبة الرسالة وموقعتها تجلس محاطة بالكفن الكئيب الذي هو زيها

التاريخي، وعلى رأسها قلنسوة، تفكّر متأملة في ما حدث بينما عظام أصابعها، أو أصابعها العظمية، تتقرّف فوق المنضدة. تقفجأ قليلاً حين ترغب في أن تعاد إليها مجدداً الرسالة المبعثة مرة أخرى، وأن يحمل الملف ملاحظة تشير، على سبيل المثال، إلى غياب في مكان غير محدد، لأن ذلك سيكون مفاجأة مطلقة لم تتمكن على الدوام من اكتشاف أين اختبأنا، إذا ما قدرنا أننا نستطيع بهذه الطريقة الصبيانية الإفلات. ولكنها لا تعتقد مع ذلك أن إشارة الغياب المزعوم ستظهر مدونة على ظهر الملف، فالملفات هنا تُحدّث بصورة آلية مع أي حركة أو إيماءة نقوم بها، مع كل خطوة نخطوها، وكل تبديل للبيت، للحالة الاجتماعية، للمهنة، للعادات، إذا كنا ندخن أو لا ندخن، إذا كنا نأكل كثيراً أو قليلاً، أو لا شيء، إذا كنا نشطين أو خاملين، وإذا كنا مصابين بوجع في الرأس أو حموضة في المعدة، وإذا كنا نعاني الإمساك أو الإسهال، وإذا كان شعرنا يتتسّاقط أو سيصيبنا السرطان، إذا كان الجواب نعم أو إذا كان لا، أو إذا كان ربما، يكفي فتح درج الملفات المرتب أبجدياً، وهناك يوجد كل شيء. ويجب ألا نفاجأ إذا ما ظهرت على الفور ضربة الغم التي ستجمدنا فجأة، في اللحظة نفسها التي تكون مستغرقين فيها بقراءة ملفنا الشخصي. المنية تعرف كل شيء يتعلق بنا، وربما هذا هو سبب حزنها. وإذا كان صحيحاً أنها لا تبتسم أبداً، فإنما السبب في ذلك هو افتقادها الشفتين، وهذا الدرس في التشريح يخبرنا بأنه خلافاً لما يظنه الأحياء، ليست الأسنان هي التي تبتسم. قد يكون هناك من يقول، بسخرية أقل قبورية من سوء المزاج، أنها تحمل نقشَ نوع من الابتسامة الدائمة، ولكن هذا غير صحيح، فما يبادر إلى النظر هو تكشيرة معاناة، لأن تذكر الزمن الذي كانت تمتلك فيه فماً، وكان في الفم لسان، وعلى اللسان لعاب، يلاحقها باستمرار. بزفرة

مقتضبة قرّبت منها ورقة وبدأت بكتابية الرسالة الأولى لهذا اليوم، سيدتي العزيزة، يؤسفني إخبارك أن حياتك ستنتهي خلال مهلة أسبوع لا رجعة عنها وغير قابلة للتأجيل، أتمنى لك استغلال وقتك المتبقى بأفضل طريقة ممكنة، خادمتك المخلصة، موت. مئتان وثمانين وتسعون ورقة، مئتان وثمانية وتسعون مغلفاً، مئتان وثمانية وتسعون شطباً من القائمة، لا يمكن القول إنه عمل من تلك الأعمال المميتة، ولكن الحقيقة أن المنية وصلت إلى النهاية منهوبة. وبإيماءة يدها اليمنى، وقد صرنا نعرفها، جعلت الرسائل المئتين وثمان وتسعين تحتفي، ثم قاطعته بعد ذلك ذراعيها النحيلين على المنضدة، وتركت رأسها يهوي عليهما، ليس من أجل أن تتم، لأن موت لا تمام، وإنما لستريح. وبعد نصف ساعة، عندما كانت قد تحففت من الإجهاد، رفعت رأسها، والرسالة التي كانت قد أعيدت إلى المصدر ثم أرسلت مرة أخرى، كانت هناك من جديد، أمام محجريها الذاهلين والفارغين.

لو أن المنية حلمت بالأمل بمفاجأة تُخرجها من سماحة الروتين وكانت محظوظة، فها هي المفاجأة، ومن أفضل الأنواع. فقد كان يمكن للإعادة الأولى أن تكون نتيجة حادث بسيط في الطريق، أحد المسننات خارج من محوره، مشكلة في التشحيم، رسالة زرقاء سماوية مستعجلة في الوصول اعتبرت طريقها، وباختصار، واحداً من هذه الأمور غير المتوقعة التي تحدث داخل الآلات، مثلاً يحدث للجسم البشري، مسببة خللاً في أشد الحسابات دقة. أما حالة الإعادة الثانية فكانت مختلفة، وهي تثبت بكل وضوح أن هناك عائقاً في نقطة ما من الطريق الذي كان عليه أن يقودها إلى عنوان المرسل إليه، وحين اصطدمت الرسالة بذلك العائق رجعت. في الحالة الأولى، ولأن العودة تأكّدت في اليوم التالي للإرسال، فقد كان بالإمكان تقدير أن ساعي البريد لم يجد الشخص الذي يجب أن تُسلم إليه الرسالة، وبدلاً

من أن يتركها في علبة بريده الشخصي أو يدسها من تحت الباب، أعادها إلى المرسل ناسياً أن يذكر سبب الإعادة. إنها مصادفات كثيرة، ولكنها يمكن أن تشكل تفسيراً مقبولاً لما حدث. أما الآن فالحالة مختلفة. فبين ذهاب الرسالة وعودتها لم يكدر يمضي أكثر من نصف ساعة، وربما أقل من ذلك بكثير، ذلك أنها كانت على المنضدة عندما رفعت موت رأسها عن مسند عضديها القاسيين، هذا يعني عن عظم الزند وعظم الكعبـة، وهما لهذا السبب متشابـكان. هناك قوة غريبة، غامضة، غير مفهومة، يبدو أنها تعارض موت هذا الشخص على الرغم من أن موعد موته محدد، مثـمـا هو حال الجميع، منذ يوم ميلادـهـ. هذا مستحيل، قالت موت للمنجل طوـيلـ الذراع الصامتـ، ليس هناك في العالم وخارجـهـ من امتـلـكـ مثل سلطـتـيـ، إـنـيـ الموتـ وـماـ عـدـايـ لـاـ شـيـءـ. نـهـضـتـ عنـ الكرـسيـ وـاقـرـبتـ منـ خـزانـةـ الأـرـشـيفـ، وـرجـعـتـ منهاـ حـاملـةـ المـلـفـ المـرـيبـ. لمـ يـكـنـ ثـمـةـ مـجـالـ لـلـشـكـ، فـالـاسمـ مـطـابـقـ لـلـذـيـ عـلـىـ المـغـلـفـ، وـالـفـنـانـ كـذـلـكـ، وـالـمـهـنـةـ هيـ عـازـفـ فيـلـونـسـيـلـ، وـخـانـةـ الـوـضـعـ الـاجـتمـاعـيـ بـيـضـاءـ، إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـهـ غـيرـ متـزـوجـ، وـلـاـ أـرـملـ، وـلـاـ مـطـلـقـ، لـأـنـ حـالـةـ الـأـعـزـبـ لـاـ تـذـكـرـ أـبـداـ فـيـ مـلـفـاتـ الموـتـ، وـيـكـفـيـ التـفـكـيرـ فـيـ أـنـ يـكـتـبـ فـيـ مـلـفـ طـفـلـ، وـلـدـ لـلـتوـ، أـنـهـ بـلـاـ مـهـنـةـ، لـأـنـهـ لـمـ يـعـرـفـ بـعـدـ مـاـ سـتـكـونـ عـلـيـهـ مـيـولـهـ، فـمـاـ بـالـكـ إـذـاـ كـتـبـ عـنـ الـحـالـةـ الـاجـتمـاعـيـ لـحـدـيـثـ الـوـلـادـةـ أـنـهـ أـعـزـبـ. أـمـاـ الـعـمـرـ المـسـجـلـ فـيـ المـلـفـ الـذـيـ تـحـمـلـهـ مـوـتـ بـيـنـ يـدـيـهاـ، فـيـظـهـرـ فـيـهـ أـنـ سـنـ عـازـفـ الـفـيـلـونـسـيـلـ تـسـعـ وـأـرـبعـونـ سـنـةـ. حـسـنـ، إـذـاـ كـانـتـ لـاـ تـزـالـ ثـمـةـ حـاجـةـ إـلـىـ دـلـلـ عـلـىـ مـدىـ دـقـةـ مـلـفـاتـ الموـتـ، فـسـوـفـ نـحـصـلـ عـلـيـهـ الـآنـ بـالـذـاتـ، عـنـدـمـاـ تـمـ خـلالـ عـشـرـ ثـانـيـةـ، أـوـ أـقـلـ، وـأـمـامـ عـيـونـنـاـ غـيرـ الـمـصـدـقـةـ، تـبـدـلـ الرـقـمـ تـسـعـ وـأـرـبعـونـ إـلـىـ خـمـسـيـنـ. الـيـوـمـ هـوـ عـيـدـ مـيـلـادـ عـازـفـ الـفـيـلـونـسـيـلـ صـاحـبـ الـلـفـ، وـكـانـ يـتـوجـبـ أـنـ ثـرـسـلـ إـلـيـهـ زـهـورـ بـدـلـاـ مـنـ إـشـعـارـ بـالـوـفـاةـ خـلالـ

ثمانية أيام. نهضت موت من جديد، قامت بعده جولات في القاعة، وتوقفت مرتين حيث يوجد المنجل طوويل الذراع، فتحت فمها كمن تود أن تتحدث إليه، أن تطلب منه رأيه، أو أن تقول له ببساطة إنها تشعر بالتشوش، بالارتباك، وهو أمر، فلنذكر ذلك، لا غرابة فيه إذا ما فكرنا في الزمن الذي أمضته في مهنتها هذه دون أن تتعرض، حتى اليوم، لأدنى إساءة احترام من جانب القطيع البشري الذي هي راعيته العليا. وفي هذه اللحظة بالذات راود موت الهاجس المسؤول بأنه يمكن للحدث أن يكون أشد خطورة مما بدا لها للوهلة الأولى. جلست إلى المنضدة وبدأت تراجع، من الأمام إلى الوراء، قوائم وفيات الأيام الأخيرة. وعلى الفور، في أول قائمة للأسماء، قائمة الأمس، وخلافاً لما كانت تتنتظره، رأت أنه لا وجود لعازف الفيولونسيل. واصلت تصفح قائمة، ثم أخرى، وأخرى، وأخرى إضافية، ولم تجده أخيراً إلا في القائمة الثامنة. ظنت خاطئة أن الاسم يجب أن يكون في قائمة الأمس، وهي ترى الآن، يا للفضيحة غير المسبوقة، أن شخصاً يتوجب أن يكون ميتاً منذ يومين مازال حياً. ولم يكن هذا هو الأمر الأساسي، فما زل الفيولونسيل الشيطاني هذا الذي كان مقدراً له منذ ولادته أن يموت شاباً، عن تسعه وأربعين ربيعاً وحسب، أكمل اليوم بكل وقاحة الخمسين من عمره، فحطَّ بذلك من سمعة القدر، القضاء، المحروم، الطالع الفلكي، الهدو وكل القوى الأخرى المعارضة، بكل الوسائل الجديرة والمعيبة، لمشيئتنا الإنسانية جداً في الحياة. إنه ضياع كامل للسمعة. وكانت موت تساؤل، كيف يمكن لي الآن تصحيح تحول ما كان يمكن له أن يحدث، مادامت حالة لا سوابق لها، ولا تلمح الأنظمة شيئاً مشابهاً لهذا، لاسيما أنه كان عليه أن يموت وهو في التاسعة والأربعين وليس في الخمسين مثلما صار الآن. بدا أن موت المسكينة كانت حائرة، مرتبكة، ولولا قليل

لضربت رأسها بالجدران من الغم. فخلال آلاف القرون من النشاط المتواصل، لم تقترب قطّ أي خطأ عملياتي، والآن، بعد أن أدخلت شيئاً جديداً على العلاقة التقليدية بين البشر الفنانين وسبب موتهم الحقيقي والوحيد، تنتهي سمعتها التي أحرزتها بالعمل الدؤوب إلى التعرض لأقصى الضربات. ما العمل، تساءلت، فلتخيّل أنّ واقع عدم موته في موعده المحدد قد جعله بعيداً عن متناول يدي، كيف سأخلع هذا الحذاء. نظرت إلى المنجل، رفيقها في مغامرات ومجازر كثيرة، ولكنه ظاهر بعدم المبالاة، فهو لا يجيب أبداً، والآن يبدو ساهياً بالكامل، كما لو أن تخمة أصابته من العالم، يسند نصله المتآكل والصدئ على الجدار الأبيض. عندئذ أخرجت موت إلى النور فكرتها العظيمة، يقال إنه لا وجود لواحدة دون اثنين، ولا وجود لاثنين دون ثلاثة، وإن الثالثة هي الثابتة، فلنر إن كان ما يقال صحيحاً. أوّمأت بحركة الإرسال بيدها اليمنى، فاختفت الرسالة التي كانت قد رجعت مرتين. ولكنها لم تتأخر في الخارج أكثر من دقيقتين.وها هي هناك، في المكان السابق نفسه. لا يمكن أن يكون قد أتيح لساعي البريد أن يدخلها من تحت الباب، ولا أن يرن الجرس، ومع ذلك ها هي ذي قد عادت.

من المؤكد أنه لا يتوجب علينا الشعور بالأسى لحال موت. فقد كانت شكاوانا منها مسوقة ولا حصر لها، بحيث لا يمكن لنا الآن الوقوع في مشاعر الشفقة التي لم تتلطّف هي في أي لحظة في الماضي ياظهارها نحونا، بالرغم من معرفتها أفضل من الجميع بمدى مقتنا لهوسها في تنفيذ مشيئتها مهما كان الثمن. ولكن ما نراه أمام عيوننا مع ذلك يبدو، ولو للحظة قصيرة، أشبه بنصب لليلأس منه إلى تلك الهيئة المشوومة التي تظهر، مثلما قال بعض المحتضرين نافذـي البصـيرـة، عند حافة فراشـنا في اللحظـة الأخيرة لتـومـيـ لـنـاـ بإـشـارـةـ مـمـاثـلـةـ لـحـرـكـةـ

إرسال الرسائل، ولكنها مناقضة لها، بمعنى أن الإيماءة لا تقول اذهب إلى هناك، وإنما تقول تعال إلى هنا. وبسبب ظاهرة بصرية غريبة، قد تكون واقعية أو افتراضية، تبدو موت الآن أصغر حجماً، كما لو أن عظامها قد انكمشت، أو ربما أنها كانت هكذا على الدوام، وأن عيوننا، تبعاً لخوفنا، هي التي تجعل منها مارداً. يا موت المسكونة. ونشرع برغبة في وضع يدنا على كتفها العظمي الصلب، وأن نقول لها في أذنها، أو بكلمة أدق في المكان الذي كانت فيه أدتها، تحت الفص الجداري من عظم الجمجمة، بعض الكلمات تعاطف، لا تزعلي أيتها السيدة موت، إنها أمور تحدث، ونحن الكائنات البشرية لدينا تجربة كبيرة في اليأس، والإخفاق، والإحباط، ولاحظي أن ذلك كله لا يجعلنا نقطع ذراعينا، وتذكرى الأزمنة القديمة عندما كنت تختطفيننا دون حزن ولا شفقة ونحن في زهرة الشباب، وفكري الآن بالذات في أنك بقسوة القلب نفسها تواصلين فعل ذلك مع أشد الناس عوزاً ما هو ضروري للحياة، من المحتمل أن تكون قد ساعدناك في رؤية من سيتعجب أولاً، أنت أم نحن، أتفهم حزنك، فالهزيمة الأولى هي الأكثر إيلاماً، وبعد ذلك نعتاد، ولا تغضبي إذا ما قلت لك عسى إلا تكون هذه هي هزيمتك الأخيرة، فلست أقوله بدافع الانتقام، لأنك سيكون انتقاماً بائساً، أشبه بخروج لساننا للجلاد الذي سيقطع رأسنا، والحقيقة أننا نحن البشر لا نستطيع عمل ما هو أكثر من إخراج لساننا للجلاد الذي سيقطع رأسنا، وربما لهذا السبب أشعر بفضول هائل لمعرفة كيف ستخرجين من الورطة التي أنت فيها، من قصة هذه الرسالة التي تذهب وتجيء، وقصة عازف الفيولونسيل هذا الذي لا يمكن له أن يموت وهو في التاسعة والأربعين لأنه أكمل الخمسين من عمره. أومأت موت بحركة فقدان الصبر، وأزاحت عن كتفها يد الأخوة التي نواسيتها بها، ونهضت عن الكرسي. لقد صارت

تبدو الآن أطول قامة، وأضخم جسماً، إنها السيدة موت مثلاً يجب أن تكون، قادرة على جعل الأرض ترتج تحت قدميها، تجرجر كفنها، والدخان يتتصاعد منها في كل خطوة. إن موت غاضبة. وهذه هي اللحظة المناسبة لنخرج لها لساننا.

باستثناء حالات نادرة، مثل حالة أولئك المحتضرين المذكورين ذوي النظرة النفاذة الذين لمحوها عند طرف السرير بالملظر التقليدي لشبح ملتف بأقمصة بيضاء، أو على هيئة امرأة بدينة ترتدي السواد، مثلما حدث كما يبدو لبروست، تظل موت متكتمة، تفضل ألا يُلاحظ حضورها، وخاصة إذا اضطرتها الظروف للخروج إلى الشارع. ويعتقد عموماً أن موت، باعتبارها، مثلما يجتهد البعض في التأكيد، أحد وجهي قطعة عملة يكون الرب، على وجهها الآخر، هو الصليب، فلا بد أن تكون مثله، من الطبيعة نفسها، وغير مرئية. ليس الأمر هكذا بالضبط. إننا شهدنا ثقات على أن موت هيكل عظمي ملتف بملاءة، تعيش في قاعة باردة برفقة منجل قديم وصدى لا يرد على أسئلتها، تحيط بها بجدران مطالية بالكلس، تُرى على امتدادها، بين شبابك، بضع عشرات من خزائن الأرشيف ذات الأدراج المترعة بالملفات. وفيهم وبالتالي أن موت لا تزيد الظهور للناس بهذه الهيئة، لأسباب جمالية شخصية في المقام الأول، وفي المقام الثاني كيلا يموت عابرو السبيل التعساء خوفاً عند التقائهم فجأة، لدى انعطافهم عند ناصية، بمحجري عينيها الكبیرين الفارغين. أجل، فموت تحول إلى غير مرئية أمام الملأ، ولكن الأمر ليس كذلك في خصوصيتها، مثلما استطاع أن يتتأكد، في لحظة حرج، الكاتب مارسيل بروست والمحتضرون ذوو النظرة النفاذة. أما حالة الرب فمختلفة. فمهما بذل من جهد، لن يستطيع أبداً أن يصير مرئياً أمام العيون البشرية، ليس لأنه

غير قادر، فلا وجود لمستحيل بالنسبة إليه، وإنما ببساطة لأنه لا يعرف أي وجه يتخذ ليظهر به أمام الكائنات التي يفترض أنه خلقها، وسيكون الاحتمال الأكبر ألا يتعرف إليهم، أو ربما، وهذا هو الأسوأ، قد لا يتعرفون هم إليه. وسيكون هنالك أيضاً من يقول إنه حسن حظ عظيم، لنا، أن الرب لا يريد الظهور، لأن الخوف الذي نشعر به من الخوف سيكون مجرد لعبة أطفال بالمقارنة مع الرعب الذي سيصيّبنا إذا ما حدث وظهر لنا. وباختصار، لم ترُ عن الرب والموت سوى قصص وهذه مجرد قصة أخرى من تلك القصص الكثيرة. وهنا قررت موت الذهاب إلى المدينة. نزعت عنها الملاءة، وهي كل ما عليها من ملابس، وطوطتها بعناء وتركتها على الكرسي الذي رأيناها جالسة عليه. وإذا استثنينا هذا الكرسي والمنضدة، وإذا استثنينا كذلك خزانة الأرشيف والمنجل طويل الذراع، فإنه لا وجود لأي شيء آخر في القاعة، ما عدا ذلك الباب الضيق الذي لا نعرف إلى أين يؤدي. وبما أنه المخرج الوحيد في الظاهر، فمن المنطقي الظن أن موت سستخدمه للذهاب إلى المدينة، ولكن الأمر لن يكون كذلك. لقد فقدت موت شيئاً من طولها بعد أن خلعت عنها الملاءة، وصارت تبدو، على أبعد تقدير، بطول القامات البشرية: متروسة وستون أو مترين سبعة وستون سنتيمتراً، ولأنها عارية، دون أي خيط من الثياب عليها، صارت تبدو لنا أصغر كذلك، أشبه بهيكل عظمي لراهقة. لا يمكن لأحد أن يقول إن هذه هي موت نفسها التي أزاحت يدنا عن كتفها عندما حركتنا شفقة غير مستحقة وأردننا مواساتها في حزنها. الحقيقة أنه لا وجود في الدنيا لما هو أشد عرياناً من الهيكل العظمي. ففي الحياة يكون مكسواً بكسوة مزدوجة، أولاً اللحم الذي يغطيه، وبعد ذلك الملابس التي يحب أن يغطي بها ذلك اللحم، إلا عندما يخلعها للاستحمام أو لمارسات أكثر متعة. وباختزاله إلى ما هو عليه في

الواقع، فإن الميكل المفكك لمن ترك الوجود منذ زمن طويل لا يبقى أمامه إلا الاختفاء. وهذا هو ما يحدث له، من الرأس إلى القدمين. فآمام عيوننا المذهولة، أخذت العظام تفقد قوامها وصلابتها، وشيئاً فشيئاً راحت حوافها تتلاشى، وما كان صلباً تحول غازياً، وتمدد في كل الاتجاهات مثل غمامه ضباب خفيف، كما لو أن الميكل العظمي يت弟兄، وها قد صار الآن مجرد طيف غير محدد الملامح يمكن من خلاله رؤية المنجل غير المبالي، وفجأة لم تعد موت موجودة، بل هي موجودة وغير موجودة، أو أنها موجودة ولكننا لا نراها، أو ليس هذا أيضاً، فقد اخترقت ببساطة سقف القاعة تحت الأرضية، وكتلة التراب الضخمة التي فوقه، ومضت، مثلاً قررت في أعماقها عندما أُعيدت إليها الرسالة البنفسجية للمرة الثالثة. نحن نعلم إلى أين هي ذاهبة. إنها غير قادرة على قتل عازف الفيولونسيل، ولكنها تريد رؤيتها، أن يكون أمام عينيها، أن تلمسه دون أن يلحظ ذلك. وهي واثقة من أنها في أحد هذه الأيام ستكتشف الطريقة لتصفيته دون أن تخالف الأنظمة كثيراً، وحتى ذلك الحين ستعرف من هو هذا الرجل الذي لم تتمكن إشعارات الموت من الوصول إليه، ما هي القوى التي يمتلكها، إذا كانت هذه هي الحالة، أو إذا ما كان يواصل العيش، كأنه بريء، دون أن يخطر في ذهنه أنه عليه أن يكون ميتاً. وبينما نحن في هذه القاعة الباردة التي بلا نوافذ وذات الباب الضيق الذي لا نعرف لأي شيء يستخدم، لم ننتبه إلى مدى السرعة التي يمر بها الوقت. لقد دقت الساعة الثالثة فجراً، ولا بد أن موت قد صارت في بيت عازف الفيولونسيل.

وقد كان الأمر كذلك. أحد أشد الأشياء إنهاكاً موت هو الجهد الذي عليها أن تبذله للتحكم بنفسها عندما لا تريد رؤية كل ما يظهر لعينيها، بالتزامن، في كل الأمكنة. وهي في هذا التفصيل

أيضاً تشبه الرب كثيراً. فلننظر في الأمر. بالرغم من أن الواقع غير واردة ضمن المعطيات المؤكدة بالتجربة الحسية البشرية، إلا أننا اعتدنا على الاعتقاد، منذ الطفولة، بأن الرب والموت، هذين المقامين الساميين، موجودان في آن واحد في كل مكان، هذا يعني أنهما كلياً الحضور (*omnipresentes*)، وهذه كلمة، مثل كلمات كثيرة غيرها، هجينة من اللاتينية واليونانية. والحقيقة، مع ذلك، أنه من المعروف جيداً، أننا حين نفكّر في الكلمة، وربما بصورة أكثر عندما ننطق بها - مع الأخذ بالاعتبار الخفة التي تخرج بها الكلمات عادة من الأفواه - لا نتوصل إلىوعي واضح لما يمكن أن تعنيه. من السهل القول إن الرب موجود في كل مكان، وإن موت في كل مكان موجودة، ولكن يبدو أننا لا ننتبه إلى أنه، إذا كانا حقاً في كل مكان، فلا بد لهما بالضرورة من رؤية كل ما يرى في كل الأماكن اللامتناهية. وبالنسبة للرب المضطر إلى أن يتحمل في الوقت نفسه مسؤولية الكون بأسره، لأنه بغير ذلك لن يكون هناك أي معنى لخلقه إياه، فسيكون زعماً مضحكاً القول إنه يبدي اهتماماً خاصاً بما يحدث في كوكب الأرض الصغير الذي يعرفه هو في الحقيقة، وبربما لم يخطر هذا لأحد، باسم مختلف تماماً، أما الموت، هذا الموت المخصوص للجنس البشري حسراً، كما قلنا قبل صفحات، فلا يرفع عينيه عنا لحظة واحدة، لدرجة أن من هم غير مؤهلين للموت بعد يشعرون بأن نظراته تلاحقهم طوال الوقت. ومن هنا يمكن لنا استخلاص فكرة عن الجهد البطولي الذي كان على موت أن تبذله في المرات القليلة التي احتجت فيها، لهذا السبب أو ذاك، على امتداد تاريخنا المشترك، لأن تحفظ قدرتها الإدراكية إلى مستوى قدرة البشر، أي أن ترى كل شيء منفرداً، وأن تكون في كل لحظة في مكان وحيد. وفي الحالة المحددة التي نحن بصددها اليوم، هذا هو

تفسير أنها لم تتوصل حتى الآن إلى المرور من مدخل بيت عازف الفيولونسيل. ففي كل خطوة تخطوها، وما إطلاقنا تسمية خطوة إلا مساعدة من يقرؤنا على التخييل، وليس لأنها تتحرك بالفعل كمن يمتلك ساقين وقدمين، فعلى موت أن تصارع كثيراً لتكبح الميل التمددية الملزمة لطبيعتها، لأنها إذا تركت لسجيتها، فسوف تتفجر وحدها في الحال وتتبادر في الفضاء، لأنها وحدة غير ثابتة وغير مستقرة، يُجمع بعضها إلى البعض بمشقة كبيرة. تقسيمات الشقة التي يعيش فيها عازف الفيولونسيل الذي لم يتلق الرسالة البنفسجية، تتنمي إلى النمط الاقتصادي للطبقة الوسطى، وهي بالتالي أقرب إلى بيت برجوازي صغير بلا آفاق منها ببيت أحد أتباع أوتيرب<sup>(١)</sup>. يُدخل إليها عبر ممر يمكن أن تميز فيه بصعوبة، في الظلام، خمسة أبواب، واحد في العمق، وكيلان نعود مرة أخرى إلى الموضوع نقول إنه يؤدي إلى الحمام، وبابان في كل جانب. الباب الأول، إلى جهة اليد اليسرى، وهو الأول الذي قررت موت بدء التفتيش منه، ينفتح على غرفة طعام صغيرة يبدو أنها لا تُستخدم إلا قليلاً، وتتصل بدورها بمطبخ أصغر منها، مجهر بما هو ضروري. ومنه يمكن الخروج من جديد إلى الممر، قبالة باب آخر بالضبط، لم تكن موت بحاجة لأن تطرقه كي تعرف أنه باب خارج الاستخدام، أي إنه لا يُفتح ولا يُغلق، وهو قول مخالف للمثبت البسيط، ذلك أن باباً يقال عنه إنه لا ينفتح ولا ينغلق إنما هو ببساطة باب مغلق لا يمكن فتحه، أي أنه باب محكم باللعنة كما يقال عادة. يمكن موت أن تخترقه وتخترق كل ما قد يكون وراءه طبعاً، ولكنها إذا كانت قد تكلفت مشقة كبيرة في تجميع وتحديد نفسها - بالرغم من بقائهما غير مرئية للعيون العادية - بهيئة بشرية إلى هذا الحد أو ذاك، وليس إلى حد امتلاك ساقين

---

<sup>(١)</sup> أوتيرب Euterpe ربة الموسيقى عند الإغريق، تمثل عموماً وهي تحمل الناي.

وقدمين كما قلنا سابقاً، فإنها لن تجاذف بأن تششقق وتتبعر داخل خشب باب أو خزانة ملابس، هي ما يوجد بالتأكيد في الجانب الآخر من الباب. تابعت موت التقدم إذاً عبر الممر حتى الباب الأول إلى يمين من يدخل، وانتقلت من هناك إلى قاعة الموسيقى، ولا يمكن إطلاق تسمية أخرى على حيز من البيت يوجد فيه بيانو مفتوح وفيولونسيل، وحامل نوته عليه المقطوعات الفانتازية من العمل الفانتازي السابع والثلاثين لروبرت شومان، وهو ما استطاعت موت أن تقرأه بفضل مصباح في الشارع، يدخل نوره البرتقالي من النافذتين، وبضع نوtas أخرى مكوّمة هنا وهناك، دون نسيان خزائن الكتب العالية حيث للأدب مظهر التحول إلى موسيقى في أشد حالات هارمونيتها كمالاً، وقد صارت اليوم علم انسجام النغمات المتواقة بعد أن كانت ابنة آريس وأفروديت<sup>(٢)</sup>. داعبت موت أوتار الفيولونسيل، ومررت بأطراف أصابعها بنعومة على ملامس البيانو، ولكنها هي وحدها من كانت قادرة على تمييز صوت الآلتين الموسيقيتين، حشارة طويلة وخفيضة أولاً، وزقرفة عصافير مقتضبة بعد ذلك، والصوتان كلاهما لا يمكن للأذان البشرية سماعهما، ولكنهما واضحان ومحددان لمن اعتادت منذ زمن طويل على تفسير معنى الحشرات. وهناك، في الحجرة المجاورة، سيكون الرجل نائماً. كان الباب مفتوحاً، وبالرغم من أن الظلام أكثر عمقاً مما هو عليه في قاعة الموسيقى، إلا أنه يتبع رؤية سرير وكتلة شخص مضطجع. تقدمت موت، اجتازت العتبة، ولكنها توقف متربدة حين أحسست بوجود كائنين حيين في حجرة النوم. ولأنها تعرف بعض وقائع الحياة، وإن لم يكن ذلك، كما هو طبيعي، من خلال التجربة الشخصية، فقد فكرت في أن مع الرجل رفيقة، وأن هناك

---

<sup>(٢)</sup> الإشارة هنا إلى هارمونيا Harmonie ابنة آريس وأفروديت، وزوجة قدموس، وقد تحول معنى اسمها في الموسيقى إلى الهارموني، أي تناقص النغمات وانسجامها.

شخصاً آخر ينام إلى جانبه، شخص لم ترسل إليه بعد رسالة بنفسجية، ولكنه شخص يتقاسم معه في هذا البيت عنق ملاءات السرير نفسها ودفعه الدثار نفسه. افترت موت أكثر، وكانت تلامس، إذا صح هذا القول، المنضدة الصغيرة الملائقة للسرير، ورأت أن الرجل كان وحيداً. ومع ذلك، إلى الجانب الآخر من السرير، كان ينام كلب متوسط الحجم متكوراً على نفسه فوق السجادة، فروه قاتم، وربما أسود. ستذذكر، وهي المرة الأولى التي تفاجئ فيها موت نفسها وهي تفكّر في أنها لا تنفع إلا في إماتة البشر، وأن ذلك الحيوان بعيد عن متداول منجلها الرمزي، ولا يمكن لسلطتها أن تمس به ولو بصورة خفيفة، ولهذا سيتحول هذا الكلب أيضاً إلى خالد، وسترى في ما بعد لكم من الوقت، إذا ما كانت موت المسؤولة عنه، موت الأخرى، المكفة بالكافئات الحية الأخرى، من حيوانات ونباتات، ستتغيب، مثلاً فعلت موت هذه، وستجد ذات يوم سبباً لأن تقول في نهاية هذا الكتاب، في اليوم التالي لم يمت أي كلب. تحرك الرجل، ربما كان يحلم، ربما لا يزال يعزف في الحلم مقطوعات شومان الثلاث وقد خرجت معه نغمة زائفة، فالفيولونسيل ليس مثل البيانو، فنغمات البيانو لها أمكانتها نفسها على الدوام، تحت كل ملمس من ملامسه، أما الفيولونسيل فيوزعها على امتداد الأوتار كلها، ولا بد من البحث عنها، تشبيتها، والإصابة في النقطة الدقيقة من الوتر، وتحريك القوس بالانحناء المحكمة والدقة المضبوطة، وبالتالي ليس هناك ما هو أسهل من الخطأ في نغمة أو اثنتين عندما يكون المرء نائماً. انحنت موت إلى الأمام لترى وجه الرجل بصورة أفضل، وفي هذه اللحظة خطرت لها فكرة عبقرية بالمطلق، فكرت في أنه يتوجب أن تُلصق في ملفات أرشيفها صور الأشخاص الذين تتحدث عنهم، ليس أي صورة عادية، وإنما صورة متقدمة علمياً يتم

تحديثها باستمرار وبصورة آلية، كل صورة منها في ملفها الخاص، بالطريقة نفسها التي يجري فيها تحديث معلومات وجود أولئك الأشخاص، ويجب أن تتحول صورة الشخص كذلك مع مرور الزمن، ابتداء من الطفل ذي البشرة المجعدة والبشرة الوردية بين ذراعي أمه، حتى هذا اليوم الذي نتساءل فيه إذا ما كنا حقاً أولئك الأطفال الذين كانواهم ذات يوم، أم أن جنبيًّا مصباح يأخذ باستبدالنا بأشخاص آخرين مع كل ساعة تمر. عاد الرجل للتحرك، يبدو أنه سيسقط، ولكن لا، فقد عاد تنفسه إلى إيقاعه العادي، الثلاث عشرة مرة المضبوطة في الدقيقة، يده اليسرى تستريح على القلب، كما لو أنها تتقصّت على النبضات، نبضة مفتوحة لأنبساط عضلة القلب، ونبضة مغلقة لأنقباضها، بينما اليد اليمنى، براحتها إلى أعلى وأصابعها منحنية قليلاً، تبدو كما لو أنها تنتظر يداً أخرى تأتي لمصالحتها. للرجل مظهر شخص أكبر سنًا من الخمسين عاماً التي أكملها، ربما لا يكون العمر، وإنما هو الإرهاق، والمصادفة الحزينة، ولكن هذا لا يمكننا معرفته إلا عندما يفتح عينيه. شعر رأسه غير مكتمل، وكثير من الشعر المتبقى صار أبيض. إنه رجل عادي، ليس قبيحاً ولا وسيماً. وبينما هو على هذه الحال التي نراه فيها الآن، مستلقياً على ظهره، مع سترة البيجاما المخططة التي لا تغطيها تماماً طيبة أعلى الدثار، لا يمكن لأحد أن يقول إنه عازف الفيولونسو الأول في أوركسترا المدينة السيمفونية، وأن حياته تنقضي منسلة بين الخطوط السحرية لدرج الكتابة الموسيقية، ومن يدري ما إذا كانت تتسل كذلك بحثاً عن قلب الموسيقى العميق، وقفّة، صوت، انقبض، انبساط. كانت موت لا تزال مستاءة من قصور نظام الاتصال البريدي مع هذه الحالة، ولكن دون السخط الذي كانت تشعر به وهي آتية إلى هنا، فهي تنظر إلى الوجه النائم وتفكر بالتباس في أنه كان يتوجب على هذا الرجل

أن يكون ميتاً، وأن هذا التنفس الناعم، شهيقاً وزفيراً، يجب أن يكون متوقفاً، وأن القلب الذي تحميـه الـيد الـيسـرى يجب أن يكون متوقفاً وفارغاً، معلقاً إلى الأبد في انقباض العضلة الأخير. لقد جاءت لترى هذا الرجل وقد رأته الآن، ولا وجود فيه لشيء خاص يفسـر إعادة الرسـالة البنـفسـجـية ثـلـاثـ مـرـاتـ، وأـفـضـلـ ماـ يـمـكـنـ عـمـلـهـ بـعـدـ هـذـاـ هوـ العـودـةـ إـلـىـ القـاءـةـ تـحـتـ الـأـرـضـيـةـ الـبـارـدـةـ الـتـيـ جـاءـتـ مـنـهـاـ لـتـكـتـشـفـ الطـرـيـقـةـ التـيـ تـجـهـزـ بـهـاـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ عـلـىـ المـصـادـفـةـ الـلـعـيـنـةـ التـيـ جـعـلـتـ منـ عـازـفـ الـفـيـوـلـونـسـيـلـ النـشـارـ هـذـاـ حـيـاـ بـذـاتـهـ. ومنـ أـجـلـ أـنـ تـنـخـسـ تـقـاضـهـاـ الذـاتـيـ وـالـمـنـحدـرـ، اـسـتـخـدـمـتـ موـتـ هـذـينـ التـعـبـيرـيـنـ الـفـطـيـنـ الـلـذـيـنـ يـتـأـلـفـ كـلـ مـنـهـمـاـ مـنـ كـلـمـتـيـنـ، الـمـصـادـفـةـ الـلـعـيـنـةـ، وـعـازـفـ الـفـيـوـلـونـسـيـلـ النـشـارـ، غـيـرـ أـنـ النـتـائـجـ لـمـ تـكـنـ بـمـسـتـوىـ النـيـةـ. فالـرـجـلـ النـائـمـ لـاـ يـتـحـمـلـ أـيـةـ مـسـؤـولـيـةـ عـمـاـ حدـثـ لـلـرـسـالـةـ الـبـنـفـسـجـيـةـ، وـهـوـ لـاـ يـتـخـيـلـ وـلـوـ بـأـوـهـيـ الـظـلـالـ أـنـ يـعـيـشـ حـيـاـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ حـيـاتـهـ، وـأـنـ لـوـ سـارـتـ الـأـمـورـ مـثـلـماـ يـتـوجـبـ لـهـ أـنـ تـسـيرـ، لـكـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـكـوـنـ مـدـفـونـاـ مـنـ ثـمـانـيـةـ أـيـامـ عـلـىـ الـأـقـلـ، وـلـكـانـ الـكـلـبـ الـأـسـوـدـ يـجـبـ الـمـدـيـنـةـ الـآنـ بـحـثـاـ عـنـ سـيـدـهـ كـمـجـنـونـ، أـوـ يـقـبـعـ بـلـاـ أـكـلـ وـلـاـ شـرـبـ عـنـ دـمـخـلـ الـعـمـارـةـ مـنـتـظـراـ عـوـدـتـهـ. أـفـلـتـ موـتـ نـفـسـهـاـ بـرـهـةـ، وـتـمـدـدـتـ مـنـتـشـرـةـ حـتـىـ الـجـدـرـانـ، مـلـأـتـ الـحـجـرـةـ كـلـهـاـ، وـاسـتـطـالـتـ مـثـلـ اـنـسـكـابـ سـائـلـ حـتـىـ غـرـفـةـ الـمـعـيشـةـ الـمـجاـوـرـةـ، وـهـنـاكـ تـوقـفـ جـزـءـ مـنـهـاـ لـيـتأـمـلـ دـفـتـرـ النـوـتـةـ المـفـتوـحـ عـلـىـ أـحـدـ الـكـرـاسـيـ، كـانـتـ تـلـكـ مـقـطـوـعـةـ السـوـيـتـ السـادـسـةـ مـنـ الـعـمـلـ أـلـفـ وـاثـنـيـ عـشـرـ رـيـ مـاجـورـ لـجـوهـانـ سـيـبـاستـيـانـ باـخـ، أـلـفـهاـ فـيـ كـوـتـيـنـ وـمـاـ كـانـتـ بـحـاجـةـ لـتـعـلـمـ الـمـوـسـيـقـىـ كـيـ تـعـرـفـ أـنـهـاـ كـتـبـتـ، مـثـلـ سـيـمـفـونـيـةـ بـتـهـوـفـنـ التـاسـعـةـ، عـلـىـ إـيـقـاعـ سـعـادـةـ الـبـشـرـ وـوـحـدـتـهـمـ، عـلـىـ إـيـقـاعـاتـ الـصـدـاقـةـ وـالـمحـبـةـ. عـنـدـئـذـ حدـثـ شـيـءـ لـمـ يـُرـ قـطـ، شـيـءـ لـاـ يـمـكـنـ تصـوـرـهـ، انهـارتـ موـتـ عـلـىـ رـكـبـتـيـهاـ، وـكـانـتـ هـيـ كـلـهـاـ الـآنـ جـسـداـ

استعاد قوامه، فكانت له ركيبان، وساقان، وقدمان، وذراعان، ويدان، ووجه تخفيه بين يديها، وكفان يرتعشان لسبب غير معروف، لأنه ليس بباء، ولا يمكن طلب هذا ممن ترك خلفها أثراً من الدموع أينما مرت، ولكن لا وجود بينها لدمعة واحدة منها. وهكذا، مثلما كانت، لا مرئية ولا غير مرئية، لا هيكلًا عظيمًا ولا امرأة، نهضت عن الأرض مثل نسمة ودخلت إلى الحجرة. لم يكن الرجل قد تحرك. وفكرت موت، لم يعد لدى ما أفعله هنا، سأذهب، فليس هناك ما يستحق المجيء مجرد رؤية رجل وكلب نائمين، ربما يحلم كل منهما بالآخر، الرجل يحلم بالكلب، والكلب بالرجل، الكلب يحلم بأن الصباح قد طلع وأنه يضع رأسه إلى جانب رأس الرجل، والرجل يحلم بأن الصباح قد طلع وأن ذراعه اليسرى تطوق جسد الكلب الدافئ والطري وتشده إلى الصدر. إلى جانب الخزانة التي يخفيفها الباب المطل على المر توجد أريكة، مضت موت للجلوس عليها. لم تقرر ذلك مسبقاً، ولكنها جلست عليها، في ذلك الركن، ربما لأنها تذكرت البرودة التي تكون عليها قاعة الأرشيف تحت الأرضية. صارت عيناهما على مستوى رأس الرجل النائم، تميز بروفيله المرسوم بدقة على خلفية الإضاءة البرتقالية الخفيفة التي تدخل من النافذة وتكرر بينها وبين نفسها بأنه لم يعد لديها أي مسوغ معقول للبقاء هناك، ولكنها تتذرع على الفور بأن لديها مسوغ، أجل، ومسوغ قوي، لأن هذا هو البيت الوحيد في المدينة، في البلاد، في العالم بأسره، الذي يوجد فيه شخص يخالف أشد قوانين الطبيعة صرامة، ذلك القانون الذي يفرض الحياة مثلاً يفرض الموت، القانون الذي لم يسألك إن كنت تريد العيش، ولن يسألك إن كنت تريد الموت. وفكرت، هذا الرجل ميت، كل من عليه أن يموت شاباً يأتي ميتاً مسبقاً، ولا يحتاج إلا إلى أن أوجه إليه لسة خفيفة بالإبهام أو أن أرسل إليه رسالة بنفسجية لا

يمكن له رفضها. وفكرت، هذا الرجل ليس ميتاً، سيسقط خلال ساعات قليلة، سيسقط كما في كل يوم، وسيفتح باب الفناء ليتمكن الكلب من افراج ما يحمله من فضلات في بدنـه، وسيتناول فطوره، وسيدخل الحمام ويخرج منه مرتاحاً، نظيفاً، حليقاً، وربما يخرج إلى الشارع مع الكلب ليشتريا معاً الصحيفة من الكشك الذي على الناصية، وربما سيجلس قبالة مسند النوتات الموسيقية ويعزف مرة أخرى مقطوعات شومان الثلاث، وإن كان لا يعرف في هذه اللحظة أنه شبه خالد لأن موت هذه التي تنظر إليه لا تدرى كيف ستقتله. غير الرجل وضعه، أدار ظهره للخزانة التي يخفيها الباب وترك ذراعه اليمنى تسقط في الجهة التي يقع فيها الكلب. وبعد دقيقة من ذلك استيقظ. إنه عطشان. أضاء مصباح الكوميدينيو، نهض، دس قدميـه في الخف الموجود، كالعادة، تحت رأس الكلب، وذهب إلى المطبخ لحقـت به موت. سـكـبـ الرجلـ مـاءـ فيـ كـأسـ وـشـربـ. وفيـ هـذـهـ اللـحظـةـ ظـهـرـ الـكـلـبـ،ـ وأـطـفـأـ ظـلـمـاءـ منـ الإنـاءـ المـوضـوـعـ إـلـىـ جـانـبـ الـبـابـ المـؤـديـ إـلـىـ الـفـنـاءـ ثـمـ رـفـعـ رـأـسـهـ نحوـ سـيـدـهـ.ـ قـرـيدـ الـخـرـوجـ طـبـعاـ،ـ قـالـ عـازـفـ الـفـيـوـلـونـسـيـلـ.ـ فـتـحـ الـبـابـ وـانتـظـرـ رـجـوعـ الـحـيـوانـ.ـ لـقـدـ ظـلـ فـيـ الـكـأسـ قـلـيلـ مـنـ الـمـاءـ.ـ نـظـرـتـ إـلـيـهـ مـوـتـ،ـ وـبـذـلتـ جـهـداـ عـظـيـماـ لـتـخـيـلـ مـاـ الـذـيـ يـعـنيـهـ الـظـمـاءـ،ـ وـلـكـنـهاـ لـمـ تـتـمـكـنـ مـنـ ذـلـكـ.ـ مـثـلـماـ لـمـ تـتـمـكـنـ مـنـ ذـلـكـ أـيـضاـ عـنـدـمـاـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ تـمـيـتـ أـنـاسـاـ مـنـ الـعـطـشـ فـيـ الصـحـراءـ،ـ وـلـكـنـهاـ لـمـ تـحاـولـ مـجـرـدـ التـفـكـيرـ فـيـ الـأـمـرـ آـنـذاـكـ.ـ بـعـدـ أـنـ رـجـعـ الـحـيـوانـ وـهـوـ يـهـزـ ذـيـلـهـ،ـ قـالـ الرـجـلـ،ـ فـلـنـذـهـبـ لـلـنـوـمـ.ـ وـرـجـعـ إـلـىـ الـحـجـرـةـ،ـ دـارـ الـكـلـبـ ثـلـاثـ لـفـاتـ وـتـكـورـ عـلـىـ نـفـسـهـ.ـ غـطـىـ الرـجـلـ جـسـمـهـ حـتـىـ الـرـقـبةـ،ـ سـعـلـ مـرـتـينـ،ـ وـبـعـدـ قـلـيلـ اـسـتـغـرـقـ فـيـ النـوـمـ.ـ كـانـتـ مـوـتـ تـتـظـرـ إـلـيـهـ وـهـيـ جـالـسـةـ فـيـ رـكـنـهـ.ـ بـعـدـ وـقـتـ طـوـيلـ مـنـ ذـلـكـ،ـ نـهـضـ الـكـلـبـ عـنـ السـجـادـةـ وـصـعدـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ.ـ وـعـرـفـتـ مـوـتـ أـوـلـ مـرـةـ فـيـ حـيـاتـهـ مـاـ

الذى يعنيه وجود كلب فى حضن أحدهم.

يمكن لأي شخص أن يمر بلحظات ضعف في الحياة، وإذا كنا لا نمر بها الآن، فإننا متأكدون من أنها ستحصل علينا في الغد. وبالطريقة نفسها التي نرى فيها وراء درع آخيل البرونزي قلباً عاطفياً ينبض، يكفي أن نتذكر ما عاناه البطل من الغيرة على امتداد عشر سنوات بعد أن سلبه أغاممنون حبيبته، السبية بريزيدا، ثم ذلك الغضب الرهيب الذي جعله يعود إلى الحرب صارخاً بصوت جهوري ضد الطرواديين عندما مات صديقه باتروكليس على يد هيكتور، وكذلك في أشد الدروع التي صنعت حتى اليوم متانة، مع الوعد بأنها ستظل كذلك حتى نهاية العصور - ونحن نشير الآن إلى هيكل موت العمسي - توجد على الدوام إمكانية أن يأتي يوم يراود فيه الضعف قدمها المخيف، وهكذا كمن هو غير راغب، يمكن لنغمة فيولونسيل ناعمة، لكركبة بيانو ساذجة، أو مجرد رؤية نوطة موسيقية مفتوحة على كرسي أن يجعلك تتذكرين ذاك الذي ترفضين التفكير فيه، بأنك لم تعيشي، وأنك مهما فعلت، لن تستطيعي العيش أبداً، اللهم إلا إذا. كنت قد تأملت باهتمام فاتر عازف الفيولونسيل نائماً، هذا الرجل الذي لم تتمكنني من قتله لأنك لم تصلي إليه إلا بعد أن كان الوقت قد فات، وكنت قد رأيت الكلب متکوراً على السجادة، وليس مسموماً لك ولو مجرد لمس هذا الحيوان، لأنك لست أنت مorte، وفي عتمة حجرة النوم الدافئة، أفاد هذان الكاثنان الحيان المستسلمان للنوم في زيادة وعيك بثقلك الحديدى. أنت من اعتدت على استطاعه ما لا يستطيعه أحد، وجدت نفسك هناك عاجزة، مقيدة

اليدين والقدمين، وتصريحك بالقتل، صفر صفر سبعة، بلا صلاحية في هذا البيت، لم تعرفي قطّ، منذ أن كنتَ موتاً، وأنت تعرفين بذلك، لم تعرفي مثل هذه المذلة. وكان أن خرجتَ عندئذ من حجرة النوم ودخلتَ إلى قاعة الموسيقى، وكان أن جثوتَ أمام مجموعة مقطوعات السويف السادس على الفيولونسيل لجوهان سيباستيان باخ وحركتْ كتفيكِ بتلك الحركة التي يرفقها البشر عادة بالبكاء المكبوت، وكان عندئذ، وركبتاك لا تزالان راكعتين على الأرض القاسية، أن تمدد ظل سخطكِ فجأة مثل الضباب عديم الوزن الذي تحولين إليه أحياناً عندما لا تريدين أن تكوني غير مرئية بالكامل. رجعت إلى حجرة النوم، لحقت بعازف الفيولونسيل حين ذهبَ إلى المطبخ ليشرب ماء وليفتح الباب للكلب، في البدءرأيته مضطجعاً ونائماً، والآن ترينـه مستيقظاً وواقفاً، وربما بفعل وهم بصري تسببه خطوط البيجامـا الطولانية، بدا أطول قامة منكِ، ولكن ذلك غير ممكـن، إنه خداع من العينين، تشويه للمنظور، وهناك منطق الأمور الذي يقول لنا إن الأكبر هي أنت أيتها الموت، أكبرـنا جميعـاً. أو ربما لست كذلك على الدوام، فربما تفسـر الأمور التي تحدثـ في العالم حسب المناسبـة، فالقمر المـبـهـرـ الذي يتذكرـهـ الموسيـقيـ من طفـولـتهـ، على سبيل المـثالـ، كان يمكنـ لهـ أن يـمـكـنـ دونـ أيـ أـثـرـ لوـ أنـ الموسيـقيـ كانـ نائـماًـ،ـ أـجلـ،ـ الأـمـرـ مـرـتـبـطـ بـالـمـنـاسـبـةـ،ـ لـأنـكـ أـنتـ صـرـتـ منـيـةـ صـفـيرـةـ حينـ رـجـعـتـ إـلـىـ حـجـرـةـ النـوـمـ وـجـلـسـتـ عـلـىـ الأـرـيـكـةـ،ـ وـصـرـتـ أـصـفـرـ أـيـضاـ حينـ نـهـضـ الـكـلـبـ عـنـ السـجـادـةـ وـصـدـعـ إـلـىـ حـضـنـكـ الـذـيـ هوـ أـشـبـهـ بـحـضـنـ طـفـلـةـ،ـ وـعـنـدـئـذـ خـطـرـتـ لـكـ فـكـرـةـ مـنـ أـجـمـلـ مـاـ يـكـونـ،ـ فـكـرـتـ فـيـ أـنـهـ مـنـ غـيرـ العـدـلـ أـنـ تـأـتـيـ مـوـتـ،ـ لـيـسـ أـنـتـ،ـ وـإـنـمـاـ مـوـتـ الـأـخـرـىـ،ـ أـنـ تـأـتـيـ ذاتـ يـوـمـ لـتـطـفـيـ جـمـرـ ذـلـكـ الدـفـءـ الـحـيـوـانـيـ النـاعـمـ،ـ هـكـذـاـ فـكـرـتـ،ـ مـنـ يـصـدـقـ ذـلـكـ،ـ أـنـتـ الـمـعـتـادـ عـلـىـ الـبـرـودـ الـقـطـبـيـةـ الشـمـالـيـةـ وـالـجـنـوـبـيـةـ

المنتشرة في القاعة التي أنت فيها الآن، وحيث صوت واجبك الفظيع يناديك، صوت واجبك بقتل ذلك الرجل الذي تبدو عليه، وهو نائم، تكشيرة مربرة لمن كانت لديه طوال حياته رفة بشرية حقاً في الفراش، وأنه توصل إلى اتفاق مع كلبه كي يحلم كل منهما بالآخر، الكلب يحلم بالرجل، والرجل يحلم بالكلب، وأن ينهض في الليل بالبيجاما ذات الخطوط كي يذهب إلى المطبخ ليطفي ظماء، طبعاً سيكون أكثر راحة له أن يحمل كأس ماء إلى الحجرة عند ذهابه للنوم، ولكنه لا يفعل ذلك، إنه يفضل مشواره الليلي القصير عبر الردهة حتى المطبخ، وسط سلام الليل وصمتة، مع الكلب الذي يمضي وراءه في كل مرة، ويطلب في بعض الأحيان الخروج إلى الفناء، وفي أحيان أخرى لا يطلب، لا بد لهذا الرجل من أن يموت، تقولين.

ومن جديد تحولت موت إلى هيكل عظمي ملتف بكفن، مع القلنسوة نصف المتهدلة إلى الأمام، بحيث يظل أسوأ ما في الجمجمة مغطى، ولكنه أمر لا يستحق الاهتمام، إذا كان هذا هو مصدر قلقها، لأنه لا وجود لأحد هنا يرتعب من المشهد القبوري، لاسيما وأن أطراف عظام اليدين والقدمين تظل ظاهرة للعيان، فالقدمان تستقران على بلاط الأرضية وتشعران ببرودته الجليدية، واليدان تتصرفان، كأنهما مكشط، صفحات المجلد الكامل لأنظمة الموت التاريخية، ابتداء من أول القوانين الذي كتب بكلمة واحدة وبسيطة، ستقتلين، حتىأحدث الإضافات والملاحق، حيث تتوارد متشابكة كل أساليب الموت وتتنوعاته المعروفة حتى الآن، والتي يمكن القول إن قائمتها لا تُستند أبداً. لم تفاجأ موت بالنتيجة السلبية لبحثها، والواقع أنه سيكون من غير الملائم، بل سيكون فوق ذلك غير مجدٍ أن تظهر في كتاب يحدد للجميع ولكل واحد من الجنس البشري نقطة نهاية،

خاتمة، الحكم المبرم عليه، الموت، أن تظهر فيه كلمات مثل حياة، عيش، مثل أعيش وسأعيش. فهناك لا يوجد متسع إلا للموت، ولا يمكن الحديث فيه عن فرضيات سخيفة حول تمكّن أحدّهم من الإفلات ذات مرة، ومرة واحدة يظهر زمن الفعل أنا عشتُ في ملاحظة غير ضرورية في أسفل الصفحة، ولكن مثل هذا المسعى لم تجر محاولته بجدٍ قط، مما يدفعنا إلى الاستنتاج بأن هناك مسوغات أكثر من قوية لأن لا يكون واقع أن المرء قد عاش أمراً يستحق أن يرد في كتاب الموت. ذلك أن التسمية الأخرى لكتاب الموت، ومن الملائم أن نعرف ذلك، هي كتاب العدم. أزاح الهيكل العظيم مجلد الأنظمة جانباً ونهض. قام بجولتين في القاعة، مثلاً يفعل عادة كلما احتاج إلى لب قضية ما، ثم فتح درج الأرشيف الذي فيه ملف عازف الفيولونسيل وأخرجه. هذه الحركة ذكررتها للتتوّأن هذه هي اللحظة المناسبة، وإن لم تتاح لنا أبداً، لتوضيح المظهر المهم المتعلق بسير عمل الأرشيف الذي هو محط اهتمامنا والذي لم ننوه به حتى الآن، وهذا إهمال من الرواذي يستحق اللوم. ففي المقام الأول، وخلافاً لما يمكن تخيله، فإن العشرة ملايين ملف الموجودة مرتبة في هذه الأدراج لم تملأ موتاً استمرارتها، لم تكن هي من كتبتها. لم يكن ينقصها إلا هذا، فموت هي موت، وليس مجرد كاتبة بالعدل عادية. فالملفات تظهر في أمكنتها على الفور، هذا يعني مرتبة أبجدياً، في اللحظة نفسها التي يولد فيها الشخص، وتحتفى في لحظة موته بالضبط. وقبل اختراع الرسائل البنفسجية، لم تكن موت تزعج نفسها بفتح الأدراج، فدخول الملفات وخروجها يتم على الدوام دون اختلاط ودون عقبات، ولا يوجد أي ذكر لوقوع أحداث مؤسفة كأن يقول بعضهم إنهم لا يريدون الولادة أو يعرض آخرون لأنهم لا يريدون الموت. ملفات الأشخاص الميتين تذهب، دون أن يأخذها أحد، إلى قاعة موجودة تحت هذه القاعة، أو أنها،

كلمة أدق، تأخذ مكانها في قاعات تحت أرضية تتواли في مستويات أعمق فأعمق في الطريق إلى مركز الأرض الناري، حيث سينتهي الأمر بهذه الأوراق كلها إلى الاحتراق ذات يوم. أما هنا، في قاعة موت والمنجل طويل الساق، فسيكون من المستحيل إقرار وجهة نظر مماثلة للتي تبناها ذلك القيم على السجل المدني الذي قرر أن يجمع في أرشيف واحد كافة الأسماء والأوراق التي تحت حراسته، الخاصة بالأحياء والأموات، متذرعاً بأنه يمكن لها، بجمعها كلها معاً، أن تمثل البشرية مثلاً يجب أن تفهم، ككل مطلق، بغض النظر عن الزمان والأمكنة، وأن إبقاء الأرشيف منفصلاً هو اعتداء على الروح. هذا هو الفارق الهائل القائم بين الموت هنا وذلك القيم الرصين على أوراق الحياة والموت، كما أن موت تحفي بازدراء من ماتوا اذراءً أولبياً، ولنتذكر الجملة القاسية التي تكررت مراراً، والقاتلية إن الماضي قد مضى، بينما يرى القيم بالمقابل، بفضل ما نسميه في اللغة الدارجة وعيَاً تاريخياً، أنه لا يتوجب فصل الأحياء عن الأموات أبداً، وأن العمل خلافاً لذلك، لا يُبقي الميتين ميتين إلى الأبد وحسب، بل إن الأحياء أيضاً سيعيشون حياتهم حتى النصف فقط، حتى لو امتدت هذه الحياة أطول من حياة نوح الذي توجد شكوك في أنه مات عن تسعين وتسع وستين عاماً مثلاً يقول العهد القديم التوراتي أو عن سبعين وعشرين عاماً مثلاً تؤكد التوراة السامرية. الحقيقة أنه لن يكون الناس جميعاً متفقين مع اقتراح الأرشفة الجريء للقيم على كل الأسماء الموجودة والتي ستوجد، ولكن، من أجل ما يمكن أن يكون مفيداً في المستقبل، نترك الأمر مودعاً هنا.

تفحص موت الملف ولا تجد فيه شيئاً لم تره من قبل، أي أنه سيرة حياة موسيقي يتوجب أن يكون ميتاً منذ أكثر من أسبوع وأنه، على الرغم من ذلك، مازال يحيا مطمئناً في منزله المتواضع كفنان،

مع كلبه الأسود الذي يصعد إلى أحضران السيدات، ومع البيانو والفيولونسيل، وظماء الليلي وبيجامته المخططة. ففكرت موت، لا بد من وجود طريقة لحل هذه المشكلة، والحل المفضل بالطبع هو التمكّن من إنهاء الموضوع دون ضجة كبيرة، ولكن لو كانت المراجع العليا تتفع في شيء، لو أنها ليست موجودة لتلقي التكرييم والتمجيد وحسب، وكانت لديها الآن فرصة جيدة لتبث أنها ليست غير مبالغة بمن هي هنا تحت، على الرضبة، تتجز العمل الصعب، فلتبدل تلك المراجع الأنظمة، ولتقر إجراءات استثنائية، ولتسمح إذا تطلب الأمر بالوصول إلى هذا الحد، في عمل تبدو شرعيته موضع ريبة، ولتسمح بأي شيء غير السماح لمثل هذه الفضيحة أن تستمر. المثير للفضول في القضية هو أنه ليس لدى موت أدنى فكرة عن تكون، بالتحديد، تلك المراجع العليا التي يتوجب عليها، كما هو مفترض، أن تحل لها المشكلة. صحيح أنها أتت في إحدى الرسائل التي سُترت في الصحافة، هي الرسالة الثانية إذا لم أكن مخطئاً، على ذكر موت كوني سينهني، لا أحد يعلم متى، كل مظاهر الحياة في الكون حتى آخر جرثومة فيه، ولكن هذا الأمر، فضلاً عن أنه بديهية فلسفية باعتبار أن لا شيء يدوم إلى الأبد، بما في ذلك الموت، فقد كان، بمصطلحات عملية، نتيجة استخلاصها الحس السليم، ويجري تداولها منذ زمن طويل بين المنيات الفرعية، وإن كان ينقصها الإثبات بمعارف مؤكدة عن طريق الاختبار والتجربة. والمنيات الفرعية تبذل الكثير للحفاظ على الإيمان بموت عام لم يقدم حتى اليوم أبسط إشارة إلى قدراته المتخيلة. ونحن، المنيات الفرعية، فكرت موت، من نعمل بجد حقاً، ننطّف الميدان من الزوائد اللحمية، والحقيقة أنني لن أفاجأ أبداً إذا ما جاء يوم يختفي فيه الكون بأسره، ليس نتيجة صيحة وقورة من الموت الكوني، تتردد أصواتها بين المجرات والثقوب السوداء، بل

كنتيجة أخيرة لتراتكم الميتات الصغيرة الخاصة والشخصية التي هي من مسؤولياتنا، ميتة فميته، كما لو أن دجاجة المثل السائر، بدل أن تملأ حوصلتها حبة فحبة، تفرغها ببلاهة حبة فحبة، وهذا ما يبدو لي أنه سيحدث للحياة، هي نفسها تعد العدة ل نهايتها ، دون أن تحتاج إلينا، دون أن تتضرر منا أن نعطيها دفعة صغيرة. إن حيرة موت وارتباكاها أكثر من مفهوم. فقد وضعوها في هذا العالم منذ زمن بعيد لم تعد تتذكر معه ممن تلقت التعليمات الضرورية لتوليهما النظامي للعمل الذي تؤديه. وضعوا أنظمة المهمة بين يديها، وأشاروا لها إلى كلمة ستقتلن على أنها المنارة الوحيدة لنشاطاتها، وطلبوها منها، ربما دون أن تتتبه إلى السخرية القبورية، أن تعيش حياتها. وراححت هي تعيشها معقدة أنها، في حالة الشك أو وقوع مشكلة، ستتجدد على الدوام من يعطي ظهرها، وأنه سيكون هناك أحد على الدوام، رئيس، مسؤول أعلى رتبة، دليل روحي، تطلب منه النصائح والتوجيه.

من غير المعقول مع ذلك، وهنا ندخل في التفحص البارد والموضوعي الذي صار يتطلبه وضع موت وعازف الفيولونسيل، أن يكون نظام معلومات بالغ الدقة كالذي حافظ هذا الأرشيف على ضبطه يومياً على امتداد ألفيات من السنين، يُحدّث معطياته باستمرار، يُظهر الملفات ويختفيها وفق الولادات والوفيات، ليس من المعقول، نكرر، أن يكون مثل هذا النظام بدائياً ومن طرف واحد، وأن مصدر المعلومات، أينما كان مكانه، لا يتلقى بدوره باستمرار المعطيات الناتجة عن نشاطات موت اليومية في ممارستها لوظيفتها. وإذا كان يتلقاها بالفعل ولا يبدي أي رد فعل على الخبر الاستثنائي بأن هناك من لم يمت في موعده المقرر، فلدينا أحد احتمالين، إما أن الواقع، خلافاً لمنطقنا وتوقعاتنا الطبيعية، لا تهمه وبالتالي لا يشعر بأنه مضطر إلى التدخل من أجل تحديد الخلل الذي ظهر في العملية،

أو سيفهم عندئذ أن موت، وخلافاً لما تظنه هي نفسها، لديها بطاقة بيضاء لأن تحل، على طريقتها، أي مشكلة تعرضها في عملها اليومي. كان من الضروري لهذه الكلمة، شك، أن ترد هنا مرة أو مرتين كي توقظ في ذاكرة موت أخيراً مقطعاً معيناً من الأنظمة لم يكن، بسبب كتابته بحروف صغيرة في أسفل إحدى الصفحات، يلفت انتباه الدارس، فما بالك ببقاءه ثابتاً في الذاكرة. تركت موت ملف عازف الفيولونسيل جانباً وعادت إلى الكتاب. كانت تعرف أن ما تبحث عنه لن تجده في الملاحق ولا في الإضافات، وأنه يجب أن يكون في القسم البدئي من الأنظمة، في أقدمها، وهي الأقل استشارة وبالتالي، مثلاً يحدث بصورة عامة مع النصوص التاريخية الأساسية، وهناك عثرت موت على المقطع المطلوب. وهو يقول ما يلي، في حالة الشك، يتوجب على موت المعنية، وفي أقصر مهلة ممكنة، أن تتخذ الإجراءات التي تتصح بها تجربتها السابقة بهدف إنجاز المطلوب بالحزم الذي يتوجب دوماً، في كافة الحالات وفي أي ظرف، أن يوجه سلوكها، هذا يعني إنهاء الحيوان البشرية عندما ينفد الزمن الذي خصص لها منذ الولادة، وإن كان عمل ذلك يتطلب اللجوء إلى أساليب أقل صرامة في حالات مقاومة غير طبيعية من جانب الشخص المعنى للقدر المرسوم، أو بفعل اجتماع ظروف شاذة ولم يلحظ توقعها في الزمن الذي وضع فيها هذه الأنظمة. الأمر أكثر وضوحاً من الماء، فموت طليقة اليدين للعمل كما تشاء. وهذا ليس بالأمر الجديد مثلاً يثبت التقسي الذي انطلقنا منه. وإذا لم يكن كذلك، فلنعد إلى البدء. فعندما قررت موت، بنفسها وعلى مسؤوليتها، وقف نشاطها منذ اليوم الأول من **قانون الثاني (ينايير)** من هذه السنة، لم تخطر لبالها فكرة أنه يمكن لرجع أعلى في سلم المراتب أن يطلب منها حساباً عن سخائها السخيف، كما أنها لم تفك في الاحتمال الكبير جداً

بأن يكون اختراع رسائلها البنفسجية الطريف قد نظر إليه بعين الاستثناء من المرجعية المذكورة وأخرى أعلى مقاماً منها. هذه هي مخاطر الممارسات الآلية، الروتين المنوم، البركسيس المتعة. فرأى شخص، أو موت نفسها، لا فرق في هذه الحالة، يقوم بعمله يوماً إثر يوم بدقة موسوسة، دون مشاكل، دون شكوك، مكرساً اهتمامه كله على إتباع القواعد الثابتة، فإذا ما مضى الزمن ولم يأت أحد ليدين أنفه في الطريقة التي يتولى فيها مسؤولياته، فمن المؤكد والمعروف أن الأمر سينتهي بهذا الشخص، وهو ما حدث لموت، إلى التصرف، دون أن ينتبه، كما لو أنه الملك والسيد المطلق في ما يفعله، وليس هذا وحسب، وإنما كذلك متى وكيف عليه أن يفعل ذلك. وهذا هو التفسير العقلاني الوحيد في أن موت لم تعتبر نفسها بحاجة إلى طلب إذن من المراتب العليا عندما اتخذت القرارات الخطيرة التي نعرفها ووضعتها موضع التطبيق، وهي القرارات التي لولاها ما كان لهذه القصة، السعيدة أو التعيسة، أن توجد أصلاً. المسألة أنها لم تفك في هذا كله من قبل. والآن، وبصورة متناقضة ظاهرياً، في اللحظة التي لا تتسع لها نفسها من السعادة لأنها اكتشفت أن سلطة التصرف بالحيوات البشرية هي رهن يدها وليس عليها أن ترضي أحداً بعملها، لا اليوم ولا في أي وقت على الإطلاق، إنها اللحظة التي يهدد فيها دخان المجد بأن يُغشى بصرها، ولا تتمكن من تجنب هذا التأمل الحذر الخاص بالشخص الذي كان على وشك أن يُفاجأ وهو يرتكب خطأ، ويتوصل بطريقة إعجازية إلى الإفلات في اللحظة الأخيرة، لقد نجوت من هذا الخطأ.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن موت التي تنهض الآن عن الكرسي هي إمبراطورة. لا يتوجب عليها أن تكون في هذه القاعة تحت الأرضية الجليدية، كما لو أنها مدفونة حية، وإنما أن تترأس

مصير العالم من فوق قمة أعلى جبل، تتأمل القطبيع البشري بعطف، ترى كيف يتحرك ويموج في كل الاتجاهات دون أن يدرك أنها كلها تؤدي إلى المصير نفسه، وأن خطوة إلى الوراء تقربه من الموت بقدر ما تقربه منه خطوة إلى الأمام، وأن كل شيء مشابه لكل شيء لأن لكل شيء نهاية، هذا ما يتوجب على جزء منه أن يفكر فيه على الدوام وهو العلامة السوداء على إنسانيتك التي لا خلاص منها. كانت موت تمسك بيدها ملف الموسيقي. إنها واعية أنه عليها أن تفعل به شيئاً ما، ولكنها مازالت لا تعرف ما الذي ستفعله. يتوجب عليها في المقام الأول أن تهدأ، وأن تفك في أنها ليست الآن موتاً أكثر مما كانته من قبل، وأن الفرق الوحيد بين اليوم والأمس هو أنه صار لديها يقين أكبر بما هي عليه. وفي المقام الثاني، واقع تمكناها أخيراً من ضبط حساباتها مع عازف الفيولونسيل لا يشكل سبباً لنسيان إرسال رسائل هذا اليوم. فكرت في ذلك، وعلى الفور ظهر على المنضدة مئتان وأربعة وثمانون ملفاً، نصفها لرجال ونصفها لنساء، وظهرت معها مئتان وأربع وثمانون ورقة رسالة ومئتان وأربعة وثمانون ملفاً. عادت موت للجلوس، أزاحت ملف الموسيقي جانباً وبدأت الكتابة. وقد أسلقت ساعة رملية، ثُوقت لأربع ساعات، آخر حبة رمل فيها في اللحظة نفسها التي انتهت فيها موت من توقيع الرسالة المئتين وأربع وثمانين. وبعد ساعة من ذلك كانت الملفات قد أغلقت وصارت جاهزة للإرسال. بحثت موت عن الرسالة التي أرسلت ثلاث مرات وأعيدت ثلاث مرات، ووضعتها فوق كومة الملفات البنفسجية، وقالت لها، سأمنحك فرصة الأخيرة. قامت بالإيماءة المعهودة بيدها اليسرى فاختفت الرسائل. لم تكن قد انقضت خمس ثوان عندما عادت رسالة الموسيقي، بصمت، إلى الظهور فوق المنضدة. فقالت لها موت، أنت شئت هذا، وسيكون لك ما شئت. شطبت تاريخ ميلاد الموسيقي من الملف وجعلته بعد سنة

مما كان عليه، ثم صحت السن، فحذفت رقم خمسين المكتوب وجعلته تسعة وأربعين. لا يمكنك فعل ذلك، قال لها المنجل طويل الذراع، لقد فعلته وانتهيت، ستترتب عليه نتائج، بل نتيجة واحدة فقط، ما هي، موت عازف الفيولونسيل اللعين أخيراً، هذا الذي يتسلى على حسابي، ولكن الرجل المسكين يجهل أنه كان عليه أن يكون ميتاً، الأمر بالنسبة لي كما لو أنه يعرف، أيّاً يكن الأمر، ليس لك سلطة التعديل في الملفات، إنك مخطئ فيها المنجل، فلدي كل السلطات وكامل الأهلية، فأنا موت، وسجل عندك أنتي لم أكن كذلك قطّ مثلاً أنا عليه ابتداء من هذا اليوم، أنت لا تعرفين ما الذي تحشرين نفسك فيه، حذرها المنجل، هناك مكان وحيد في العالم لا يمكن لموت أن تحشر نفسها فيه، أي مكان هذا، إنه ما يسمونه إجازة الرماد، أو الصندوق، أو القبر، أو التابوت، أو النعش، أو الضريح، أو الرجمة، هناك لا أدخل أنا، لأن الأحياء وحدتهم هم من يدخلون هناك، بعد أن أقتلهم أنا طبعاً، كلمات كثيرة من أجل شيء وحيد كثيف، إنها عادة هؤلاء البشر، فهم لا يقولون أبداً ما يريدون قوله دفعة واحدة.

موتٌ لديها خطة. واستبدالها سنة موت الموسيقي لم يكن سوى الحركة الابتدائية من عملية سلجاً فيها، ويمكن لنا أن نستبق ذلك منذ الآن، إلى استخدام وسائل استثنائية بالطلاق، لم تُستخدم قطّ على امتداد تاريخ علاقات الجنس البشري مع عدوته اللدود. فكما في لعبة شطرنج، تقدمت موت بالملكة. وبعد بعض حركات أخرى ستفتح الطريق إلى كش مات وتنتهي اللعبة. الآن يمكن السؤال لماذا لم ترجع موت إلى الوضع الذي كان سائداً من قبل، عندما كان الناس يموتون ببساطة لأنّه عليهم أن يموتوا، دون انتظار أن يأتيهم ساعي البريد بالرسالة البنفسجية. للسؤال منطقته، ولكن الجواب لن يكون أقل منطقية. الأمر يتعلق في المقام الأول بمسألة عزة نفس، حماسة، كرامة مهنية، لأنّ عودة الموت، أمام عيون العالم بأسره، إلى براءة تلك الأذمنة سيكون أشبه باعتراف بالهزيمة. وحيث إن العملية سارية المفعول اليوم هي الرسائل البنفسجية، فلا بد لعازف الفيولوننسيل من أن يموت بهذه الطريقة. يكفي أن نضع أنفسنا مكان الموت كي ندرك طيبة مسوغاتها. من الواضح أن المشكلة الكبرى، مثلاً أتيحت لنا فرصة رؤيتها أربع مرات، هي جعل الرسالة المتعبة تصل إلى مستقرها، وهنا، من أجل التوصل إلى إنجاز الهدف المنشود، تدخل في العمل الوسائل الاستثنائية التي تحدثنا عنها أعلاه. ولكننا لن نستبق الواقع، وسنراقب ما الذي تفعله موت في هذه اللحظة. فموت، في هذه اللحظة بالذات، لا تفعل شيئاً أكثر مما كانت تفعله على الدوام، هذا يعني، وباستخدام تعبير شائع، تمضي هناك، وإن يكن

من الأدق القول إن موت موجودة، بدل تمضي. في آن واحد، وفي كل مكان. لا تحتاج إلى الركض وراء الأشخاص للإمساك بهم، فهي موجودة على الدوام حيث يوجدون. والآن، بفضل أسلوب الإشعار بالراسلة، يمكن لها البقاء مطمئنة في القاعة تحت الأرضية وانتظار أن يتولى البريد القيام بالعمل، ولكن طبيعتها أشد قوة، وهي تحتاج إلى الشعور بأنها حرة، طليقة. مثلما كانت تقول التعاليم القديمة، دجاجة الريف لا تحتاج إلى حظيرة. وبالتالي فإن موت تمضي، بالمعنى المجازي، في الريف. لن تعود إلى الواقع في البلاهة، أو في الضعف الذي لا يغتفر بكبح أفضل ما فيها، أي قدرتها غير المحدودة على التمدد، ولهذا لن تكرر العملية المجهدة في التركيز على العتبة الأخيرة لما هو مرئي والبقاء عندها، دون أن تعبّر إلى الجانب الآخر، مثلما فعلت في الليلة السابقة، والله يعلم بأي ثمن، خلال الساعات التي أمضتها في قاعة الموسيقى. ولأنها حاضرة في كل الأمكنة، مثلما قلنا ألف مرة ومرة، فإنها حاضرة هناك أيضاً. الكلب ينام في الفناء، تحت الشمس، بانتظار عودة سيده إلى البيت. فهو لا يدري إلى أين ذهب ولا ما الذي يفعله، وفكرة تتبع أثره، إذا كانت قد راودته ذات مرة، هي أمر لم يعد يفكر فيه، لأن الروائح الطيبة والكريهة كثيرة ومحمتلة جداً في مدينة عاصمة. ونحن لا نفكّر أبداً في أن ما تعرفه الكلاب عنا هي أمور أخرى لا تتوفر لدينا عنها أدنى فكرة. أما موت فتعرف أن عازف الفيولونسيل يجلس على منصة مسرح، إلى يمين قائد الأوركسترا، في المكان المخصص للآلية الموسيقية التي يعزف عليها، تراه يحرك القوس بيده اليمنى البارعة، وترى يده اليسرى، يسرى ولكنها لا تقل براعة عن الأخرى، تصعد وتنزل على امتداد الأوتوار، مثلما تفعل هي بصورة نصف غائمة، بالرغم من أنها لم تتعلم موسيقى، ولا حتى أدنى مبادئ الصولفاج، ما يسمى ثلاثة بأربعة. أوقف

قائد الأوركسترا التدريب، طرق عصاه على حافة حاملة النotas من أجل تقديم تعليق، وأصدر أمراً، إنه يريد من عازفي الفيولونسيل، ومن عازفي الفيولونسيل بالتحديد، أن يجعلوا آلاتهم تسمع في هذا المقطع دون أن يbedo أنها تُعزف، نوع من أحجية سمعية يbedo على الموسيقيين أنهم قد حلّوها دون صعوبة، هكذا هو الفن، فيه أمور تبدو للدنيويين مستحيلة تماماً ولا تكون كذلك في نهاية المطاف. كانت موت، ولا حاجة بنا إلى قول ذلك، تملأ المسرح حتى أعلى، حتى رسوم السقف الرمزية والنجفة الهائلة المطفأة الآن، ولكن نقطة الرؤية التي تفضلها في هذه اللحظة هي شرفة فوق مستوى المنصة، مقابلة، وإن يكن بصورة منحرفة قليلاً، لمجموعات الآلات الوتيرية ذات النغمات الخفيفة، الفيولات، وهي الأكثر انخفاضاً في أسرة الكمانات، والفيولونسيلات التي هي ضمن الآلات الخفيفة الأكثر جهراً، وتُعتبر أثخنها صوتاً. إنها جالسة هناك على مقعد صغير مغلف بمحمل قرمزي، تنظر بثبات إلى الفيولونسيل الأول، ذاك الذي رأته ينام مستخدماً بيجامة مخططة، ذاك الذي لديه كلب ينام في هذا الوقت تحت الشمس في فناء البيت بانتظار عودة صاحبه. ذاك الذي هو رجل، موسيقي، ولا شيء أكثر من موسيقي، مثلما هم قرابة مئة رجل وامرأة يجلسون بانتظام في نصف دائرة قبالة ساحر القبيلة الخاص بهم، أي قائد الأوركسترا في هذه الحالة، وسوف يتلقون في بيوتهم ذات يوم آت، من ذات أسبوع وشهر وسنة في المستقبل، سيتلقون الرسالة البنفسجية ويتركون المكان فارغاً إلى أن يأتي عازف كمان آخر، أو عازف فلوت، أو ترمبون، ليجلس على الكرسي نفسه، وربما مع ساحر آخر يحرك عصاه كرقية للأصوات، الحياة هي أوركسترا في عزف متواصل، عزف متناسق أو نشاز، هي تابتنا تفرق باستمرار وتعود على الدوام إلى السطح، وحينئذ يكون أن تفكرون موت في أنها

ستظل بلا عمل تعمله إذا ما لم تستطع السفينة الغارقة الصعود مغنية ذلك النشيد الاستحضارى للأمواه التي تسيل على جانب السفينة، مثلما يتوجب أن يكون قد حدث، في انزلاق بنعومة خرير آخر يسببه تموج جسد الربة، لأمفيتريت<sup>(١)</sup> في لحظة ولادتها الوحيدة، لتحويلها إلى تلك التي تجوب البحار، وهذا هو معنى الاسم الذي أطلقوه عليها. وتساءل موت أين هي الآن أمفيتريت، ابنة نيريوس ودوريس، أين هي التي لم توجد قط في الواقع، وسكنت الذهن البشري لوقت قصير لتخلق فيه، لزمن قصير أيضاً، طريقة معينة وخاصة لمنح العالم مغزى، للبحث عن فهم لهذا الواقع بالذات. ولم يفهموه، فكرت موت، ولن يفهموه مهما فعلوا، لأن كل شيء في حياتهم مؤقت، كل شيء غير ثابت، كل شيء بلا علاج، الآلة، البشر، ما كان قد انتهى، وما هو كائن الآن لن يكون إلى الأبد، وحتى أنا نفسي، موت، سأنتهي عندما لا أجده من أميته، سواء بالطريقة التقليدية أم بالراسلة. نحن نعلم أنها ليست المرة الأولى التي تمر فيها فكرة مثل هذه عبر ما تفكّر هي فيه، أيًا كان، ولكنها المرة الأولى يسبب لها التفكير فيه شعوراً براحة عميقـة، مثل شخص أنهى عمله ويضطجع ببطء ليستريح. وفجأة صمتت الأوركسترا، ولم يعد يسمع سوى الفيولونسـيل بخفوت، هذا يسمى صولو، إنه صولو متواضع لن يستمر لأكثر من دقيقتين، إنه كما لو أن القوة التي استحضرها الساحر قد انتصبت صوتاً، تتكلم مصادفة باسم جميع أولئك المحافظين بالصمت الآن، قائد الأوركسترا نفسه ثابت بلا حراك، ينظر إلى ذلك الموسيقي الذي ترك مفتوحاً على كرسي دفتر نوتة السويت السادسة من العمل ألف واثني عشر ربيماً جور لجوهان سيباستيان باخ، السويت التي لن يعزفها هو أبداً في هذا المسرح، لأنه مجرد عازف فيولونسـيل في أوركسترا، وإن يكن

---

<sup>(١)</sup> إله البحر عند الإغريق، وقد اخطفها الإله نبتون (بوزيدون) وتزوجها.

الأول في فريقه، وليس واحداً من عازفي الكونشرتو المشهورين الذين يجوبون العالم بأسره عازفين ومقدمين مقابلات، متلقين زهوراً وتصفيقاً وتكريماً وأوسمة، وهو محظوظ جداً لأن تخرج له مرة أو مرتين بضع نغمات يعزفها وحيداً، فقد تذكر مؤلف موسيقي كريم هذا الجانب من فرقة الأوركسترا، حيث قليلة هي الأمور الخارجة عن الروتين التي تحدث عادة. وعندما ينتهي التدريب سيحفظ الفيولونسيل في علبه ويرجع إلى بيته في سيارة أجرة من تلك التي فيها محفظة حقائب كبيرة، وربما سيعمد هذه الليلة، بعد تناول العشاء، إلى فتح نوته سوية باخ على مسند النوتات، ويتنفس بعمق ويلامس الأوتار بالقوس كي تأتي النغمة الأولى المتولدة لتواسيه من ابتدال العالم الذي لا سبيل إلى إصلاحه، وتجعله النغمة الثانية ينساها إذا أمكن، لقد انتهى عزف الصولو، وطفت آلات الفرقة كلها على آخر أصداء الفيولونسيل، وعاد الساحر، بحركة آمرة من عصاه، إلى دوره كمتضرع للأرواح الصوتية الرنانة ودليل لها. أحسست موت بالفخر لجودة عزف عازفها على الفيولونسيل. وكما لو أنها أحد أفراد الأسرة، الأم، الأخت، الخطيبة، وليس الزوجة، لأن هذا الرجل لم يتزوج قطّ.

خلال الأيام الثلاثة التالية، وباستثناء الوقت اللازم للذهاب مسرعة إلى القاعة تحت الأرضية، وكتابة الرسائل بأقصى سرعة وإرسالها إلى البريد، تحولت موت إلى ما هو أكثر من ظل للموسيقي، بل إلى الهواء نفسه الذي يتفسّه. فالظل يعني عيناً خطيراً، إنه يفقد مكانه، ولا يمكن إدراكه عندما يفتقد مصدراً مضيئاً. تنقلت موت معه في سيارة الأجرة التي تتقلّه إلى البيت، ودخلت معه حين دخل، وتأملت برفق تدفق ابتهاج الكلب لمجيء سيده، واستقرت بعد ذلك مثلما يفعل شخص مدعو. والأمر بسيط لمن هو بلا حاجة إلى الحركة،

فسیان لديه الجلوس على الأرض أو الصعود إلى أعلى خزانة. كان تدريب الأوركسترا قد انتهى متأخراً، قبل قليل من حلول الليل. قدم عازف الفيولونسیل الطعام للكلاب، وأعدّ بعد ذلك عشاءه من محتويات علبتين فتحهما وسخن ما يحتاج إلى تسخين، ثم وضع شرشفاً على منضدة المطبخ، ووضع أدوات المائدة والفوطة، وسكب نبيذاً في كأس، ودون تسرع، وكما لو أنه يفكّر في شيء آخر، أدخل أول شوكة ممتلئة بالطعام إلى فمه. ربع الكلب إلى جانبه، فقد يترك السيد بعض البقية في طبقه ويمكن أن تقدم إليه تلك البقية باليد وتكون بمثابة تحلية له. تنظر موت إلى عازف الفيولونسیل. لم تكن تميّز في البدء بين أشخاص قبيحين وأشخاص وسيمين، ربما لأنها لم تكن تعرف من نفسها شيئاً آخر غير الجمجمة التي هي عليها، ولديها ميل لا يُقاوم لإبراز جمامتها من تحت اللحم الذي يمنحك المظهر. وفي العمق، في العمق، والحقيقة تتطلب قول ذلك، جميعنا نبدو لعيون الموت قبيحين بالطريقة نفسها، حتى في الوقت الذي كنا فيه ملوك جمال أو ملوك ما يعادل ذلك بصيغة التذكير. إنها تقدّر أصابعه القوية، وترى أن رؤوس أصابع يده اليسرى راحت تتصلب شيئاً فشيئاً إلى أن صارت قاسية ربما كالثاليل، فالحياة فيها هذا النوع وغيره من الجور، وانظر حالة هذه اليد اليسرى التي تتحمل مسؤولية العمل الأقسى على الفيولونسیل، وتتلقي من الجمهور تصفيقاً أقل بكثير من الذي تتلقاه اليد اليمنى. بعد الانتهاء من العشاء، غسل الموسيقي يديه، وطوى الشرشف والفوطة بعناية ووضعهما في أحد أدراج الخزانة، وقبل خروجه من المطبخ نظر في ما حوله ليرى إن كان هناك شيء ظل خارج مكانه. لحق به الكلب إلى قاعة الموسيقى، حيث كانت موت بانتظاره. وخلافاً للافتراض الذي توقعناه في المسرح، لم يعزف الموسيقى سویت باخ. ففي أحد الأيام، بينما هو يتداول الحديث مع

بعض زملاؤه في الأوركسترا ويتكلمون بصوت خافت عن إمكانية تأليف صور موسيقية، صور حقيقة، وليس أنماطاً، كصور صمويل غولدينغ وشمويل، وموسورغسكي، وخطر له أن يقول إن صورته، في حال وجودها في الموسيقى، لن توجد فيها أية نغمات من الفيولونسيل، ولكنها ستوجد في دراسة مقتضبة لشوبان، في العمل الخامس العشرين، رقم تسعه، صول بيمول ماجور. أراد زملاؤه معرفة السبب، فأجاب بأنه لا يمكن من رؤية نفسه في أي شيء أكثر مما يراها في ما كتب في نوته وأن هذا السبب في رأيه هو أفضل الأسباب. وأن شوبان قد قال في ثمان وخمسين ثانية كل ما يمكن قوله عن شخص لا يمكن له أن يكون قد تعرف إليه. ولعدة أيام، ظل الظرفاء منهم، وبمداعبة لطيفة، يسمونه ثمان وخمسين ثانية، لكن اللقب كان طويلاً جداً بحيث لا يمكن له الاستمرار، ولأنه لا يمكن إقامة أي حوار كذلك مع شخص قرر التمهل ثمان وخمسين ثانية قبل الرد على ما يسألونه عنه. وانتهى الأمر بعازف الفيولونسيل إلى كسب تلك المعركة الودية. وكما لو أنه أحس بأن هناك حضوراً ثالثاً في البيت، وأنه عليه أن يتحدث إليه، لأسباب لا يمكن تفسيرها، عن نفسه، وكيلا يضطر إلى إلقاء الخطبة الطويلة التي تحتاجها حتى أبسط حياة كي يقول عن نفسه شيئاً يستحق العناء، جلس عازف الفيولونسيل إلى البيانو، وبعد توقف قصير، من أجل أن يتخذ الحضور وضعية مريحة، بدأ عزف المقطوعة. لم يبدُ على الكلب الرا巴士 عند مسند النوته وشبه الغافي أنه يولي اهتماماً للعاصفة الصوتية التي انطلقت فوق رأسه، ربما لأنه سمعها في مرات سابقة، وربما لأنها لا تضيف شيئاً إلى ما يعرفه عن سيده. أما موت التي كانت قد سمعت، بحكم المهمة، معزوفات موسيقية كثيرة أخرى، لاسيما المارش الجنائزي لشوبان نفسه، أو المقطع البطيء جداً من سيمفونية بهوفن

الثالثة، فقد أدركت أول مرة في حياتها الطويلة جداً ما يمكن أن تكون عليه الرابطة المكتملة بين ما يقال والطريقة التي يقال بها. لم يكن يهمها في شيء أن تكون تلك هي الصورة الموسيقية لعازف الفيولونسيل، والاحتمال الأكبر هو أن التشابهات المزعومة، سواء الفعلية أو المتخيلة، إنما اصطنعها هو في رأسه، لكن ما أثر في موت هو ما بدا لها من أنها سمعت في تلك الثمانين والخمسين ثانية من الموسيقى أفالاً إيقاعياً وميلودياً لكل حياة البشرية على انفراد وللحيوانات جميعها معاً، العادية منها والاستثنائية، بفعل إيجازها المأساوي، بفعل كثافتها اليائسة، وكذلك بسبب ذلك التوافق النهائي الذي كان مثل نقطة وقف معلقة في الهواء، في الفراغ، في أي مكان، كما لو أنه مازال هناك، بصورة لا مفر منها، شيء آخر لقوله. كان عازف الفيولونسيل قد وقع في إحدى الخطايا البشرية التي قلما تُفتر، خطيئة الزهو، عندما تخيل أنه يرى هيئته الخاصة والحصرية في صورة يتواجد فيها الجميع في نهاية المطاف، هو على كل حال زهو، إذا ما أمعنا النظر فيه، إذا ما دققنا جيداً، إذا نحن لم نبق على سطح الأشياء، يمكن أن يُفسر بالطريقة نفسها كمظهر لنقيضه الجذري، أي المذلة، لأنني أنا أيضاً، على اعتبار أن هذه هي صورة الجميع، يجب أن أكون مصوراً فيها. ترددت موت، ولم تستطع حسم أمرها بين الزهو والمذلة، ومن أجل بلوغ التعادل، من أجل الخروج من التردد، شغلت نفسها في مراقبة الموسيقي، آملة أن يكشف لها تعبير الوجه عن العيب، أو ربما تعبير اليدين، فاليدان كتابان مفتوحان، ليس لقراءة الكف، المزعومة أو الحقيقة، بخطوطها الخاصة بالقلب والحياة، أجل، بالحياة، ما سمعتموه صحيح أيها السادة، بالحياة، وإنما لأنهما تتكلمان عندما تنفتحان أو تطبقان، عندما تداعبان أو تضريان، عندما تمسحان دمعة أو تحفيان بسمة،

عندما تحطان على الكتف، أو تعبّران عن وداع، عندما تعملان، عندما تهدآن، عندما تنامان، عندما تستيقظان، وعندئذ، بانتهاء المراقبة، انتهت موت إلى أنه ليس صحيحاً أن نقىض الزهو هو المذلة، حتى لو أقسمت على ذلك كل معاجم العالم، يا للمعاجم المسكينة، فهي تريد أن تحكم نفسها وتحكممنا نحن بكلمات موجودة، بينما هي كثيرة تلك التي مازالت ناقصة، مثل هذه التي ستكون النقىض الفعال لكلمة زهو، وهي ليست بأي حال مع ذلك حال الرأس المنخفض للمذلة، إنها تلك الكلمة التي نراها مكتوبة بوضوح في وجه ويدي عازف الفيولونسيل، ولكنها عاجزة عن إخبارنا باسمها.

كان اليوم التالي يوم أحد. ومن عادة عازف الفيولونسيل حين يكون الطقس حسن الوجه، مثلما هو اليوم، أن يخرج في الصباح للنزهة إلى إحدى حدائق المدينة برفقة كلبه وكتاب أو كتابين. الحيوان لا يبتعد كثيراً عن سيده أبداً، حتى عندما تدفعه الغريزة للتنتقل من شجرة إلى شجرة متسلماً بول أبناء جنسه. فيرفع قائمته بين حين وآخر، ولكنه يتوقف عند هذا الحد في ما يتعلق بإرضاء حاجاته الخروجية. فهذه الحاجات التكميلية، من أجل تسميتها بطريقة ما، يحلها بانضباط في فناء البيت الذي يعيش فيه، ولهذا لا يجد عازف الفيولونسيل نفسه مضطراً إلى اللحاق به من أجل التقاط الفضلات في كيس بلاستيكي باستخدام رفش صغير مصمم خصيصاً لهذا الغرض. قد يكون ذلك مثلاً باهراً على نتائج حسن التربية الكلبية لولا الظرف الاستثنائي في أن الأمر كان فكرة خاصة من هذا الحيوان بالذات، لأنه يرى أن موسيقياً، عازف فيولونسيل، فناناً يبذل جهده ليتوصل إلى أن يعزف بجدارة السوية السادسة من العمل ألف واثني عشر ري ماجور لباخ، يرى، كما قلنا، إنه من غير اللائق لموسيقي، لعازف فيولونسيل، لفنان أن يكون قد أتى إلى الدنيا كي

يرفع عن الأرض براز كلبه أو أي كلب آخر مازال يتصاعد منه البخار. إنه أمر غير مناسب، قال هذا الكلب في أحد الأيام وهو يتبادل الحديث مع سيده، وباح، على سبيل المثال لم يفعل ذلك قط. وقد رد عليه الموسيقي بأن الأذمنة تغيرت كثيراً منذ ذلك الحين، ولكنه لم يجد بداً من الاعتراف بأن باخ لم يفعل ذلك قط بالفعل. ومع أن الموسيقي محب للأدب عموماً، ويكتفي النظر إلى الرفوف الوسطى من مكتبه للتأكد من ذلك، إلا أن لديه ميلاً خاصاً إلى كتب الفلك والعلوم الطبيعية أو الطبيعة، وقد خطر له أن يحمل معه اليوم مرجعاً في علم الحشرات. وهو لا يأمل الخروج بفائدة كبيرة من الكتاب، بسبب قصور في الاستعداد المسبق، ولكنه يتسلى بقراءة أن هناك في العالم قرابة مليون جنس من الحشرات وأنها تقسم إلى مجموعتين، الجنحات، وهي المزودة بأجنحة، وعديمات الأجنحة، وهي غير المزودة بها، وتُصنف في مستويات الأجنحة، مثل الجراد، وعديمات الأجنحة، مثل الصرصار، والمانتيديوس، مثل فرس النبي، وشبكيات الأجنحة، مثل الجدجد المذهب، والرعاشات، مثل اليغسوب، وسريرعات الزوال، مثل ذبابة بنت يوم، وثلاثيات الأجنحة، مثل يرقة الماء، ومتساويات الأجنحة، مثل الأرضة، والماصات، مثل البرغوث، وعديمات الأجنحة، مثل القمل، والمالوفاجيات، مثل قمل الطيور، ومغاربات الأجنحة، مثل البقة، ونصفيات الأجنحة، مثل قملة النبات، ومزدوجات الأجنحة، مثل الذبابة، وغضائيات الأجنحة، مثل الزنبور، وحرشفيات الأجنحة، مثل فراشة الجمجمة، ومغمدات الأجنحة، مثل الجعل، وأخيراً هدبيات الأجنحة، مثل سميكـة الفضة. وحسب ما يمكن رؤيته في صور الكتاب، فإن فراشة الجمجمة هي جنس فراشات، اسمها اللاتيني *Acherontia Atropos*. إنها ليلية، ويوجد على الجزء الظاهري للفراشة رسم يشبه الجمجمة البشرية، تصل إلى اثنى عشر سنتيمتراً

عند بسط جناحيها وهي ذات تدرجات لونية قاتمة، والجناحان الخلفيان أصفران وأسودان. ويسمونها كذلك أتروبوس، أي موت. الموسيقي لا يعرف، ولا يمكنه أن يتصور قطّ، أن موت تنظر مفتونة من فوق كتفه إلى صورة الفراشة الملونة. مفتونة ومرتبكة أيضاً. علينا أن نتذكر أن موت المكلفة بتحويل حياة الحشرات إلى لا حياة، أي قتلها بكلمة أخرى، هي موت أخرى، وليس هذه، وعلى الرغم من أن أسلوب العمل هو نفسه لكليهما في حالات كثيرة، إلا أن الاستثناءات كثيرة أيضاً، ويكفي القول إن الحشرات لا تموت بالأسباب نفسها التي يموت بها البشر، كذات الرئة مثلاً، أو السل، أو السرطان، أو تاذر نقص المناعة المكتسبة المعروفة بالعامية بالسيدا أو الإيدز، أو حوادث المرور، أو علل الأوعية الدموية والقلبية. وحتى هنا يمكن لأي شخص أن يفهم ذلك. أما ما يصعب فهمه، وما يربك موت التي مازالت تنظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل هو أن جمجمة بشرية، مرسومة بدقة استثنائية، قد ظهرت، لا يُعرف في أي مرحلة من الخلق، على الظهر الرغبي لإحدى الفراشات. صحيح أنه تظهر على الجسد البشري أحياناً بعض الفراشات، ولكن ذلك لا يتجاوز كونه عنصراً بدائياً، مجرد وشم، لا يأتي مع الشخص منذ الولادة. وتفكر موته، من المحتمل أن هناك زمناً كانت فيه الكائنات الحية جميعها الشيء نفسه، ولكنها بعد ذلك، ومع التخصص، راحت تقسم إلى خمسة ممالك هي، أحadiات الخلية، الفرطسيات، الفطريات، النباتات، الحيوانات، وضمنها، وتعني ضمن الممالك، ما لا حصر له من الرتب الفرعية الكبرى والرتب الفرعية الصغرى التي توالت على امتداد العصور، ولن يكون مستغرباً وسط مثل هذه الببلة، هذا التزاحم البيولوجي، أن يكون شيء من سمات بعض أنواع الكائنات قد ظهر مكروراً في آخريات. وهذا يفسر، على سبيل المثال، ليس

الحضور المثير للقلق لجمجمة بيضاء على ظهر هذه الفراشة *acherontia Átropos*، يا للفضول، ففضلاً عن أنها تعني موت، يتضمن اسمها اسم نهر في الجحيم، وإنما كذلك التشابه المثير لقلق لا يقل عن ذاك بين جذر نبتة تفاح الجن والجسم البشري. لا يعرف المرء ما الذي يمكن أن يفكر فيه حيال عجائب الطبيعة الكثيرة، حيال غرائب مدهشة بهذه العظمة. ومع ذلك، فإن تفكير موت التي مازالت تتظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل قد اتخذ سبيلاً آخر. إنها حزينة الآن لأنها تقارن ما سيكون عليه الأمر لو أنها استخدمت فراشات الججمة كرسل موت بدل هذه الرسائل البنفسجية الباهة التي بدت لها في البدء من أعظم الأفكار عبقرية. ففراشة من هذه الفراشات لا يمكن أن تخطر لها أبداً فكرة الرجوع، لأنها تحمل إشارة واجبها مطبوعة على ظهرها، وهي ولدت لتؤدي هذا العمل. أضف إلى ذلك أن المفعول الاستعراضي سيكون مختلفاً تماماً، فبدلاً من ساعي بريد يسلم إلينا رسالة، سنرى اثنى عشر سنتيمتراً من فراشة تحوم فوق رؤوسنا، ملاك ظلام يعرض جناحيه الأسودين والأصفرین، وفجأة، بعد أن تلامس الفراشة الأرض وترسم الدائرة التي لن تخرج منها، تحلق صاعدة عمودياً أمامنا وتضع ججمتها في مواجهة ججمتها. ومن المؤكد أننا لن نساوم على التصفيق للحركة البهلوانية. من هنا يظهر كيف أن موت التي تتحمل مسؤولية الكائنات البشرية مازال أمامها الكثير لتعلمها. ولكن الفراشات، مثلما نعرف، ليست تحت سلطتها القانونية. لا الفراشات ولا سائر الأجناس الحيوانية الأخرى، وهي بأعداد غير متناهية عملياً. سيكون عليها أن تفاوض على اتفاق مع زميلتها في الدائرة الحيوانية، تلك التي تتولى مسؤولية إدارة المنتجات الطبيعية، والطلب منها أن تفرضها عدداً من هذه الفراشات، وإن كان الاحتمال الأكبر، للأسف، مع الأخذ في

الاعتبار الفارق السحيق بين اتساع أراضي كل منها والسكان التابعين لها، هو أن زميلتها المعنية ستدرك عليها أن لا ، بتكبر غير مهذب وحازم، كي ندرك أن انعدام حس الرفاقية ليس بالتعبير الفارغ، حتى في دائرة الموت. فكر في ذلك المليون من الحشرات الموجودة في مرجع علم الحشرات الأولى، وتصور، إذا كان التصور ممكناً، عدد الأفراد الموجودين في كل نوع منها، وقل لي إذا لم يكن هناك على الأرض أعداد من هذه الكائنات تزيد على عدد نجوم السماء، أو في الفضاء الكوني، إذا ما فضلنا منح تسمية شاعرية على الواقع المضطرب للكون الذي نحن فيه خيط براز على وشك أن يتحلل. إن موت المتخصصة بالبشر، وهولاء في هذه اللحظة مجرد أضحوكة من سبعة آلاف مليون رجل وامرأة سيئي التوزع على القارات الخمس، ما هي إلا موت ثانوية، مرؤوسة، وهي نفسها تعى مكانتها في السلم التراتيبي، وكانت لديها النزاهة للاعتراف بذلك في رسالتها المرسلة إلى الصحيفة التي أوردت اسمها بادئة إياه بحرف كبير. ومع ذلك، وبما أنه من السهل فتح باب الأحلام، واقتحامه سهل المنال لا تُطلب منا عليه حتى ضريبة استهلاكية، فإن موت، هذه التي توقفت الآن عن النظر من فوق كتف عازف الفيولونسيل، تستمتع بتخييل ما ستكون عليه الحال إذا ما امتلكت تحت تصرفها كتيبة فراشات مصطفة بانتظام فوق المنضدة، وتستدعيها واحدة فواحدة وتعطيها التعليمات، ستذهبين إلى مكان كذا، تبحثين عن الشخص فلان، وتضعين رسم الجمجمة أمامه ثم تعودين هنا. عندئذ سيظن الموسيقي أن فراشة الـ *Acherontia Atropos* قد انطلقت محلقة من الصفحة المفتوحة، وسيكون هذا هو آخر ما يفكر فيه، وستكون تلك هي الصورة الأخيرة التي ستظل عالقة في شبكيته، ولن تعلن موته أي امرأة بدينية مرتدية السواد، مثلما رأى مارسيل بروست كما يقال، ولا أي هيكل عظمي آخر

ملتف بملاءة بيضاء، مثلما يؤكد المحضرن ذوو النظرة الثاقبة. فراشة، ولا شيء أكثر من خفق أجنحة فراشة كبيرة وقاتمة عليها رسم أبيض يشبه جمجمة.

نظر عازف الفيولونسيل إلى ساعته ورأى أن موعد الغداء قد حان. وكان الكلب قد بدأ يفكر في ذلك منذ عشر دقائق، كان قد جلس إلى جانب سيده، مسندًا رأسه إلى ركبته، ينتظر بصبر رجوعه إلى العالم. غير بعيد من هناك يوجد مطعم صغير يقدم سندوتشات وصفائح غذائية أخرى من طبيعة مماثلة. وكان الموسيقي زبوناً في كل مرة يأتي إلى هذه الحديقة، ولا يبدل في الطعام الذي يختاره. ساندوتشان من التونة مع المايونيز وكأس نبيذ له، وساندوتش لحم قليل الطهو للكلب. وإذا كان الطقس لطيفاً، مثلما هواليوم، فإنهم يجلسان على الأرض تحت ظل شجرة، ويتبادلان الحديث بينما هما يأكلان. كان الكلب يحتفظ بالأفضل إلى النهاية، فهو يبدأ بقطع الخبز وبعد ذلك فقط يستسلم لمتعة اللحم، ماضغاً دون تسرع، متلذذاً بوعي بمذاق العصارة. وكان عازف الفيولونسيل ساهياً، يأكل كمن هو آخر في التهاوى، يفكر في السويتري مايلور لباخ، في مطلعها التمهيدي، وفي مقطع محدد من ألف زوج من الشياطين اعتاد أن يتوقف عنده في بعض الأحيان، يتrepid، يتربّح، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لموسيقي في الحياة. بعد الانتهاء من تناول الطعام، استلقيا أحدهما على جانب الآخر، نام عازف الفيولونسيل قليلاً، وكان الكلب قد غفا قبله بدقيقة. وعندما استيقظا ورجعوا إلى البيت، ذهبت موت معهما. وبينما الكلب يجوب الفناء ليفرغ أمعاءه، وضع عازف الفيولونسيل نوته سويت باخ على مسند النوتات، فتحها على المقطع الصعب، مقطع بيانو شيطاني بالطلق، وتكرر تردد المتمادي. أحسست موت بحزنه، يا للمسكين، السيئ في الأمر هو أنه لن يجد متسعًا من

الوقت للتوصل إلى عزفه، بل أكثر من ذلك، لن يتمكنوا من عزفه فقط، حتى أولئك الذين تمكنا من الاقتراب ظلوا بعيدين عنه.Unde، انتبهت موت أول مرة أنه لا وجود في البيت كله لصورة امرأة، باستثناء صورة سيدة متقدمة في السن لها مظهر أم بالكامل ويرافقها رجل لا بد أن يكون الأب.

أريد أن أطلب منك معرفةً كبيراً، قالت موت. وكمادته، لم يرد المجل عليها، والإشارة الوحيدة إلى أنه قد سمع كانت رعشة أكثر قليلاً من ملحوظة، تعبير عام عن اضطراب جسدي، فهو لم يسمع من قبل قط من ذلك الفم مثل هذه الكلمات، طلب معرفة، والأدهى أنه معرفة كبير. سيكون على أن أظل خارجاً لمدة أسبوع، واصلت موت كلامها، وأريدك أن تحمل ملبي خلال هذه الفترة في إرسال الرسائل، لن أطلب منك بكل تأكيد أن تكتبها، وإنما أن ترسلها فقط، يكفي أن تصدر نوعاً من الأمر الذهني وتهز شفترتك قليلاً من الداخل، كإحساس، كانفعال، أي حركة تبين أنك حي، وسيكون ذلك كافياً لأن تصل الرسائل إلى وجهتها. ظل المجل صامتاً، غير أن الصمت يوازي سؤالاً. المسألة التي لا أستطيع أن أظل داخلةً وخارجيةً من أجل متابعة بالبريد، قالت موت، ثم أضافت، على أن أركز تماماً على حل مشكلة عازف الفيولونسيل، واكتشاف الطريقة المناسبة لإيصال الرسالة العينة إليه. كان المجل ينتظر. وواصلت موت، فكرتي هي التالية، سأكتب دفعة واحدة الرسائل كلها عن الأسبوع الذي سأتغيب فيه، وهي طريقة أسمح لنفسي باستخدامها تقديرًا مني للطابع الاستثنائي للوضع، ومثلاً قلت لك، ما عليك أنت سوى إرسالها، ولن تحتاج إلى الخروج من مكانك، ستظل مستدناً هناك إلى الجدار، وانظر كيف أتحول إلى طيبة، إنني أطلب منك معرفةً كصديقة في حين أني قادرة، دون تردد، على أن أصدر إليك أمراً بكل بساطة، فواقع أني تخليت في الفترة الأخيرة عن استخدامك لا يعني أنك لم تعد

في خدمتي. صمتُ المنجل المستسلم يثبت أنه كذلك. إننا متفقان إذاً، أنهت موت كلامها، سأكرس هذا اليوم لكتابة الرسائل، أقدر أنها ألفان وخمسين، تصور، إنني واثقة من أن يدي ستفتح مع وصولي إلى نهاية العمل، وسأترك لك الرسائل مرتبة على المنضدة، في مجموعات منفصلة، من اليسار إلى اليمين، إياك أن تخطئ، من اليسار إلى اليمين، انتبه جيداً، من هنا إلى هناك، وسيكون تعقيد ألف شيطان إذا ما تلقى الأشخاص إشعاراتهم في غير موعدها، سواء أكانت متقدمة أم متاخرة. يقال إن الصمت علامة الرضا. وقد ظل المنجل صامتاً، وهو وبالتالي موافق. جلست موت لتعمل وهي ملتفة بملاءتها والقلنسوة إلى الوراء لتريح الرؤية. كتبت وكتبت، مرت الساعات وهي لا تزال تكتب، وكانت الرسائل، وكانت الملفات، وكان طيها، وكان إغلاقها، ويمكن التساؤل كيف تمكنت من إغلاقها طالما ليس لها لسان ولا مكان يخرج منه اللعاب، ولكن هذا الأمر يا سادتي الأعزاء كان في أزمنة الحرفية السعيدة، عندما كنا لا نزال نعيش في كهوف حداة في بدء بزوغها، أما الملفات الآن فهي من تلك التي تسمى ملفات اللصق الذاتي، يكفي أن ينزع عنها شريط ورقي وينتهي الأمر، ومن بين الوظائف الكثيرة التي يقوم بها اللسان، يمكن القول إن هذه الوظيفة قد صارت من التاريخ. لم تصل موت إلى النهاية بمعصم مخلوع بعد ذلك الجهد الكبير لأن معصمها كان مخلوعاً في الواقع منذ الأزل. إنها أساليب في الكلام تلتخص باللغة، ونواصل استخدامها بالرغم من انحرافها منذ زمن بعيد عن معناه الأصلي، ولا نتبه إلى بعض الحالات، كما هي حال موت هذه التي تجول هنا على هيئة هيكل عظمي، ومعصمها جاء مخلوعاً منذ الولادة، ويكتفي رؤية صورة شعاعية له. حركة الإرسال غيبة في الفضاء الفسيح المئتين وثمانين وبضع ملفات الخاصة بهذا اليوم، وبالتالي سيكون

على المنجل ابتداء من الغد أن يتولى مهام إرسال البريد الذي عُهد به إليه. ودون أن تتطق بأي كلمة، لا وداعاً، ولا إلى اللقاء، نهضت موت عن الكرسي، وتوجهت إلى الباب الوحيد الموجود في القاعة، هذا الباب الضيق الذي أشرنا إليه عدة مرات دون أن ندرى ما حقيقة فائدته، فتحته موت، ودخلت وأعادت إغلاقه وراءها. الانفعال جعل المنجل يرتعش رعشة قوية على امتداد نصله، من رأسه المستدق حتى طرفه الأقصى. فهذا الباب، في ذاكرة المنجل، لم يستخدم من قبل قطّ.

انقضت الساعات، كل الساعات الالزمة لتولد الشمس هناك في الخارج، وليس هنا في هذه القاعة البيضاء والباردة، حيث تبدو المصايب الشاحبة، المضاء دائماً، كأنها وُضعت لتبعد الأشباح عن ميت يخاف من الظلام. مازال الوقت مبكراً على إصدار المنجل الأمر الذهني الذي سيجعل رزمة الرسائل الثانية تختفي من القاعة، ويمكن له وبالتالي أن ينام لوقت قصير آخر. هذا ما يقوله عادة المؤرقون الذين لا يغمضون عيونهم طوال الليل، لأن البائسين يعتقدون أنهم قادرون على خداع النعاس بطلب وقت قصير آخر، وقت قصير آخر وحسب، وهم الذين لم يُمنحوا دقية واحدة من الراحة.وحيداً، طيلة هذه الساعات كلها، يبحث المنجل عن تفسير لتصريف موت الفريد التي خرجت من باب أعمى كان يbedo، منذ الزمن الذي رُكِّب فيه أنه محكوم بأن يظل مغلقاً طوال بقية الأزمنة. وأخيراً تخلى عن تقلب الأمر في رأسه، فعاجلاً أو آجلاً سيعرف ما الذي يحدث هناك وراء الباب، إذ من المستحيل تقريباً أن تكون هناك أسرار بين موت والمنجل الطويل مثلاً ليست هناك أسرار بين منجل الحصاد واليد التي تحمله. لم يكن عليه أن ينتظر طويلاً. فبعد انقضاء نصف ساعة فتح الباب وظهرت امرأة عند العتبة. لقد سمع المنجل من قبل أن ذلك ممكן الحدوث، أن

تحول موت إلى كائن بشري، ويفضل أن يكون امرأة بسبب مسألة الجنس هذه، ولكنه كان يظن أن ذلك مجرد قصة، خرافة، أسطورة مثل كثير وكثير غيرها، مثل أسطورة طائر الفينيق الذي تتجدد ولادته من رماده بالذات مثلاً، أو رجل القمر الذي يحمل حزمة حطب على كاهله لأنه تجرأ على العمل في يوم مقدس، أو البارون مونشهاوزن الذي نجا من الموت في مياه مستنقعية بشد نفسه من شعره بالذات، وأنقذ كذلك الحصان الذي كان يمتطيه، ودراكولا تنسيلفانيا الذي لا يموت مهما قتلوه، إلا بغرس وتد في قلبه، وحتى في هذه الحال لا يعدم من يشكك بموته، والحجر المشهور في أيرلندا القديمة الذي يصرخ عندما يلمسه الملك الحقيقي، وينبع إبورو الذي يطفئ المشاعل المشتعلة ويشعـل المنطفئة، والنساء اللاتي يتركن دماء حيضهن تسقط على الحقول المزروعة من أجل زيادة خصوبة الزرع، والنمل الذي بحجم الكلاب، والكلاب التي بحجم النمل، والقيامة في اليوم الثالث لأنها لم تكون ممكنة في اليوم الثاني. إنك باهـرة الجمال، عـلـقـ المـنـجـلـ، وـكـانـ ذـلـكـ صـحـيـحاـ، فـمـوـتـ تـبـدوـ جـمـيـلـةـ جـداـ وـشـابـةـ، فـيـ حـوـالـيـ السـادـسـةـ أوـ السـابـعـةـ وـالـثـلـاثـينـ مـثـلـماـ قـدـرـ الأـنـشـرـوـبـولـوـجـيـوـنـ، هـاـ قـدـ تـكـلـمـ أـخـيـراـ، هـتـقـتـ مـوـتـ، لـقـدـ بـدـاـ لـيـ أـنـ هـنـاكـ سـبـباـ جـيـداـ لـلـكـلامـ، فـمـوـتـ لـاـ تـتـحـولـ فـيـ كـلـ يـوـمـ إـلـىـ نـمـوذـجـ مـنـ الجنس البشري الذي تعاديـهـ، تـعـنيـ أـنـكـ لـمـ تـتـكـلـمـ لـأـنـكـ وـجـدـتـنـيـ جـمـيـلـةـ، بـلـ، بـلـ، وـلـكـنـيـ كـنـتـ سـأـتـكـلـمـ أـيـضاـ لـوـ أـنـكـ ظـهـرـتـ لـيـ بـهـيـةـ اـمـرـأـةـ بـدـيـنـةـ تـرـتـدـيـ السـوـادـ كـالـتـيـ ظـهـرـتـ لـلـمـسـيـوـ مـارـسـيلـ بـرـوـسـتـ، لـسـتـ بـدـيـنـةـ وـلـاـ أـرـتـدـيـ السـوـادـ، وـأـنـتـ لـيـسـ لـدـيـكـ أـدـنـىـ فـكـرـةـ عـنـ كـانـ مـارـسـيلـ بـرـوـسـتـ، المـنـاجـلـ جـمـيـعـهـاـ، سـوـاءـ أـكـانـ هـذـاـ الذـيـ يـحـصـدـ الـبـشـرـ أـمـ تـلـكـ العـادـيـةـ الـتـيـ تـحـصـدـ الـحـشـيـشـ، وـلـأـسـبـابـ وـاضـحةـ، لـمـ تـسـتـطـعـ تـلـمـعـ الـقـرـاءـةـ قـطـ، وـلـكـنـاـ جـمـيـعـنـاـ كـنـاـ مـزـودـيـنـ بـذـاكـرـةـ

جيدة على الدوام، تلك تحفظ بذاكرة النسغ، وأنا بذاكرة الدم، وقد سمعت أحياناً اسم بروست وجمعت وقائع إلى بعضها، لقد كان كتاباً عظيماً، أحد أعظم الكتاب الذين وجدوا على الإطلاق، ولا بد أن ملفه في خزائن الأرشيف القديمة، أجل، ولكن ليس في أرشيفي أنا، فلم أكن أنا موت التي قتلته، لم يكن من هذه البلاد إذاً ذلك المسيو مارسيل بروست، سأـل المنـجل، لا، كان من بلـاد أخـرى، من بلـاد تسمـى فـرنسـا، أجـابـته مـوتـه، وـكان يـبـدو في نـبرـة كـلامـها شـيءـ من الأـسىـ، أـرجـو أـن تـجـدـي العـزـاءـ من غـمـ أـنـكـ لم تـكـونـيـ من قـتـلـتـهـ فيـ الجـمـالـ الـذـيـ أـرـاكـ عـلـيـهـ، فـلـيـبـارـكـ الـربـ، سـاعـدـهـ المـنـجلـ، لـقـ اعتـبـرـتـكـ صـدـيقـاـ علىـ الدـوـامـ، وـلـكـ اـسـتـيـائـيـ لمـ يـأـتـ منـ آنـيـ لمـ أـكـنـ آـنـاـ منـ قـتـلـتـهـ، مـاـذـاـ إـذـاـ، لـاـ أـعـرـفـ كـيـفـ أـشـرـحـ دـلـكـ، نـظـرـ المـنـجلـ إـلـىـ مـوـتـ باـسـتـغـرـابـ وـرـأـيـ أـنـهـ مـنـ الـأـفـضـلـ تـغـيـرـ الـمـوـضـوعـ، أـيـنـ وـجـدـتـ مـاـ تـرـتـدـيـنـهـ، سـأـلـهـ، هـنـاكـ الـكـثـيرـ لـلـاختـيـارـ وـرـاءـ هـذـاـ الـبـابـ، إـنـهـ أـشـبـهـ بـمـخـزـنـ، أـشـبـهـ بـحـجـرـ حـفـظـ مـلـابـسـ هـائـلـةـ فـيـ مـسـرـحـ، مـئـاتـ دـمـيـ الـمـانـيـكـانـ، آـلـافـ الـمـشـاجـبـ، خـذـينـيـ هـنـاكـ، طـلـبـ مـنـهـ المـنـجلـ، لـاـ جـدـوـيـ مـنـ ذـلـكـ، فـأـنـتـ لـاـ تـفـهـمـ شـيـئـاـ فـيـ الـمـوـضـةـ وـالـأـزـيـاءـ، لـلـوـهـلـةـ الـأـوـلـىـ لـاـ يـبـدوـ أـنـكـ أـنـتـ أـيـضـاـ تـفـهـمـيـنـ كـثـيرـاـ، لـاـ أـظـنـ أـنـ مـخـتـلـفـ الـقـطـعـ الـتـيـ تـرـتـدـيـنـ تـسـجـمـ كـثـيرـاـ بـعـضـهـاـ مـعـ بـعـضـ، بـمـاـ أـنـكـ لـمـ تـخـرـجـ قـطـ مـنـ هـذـهـ الـقـاعـةـ، فـإـنـكـ تـجـهـلـ مـاـ الـذـيـ يـسـتـخـدـمـ فـيـ هـذـهـ الـأـيـامـ، يـمـكـنـيـ أـنـ أـقـولـ لـكـ إـنـ هـذـهـ الـبـلـوـزـةـ تـشـبـهـ كـثـيرـاـ بـلـوـزـاتـ أـخـرىـ أـتـذـكـرـهـاـ عـنـدـمـاـ كـانـتـ لـيـ حـيـاةـ فـعـالـةـ، مـوـضـةـ الـأـزـيـاءـ دـوـارـةـ، تـذـهـبـ وـتـجـيـءـ، تـعـودـ وـتـذـهـبـ، لـوـ أـنـيـ أـخـبـرـتـكـ بـمـاـ أـرـاهـ فـيـ هـذـهـ الشـوـارـعـ، أـصـدـقـ ذـلـكـ دـوـنـ أـنـ تـكـونـيـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ إـخـبـارـيـ بـهـ، أـلـاـ تـظـنـ أـنـ الـبـلـوـزـةـ تـنـتـاسـبـ مـعـ لـوـنـ الـبـنـطـالـ وـالـحـذـاءـ، أـظـنـ أـنـهـ مـتـنـاسـبـ، وـاقـفـ الـمـنـجلـ، وـمـعـ هـذـهـ الـقـبـعـةـ الـتـيـ أـضـعـهـاـ عـلـىـ رـأـسـيـ، بـلـىـ، إـنـهـ مـتـنـاسـبـ، وـمـعـ هـذـهـ السـتـرـةـ الـجـلـدـيـةـ، بـلـىـ أـيـضـاـ، وـمـعـ

هذه الحقيقة التي تُعلق بالكتف، لا يمكنني أن أقول لا ، ومع هذين القرطين في أذني، إنني أستسلم، إن لي جمالاً لا يُقاوم، اعترف بذلك، هذا يعتمد على نوعية الرجل الذي تريدين إغواؤه، أنتَ ترى على أي حال أنني جميلة حقاً، لقد كنتُ أنا من قال إنك جميلة أولاً، بما أن الأمر كذلك، وداعاً، سأرجع يوم الأحد، أو الاثنين على أبعد تقدير، لا تنسِ إرسال البريد كل يوم، ولا أظن أنه سيكون عملاً كثيراً لمن يقضى الوقت مستنداً إلى الجدار، أتحملين معك الرسالة، سألهما المنجل الذي قرر عدم الإتيان برد فعل على سخريتها، إنني أحملها معي، هنا في الداخل، ردت موت وهي تلمس الحقيقة بأطراف أصابعها الرفيعة والمعتنى بها جيداً بحيث يرغب أي شخص منا في تقبيلها.

ظهرت موت تحت ضوء النهار في شارع ضيق، بين جدران من الجانبين، وخارج المدينة تقريباً. لا يُرى هناك باب أو بوابة يمكن أن تكون قد خرجت منها، ولا تُلحظ كذلك أية إشارة تتيح لنا تصوّر الطريق الذي أوصلها من القاعة تحت الأرضية إلى هنا. الشمس لا تضيق محاجر العيون الفارغة، ولهذا لا تحتاج الجمامجم المستخرجة في أعمال التقيب الأركيولوجي إلى إطباق جفونها عندما يصفع الضوء المفاجئ وجهها مباشرة ويعلن الأنثروبولوجي السعيد أن لقتيه العظمية لها المظهر الكامل لإنسان نياندرتال البدائي، مع أن فحصاً تاليًّا سيثبت أنها في نهاية المطاف عظام إنسان عاقل عادي. ومموت التي تحولت إلى امرأة، تُخرج من الحقيقة نظارة قائمة تحمي بها عينيها البشريتين الآن من خطر رمٍ أكثر من محتمل لمن مازال عليها أن تعتمد على انعكاسات ضوء صباح صيفي. نزلت موت الشارع إلى حيث ينتهي الجدران وتنتصب أولى العمارات. وابتداء من هناك تجد نفسها في ميدان معروف، فلا وجود لبيت واحد من هذه البيوت وكل تلك التي

تمتد أمام عينيها حتى حدود المدينة والبلاد إلا وكانت فيه ذات مرة، بل إن عليها أن تدخل ورشة البناء تلك بعد أسبوعين لتدفع سقالة بباء ساوه لن ينتبه أين سيضع قدمه. ومن عادتنا أن نقول في مثل هذه الحالات هكذا هي الحياة، بينما سيكون أكثر دقة أن نقول هكذا هو الموت. وهذه الفتاة ذات النظارة التي تصعد الآن إلى سيارة أجراة لن نطلق عليها نحن ذلك الاسم، ومن المحتمل أن نفكّر أنها الحياة نفسها مجسدة وقد نركض لاهثين وراءها، ولكننا أمرنا سائق سيارة أجراة أخرى، إذا وجدناها، اتبع تلك السيارة، وسيكون ذلك دون جدوى لأن سيارة الأجراة التي هي فيها قد انعطفت عند الناصية ولا توجد هنا سيارة أخرى يمكننا التوسل إلى سائقها، أرجوك أن تلحق بسيارة الأجراة تلك. والآن يمكن أن يكتسب مغزى كاملاً أن نقول هكذا هي الحياة ونهز كتفينا باستسلام. أيًّا يكن الأمر، وربما يكون في ذلك عزاء لنا، الرسالة التي تحملها موت في حقيبتها عليها اسم مُرسل إليه آخر وعنوان آخر، أما دورنا في السقوط عن سقالة فلم يحن بعد. وخلافاً لما يمكن التبيؤ به عقلانياً، لم تقدم موت لسائق سيارة الأجراة عنوان عازف الفيولونسيل، وإنما عنوان المسرح الذي يعزف فيه. صحيح أنها قررت الرهان على المضمون بعد تعرضاً لها ناتات متالية، ولكنها لم تبدأ التحول إلى امرأة لمجرد المصادفة، ولا لذلك السبب المتعلق بالجنس كما يمكن لنفسٍ نحوية أن تظن أيضاً، باعتبار أن كليهما في هذه الحالة، المرأة وموت، تنتميان إلى الجنس المؤنث. وعلى الرغم من انعدام تجربته المطلق بشؤون العالم الخارجي، لاسيما في فصل العواطف والشهوات والإغراءات، إلا أن المنجل أصاب عين الحقيقة عندما تساءل، في إحدى لحظات حديثه مع موت، عن نوعية الرجل الذي تسعى لإغرائه. لقد كانت هذه هي كلمة السر، الإغراء. كان يمكن لموت أن تذهب مباشرة إلى بيت عازف الفيولونسيل، وأن تقع

الجرس، وعندما يفتح لها الباب، ترميه بأول شخص ابتسامة عذبة بعد أن تنزع النظارة السوداء وتُعرّف نفسها، على سبيل المثال، بأنها بائعة موسوعات، وهذه ذريعة واسعة التداول، ولكنها مضمونة النتيجة على الدوام تقريباً، وعندئذ يحدث أحد أمريرن، فإما أن يدعوها للدخول من أجل مناقشة الموضوع بهدوء مع فنجان قهوة، وإما أن يخبرها على الفور بأنه غير مهم بالامر ويتحرك لإغلاق الباب في الوقت نفسه الذي يطلب منها برقة أن تعذرها لرفضه، لو أنها موسوعة موسيقية على الأقل، سيحاول التبرير بابتسامة خجولة. إن تسلیم الرسالة في كل الأحوال سيكون سهلاً، بل يمكن القول إنه سهل بصورة مهينة، وهذا هو ما لا يروق لموت. الرجل لا يعرفها، أما هي فتعرف الرجل، فقد أمضيا ليلة في الحجرة نفسها، وقد سمعته وهو يعزف، وهو أمر، شيئاً أو أبينا، يولد روابط، يُقر انسجاماً، وهذه أمور ترسم بداية علاقة، والقول له، ستموت، لديك ثمانية أيام كي تبيع الفيلونسيل وتجد سيداً آخر للكلب، سيكون فظاظة غير مناسبة من المرأة حسنة المظهر التي تحولت إليها. لقد كانت لديها خطة أخرى مختلفة.

في لوحة الإعلان عند مدخل المسرح يُعلن للجمهور المحترم عن تقديم حفلتين موسقيتين هذا الأسبوع ستحييهما الفرقة السيمفونية الوطنية، واحدة يوم الخميس، أي بعد غد، وأخرى يوم السبت. من الطبيعي أن فضول من يتبع هذه القصة باهتمام موسوس وهاجسي بحثاً عن تناقضات، وزلات، وسهوات، وانعدام منطق، يطالب بأن نسر له بأية نقود ستدفع موت قيمة تذكرتي حضور الحفلتين إذا كانت قد خرجت قبل ساعتين فقط من قاعة تحت أرضية لم يُشر إلى أن فيها صرافين آلين ولا مصارف مفتوحة الأبواب. وبما أننا في ميدان التساؤلات، فإنه يريد أن نخبره إذا ما كان سائقو سيارات الأجرة قد تحولوا عن تقاضي أجورهم المستحقة من النساء اللواتي

يضعن نظارة شمسية ويتمتنع بابتسامة لطيفة وجسد حسن القوم، حسن، قبل أن يبدأ سوء التفاهم بترسيخ جذوره، نسارع إلى التوضيح بأن موت لم تدفع المبلغ الذي أشار إليه عداد سيارة الأجرة وحسب، بل لم يفتها أن تضيف إليه إكرامية أيضاً. أما مصدر النقود، إذا كان هذا الأمر لا يزال يهم القارئ، فيكفي أن نقول إن النقود خرجت من الحقيقة نفسها التي خرجت منها النظارة الشمسية، أي من الحقيقة التي تحملها معلقة إلى كتفها، لأنه لا يمكن لشيء منشأه من العبد، ول يكن هذا معلوماً، أن يحول دون إمكانية خروج شيء من مكان كان قد خرج منه شيء آخر. وما يمكن أن يكون قد حدث بالفعل هو أن النقود التي دفعت بها موت أجراً التاكسي وستدفع بها ثمن بطاقتي دخول حفلتي الكونشرتو، إضافة إلى الفندق الذي ستنزل فيه خلال الأيام التالية، قد تكون نقوداً خارج التداول. ولن تكون هذه هي المرة الأولى التي ننام فيها على عملة ونستيقظ على عملة أخرى. ولا بد من الافتراض مع ذلك بأن النقود من نوعية جيدة، ومغطاة حسب القوانين السارية المفعول، اللهم إلا إذا كان سائق سيارة الأجرة، ودون أن ينتبه إلى أنه قد خُدع، ونحن نعرف كيف هي مواهب موت في الخداع، تلقى من المرأة ذات النظارة الشمسية ورقة بنكوت ليست من هذا العالم، أو ليست من هذا الزمان على الأقل، تحمل صورة رئيس جمهورية بدلاً من الصورة الموقرة لجلالته وأسرته السعيدة. كان بيع تذاكر المسرح قد بدأ الآن بالذات، دخلت موت، ابتسمت، وجهت تحية الصباح وطلبت تذكرة شرفة من الدرجة الأولى، واحدة ليوم الخميس وأخرى ليوم السبت. وأصرت على موظفة شباك التذاكر أنها تريد الشرفة نفسها للحظتين وأن تكون الشرفة، وهذه مسألة أساسية، إلى الجانب الأيمن من منصة المسرح وأقرب ما يمكن إليها. أدخلت موت يدها في حقيبتها وأخرجت منها محفظة النقود وقدمت ما

بدا لها أنه ضروري. أعادت لها موظفة شباك التذاكر البقية، تفضلي، وأأمل أن تروقك حفلاتنا الموسيقية، أعتقد أنها المرة الأولى التي تأتين بها، فأنا لا أتذكر على الأقل أنني رأيتك من قبل، مع أنني أتمتع بذاكرة جيدة لحفظ ملامح الوجوه، ولا يفلت مني أي وجه، صحيح أيضاً أن النظارات تبدل ملامح وجوه الأشخاص كثيراً، وخاصة إذا كانت سوداء مثل نظارتك. نزعت موت النظارة وسألتها، وما رأيك الآن، إنني متأكدة الآن من أنني لم أرك من قبل، ربما لأن الشخصية التي أمامك، هذه التي أنا عليها الآن، لم تحتاج قط إلى شراء بطاقات دخول إلى كونشرتو، فمنذ أيام قليلة سعدت بحضور تمرين للفرقة الموسيقية ولم يلحظ أحد وجودي، لست أفهمك، ذكرّيني بأن أوضح لك الأمر ذات يوم، متى، ذات يوم، اليوم الذي لا يمكن له إلا أن يأتي، لا تخيفيني. ابتسمت موت ابتسامة رائعة وسألت، فلنتكلم بصراحة، أتظنين أن لي مظهراً يُخيف أحداً، لا، ماذا تقولين، لم يكن هذا ما عننته، افعلي مثلي إذاً، ابسمي وفكري في أمور مبهجة، موسم الحفلات الموسيقية سيستمر لشهر، هذا خبر جيد، وربما سنلتقي ثانية في الأسبوع القادم، إنني هنا دائماً، فأنا أشبه بقطعة أثاث في المسرح، أطمئني، سأجده حتى لو لم تكوني هنا، سأنتظرك إذاً، لن أختلف عن موعدك. توقفت موت لحظة ثم سالت، وبالمناسبة، هل تلقيت أنت أو أحد من أسرتك الرسالة البنفسجية، أتعنين رسالة الموت، أجل، رسالة الموت، لا والحمد لله، ولكن الأيام الثمانية المنوحة لجارنا ستنتهي غداً، والمسكين في حالة محزنة من اليأس، ماذا يمكننا أن نفعل له، هكذا هي الحياة، معك حق، تهدت الموظفة، هكذا هي الحياة. ولحسن الحظ أن أشخاصاً آخرين جاؤوا لشراء بطاقات الدخول، وإلا ما كان ليُعرف إلى أين ستنتهي هذه المحادثة.

المسألة الآن هي في العثور على فندق لا يكون بعيداً جداً عن بيت الموسيقي. نزلت موت ماشية باتجاه مركز المدينة، دخلت إلى وكالة رحلات، وطلبت أن يسمحوا لها برؤية خريطة المدينة، حددت بسرعة موقع المسرح، ومن هناك سافرت إلى سبعة السبابا على الورق نحو الحي الذي يعيش فيه عازف الفيولونسيل. كانت المنطقة بعيدة إلى حدّ ما، غير أن هناك فنادق في محيطها. اقترح عليها الموظف أحد تلك الفنادق، ليس فاخراً، ولكنه مريح. وقد تولى هو نفسه الحجز لها هاتفيًا، وعندما سأله موت بكم هي مدينة له مقابل العمل أجابها مبتسماً، ضعيفه في حسابي. وهذا معهود، فالأشخاص يقولون أشياء بلهاء، يلقون الكلام على عواهنه ولا يخطر لهم التفكير في النتائج، ضعيفه في حسابي، قال الرجل، وربما كان يتصور، بغرور الرجال الذي لا سبيل إلى إصلاحه، لقاءً لطيفاً معها في مستقبل قريب. لقد اقترف بذلك مجازفة يمكن لها أن تدفع موت إلى الرد عليه بنظرة باردة، كن حذراً، فأنت لا تعرف مع من تتكلم، ولكنها اكتفت بالابتسام بغموض، وشكرته وخرجت دون أن ترك رقم هاتف أو بطاقة تعريف. وظلت في الجو رائحة عطر هو مزيج من الورد والأقحوان، الواقع أن هذا كانت ما تبدو عليه، نصف ورد ونصف أقحوان، ددم الموظف بينما هو يطوي خريطة المدينة ببطء. وفي الشارع، كانت موت توقف سيارةأجرة وتقدم للسائل عنوان الفندق. لم تكن تشعر بالرضا عن نفسها. فقد أخافت سيدة شباك التذاكر اللطيفة، وتسليت على حسابها، وهذا استغلال لا يغفر. فلدى الناس ما يكفي من الخوف من الموت ولا يحتاجون معه لأن تظهر هي لهم باسمة وتقول، مرحباً، إنني أنا، وهذه هي النسخة الشائعة، ويمكنا القول الشائعة، للتذكير اللاتيني البغيض، homo, qui pulvis es et in

(<sup>١١</sup>) pulverem revérteos، وبعد ذلك، كما لو أن هذا قليل، كانت على وشك أن توجه إلى شخص لطيف قدم لها معرفةً بذلك السؤال الأبله الذي من عادة الطبقات الاجتماعية المدعوة راقية أن تستفز به الطبقات التي تحت بوقاحة متجرفة، أنت لا تعرف مع من تتكلم. لا، موت ليست سعيدة بسلوكها. إنها موقنة من أنه ما سيطر لها أبداً أن تتصرف بهذه الطريقة لو أنها بهيئة الهيكل العظمي، وفكت، ربما لأنني في هيئة بشرية، ولا بد أن هذه الأمور تلتتصق. نظرت مصادفة من نافذة سيارة الأجرة وتعرفت إلى الشارع الذي تمر فيه، فهنا يعيش عازف الفيولونسيل، هنا هو الطابق الأرضي الذي يسكن فيه. بدا موت أنها تشعر بصدمة مفاجئة في الحزمة الشمسية، رعشة عصبية فجائية، يمكن لها أن تكون رعشة الصياد حين يلمح الطريدة، عندما تصير ضمن خط تصويب بندقيته، يمكن أن يكون نوعاً من الخوف الغامض، كما لو أنها بدأت تخاف من نفسها بالذات. توقفت سيارة الأجرة، هذا هو الفندق، قال السائق. دفعت موت الأجر من البقية التي أعادتها إليها موظفة شباك تذاكر المسرح، احتفظ لنفسك بالباقي، قالت ذلك دون أن تلحظ أن الباقي يزيد على المبلغ الذي حده عدد سيارة الأجرة. إنها معدورة، فهي لم تبدأ سوى اليوم باستخدام خدمات النقل العامة هذه.

عندما اقتربت من منضدة الاستقبال تذكرت أن موظف وكالة السفر لم يسألها عن اسمها، بل اكتفى بإخبار الفندق، سأرسل لكم زبونة، أجل، زبونة، الآن بالذات، وهذا هي الآن هناك، هذه الزبونة التي لا يمكنها أن تقول إن اسمها موت، وأنه يبدأ بحرف صغير، أرجوكم، إنها لا تعرف أي اسم تقدم، آه، هناك الحقيقة، الحقيقة التي تحملها معلقة على كتفها، الحقيقة التي خرجت منها النظارة

---

(<sup>١١</sup>) باللاتينية: أيها الإنسان، من تراب أنت وإلى التراب ستعود.

الشمسية والنقود، الحقيبة التي ستخرج منها وثيقة هوية شخصية، مساء الخير، بماذا يمكنني أن أخدمك، سألهما موظف الاستقبال، لقد اتصلوا من وكالة سفر قبل ربع ساعة ليحجزوا غرفة باسمي، أجل يا سيدتي، أنا من تلقيت المكالمة، ها إنذا هنا إنذا، يمكنك أن تملئ هذه البطاقة من فضلك. إن موت تعرف الآن الاسم الذي ستستخدمه، إنه في وثيقة إثبات الشخصية المفتوحة فوق منضدة الكونتور، وبفضل النظارة الشمسية يمكنك أن تستنسخ المعلومات خفية دون أن يتبه موظف الاستقبال إلى ذلك، استنسخت اسماً، وتاريخ ميلاد، وجنساً، وحالة مدنية، ومهنة، وقالت، إليكَ البطاقة، كم يوماً ستمكثين في فندقنا، أنتي المغادرة يوم الاثنين القادم، اسمحي لي أن أستنسخ صورة فوتوكي لبطاقة ائتمانك، لم أجلبها معى، ولكنني أستطيع أن أدفع مقدماً إذا كنت ترغب بذلك، آه، لا، لا حاجة إلى ذلك، قال موظف الاستقبال. تناول وثيقة إثبات الشخصية ليدقق المعلومات المقلولة إلى البطاقة، وبلامح استغراب في وجهه رفع بصره. فالصورة التي في الوثيقة لامرأة أكبر سنًا منها. نزعت موت النظارة الشمسية وابتسمت. وبارتباك، نظر موظف الاستقبال مجدداً إلى الوثيقة، وكانت الصورة والمرأة التي أمامه متطابقتين الآن مثل قطرتي ماء. هل لديكِ أمتعة، سألهما بينما هو يمر بيده على جبهته الرطبة، لا، لقد جئت إلى المدينة من أجل المشتريات، أجبته موت.

ظلت في الغرفة طيلة اليوم، تناولت الغداء والعشاء في الفندق. شاهدت التلفزيون حتى وقت متأخر. وبعد ذلك اندرست في الفراش وأطفأت النور. لم تتم. فموت لا تمام أبداً.

بفستانها الجديد الذي اشتريه بالأمس من أحد متاجر مركز المدينة، حضرت موت الكونشرتو. إنها تجلس، وحيدة، في شرفة الدرجة الأولى، وتنتظر إلى عازف الفيولونسيل كما في المرة الأولى. وأمعن هو النظر إلى تلك المرأة قبل أن تخفت أنوار الصالة، بينما كان عازفو الأوركسترا ينتظرون دخول المايسترو. لم يكن الموسيقي الوحيد الذي انتبه إلى وجودها. في المقام الأول لأنها الوحيدة التي تشغل الشرفة، ومع أنه لم يكن بالأمر الغريب، إلا أنه لم يكن كثيراً الحدوث أيضاً. وفي المقام الثاني لأنها كانت جميلة، ربما ليست الأجمل بين الحضور الأنثوي، ولكنها جميلة بصورة غير محددة، بصورة خاصة، لا يمكن شرحها بالكلمات، مثل بيت شعر يفلت معناه من المترجم، إذا كان ثمة وجود لهذا الشيء في بيت شعر. وأخيراً لأن صورتها المعزولة، هناك في الشرفة، محاطة بالفراغ والغياب من كل الجهات، كما لو أنها تسكن العدم، تبدو كأنها تعبير عن العزلة المطلقة. وموت التي ابتسمت بكثرة وبصورة خطيرة منذ خروجها من قبوها الجليدي، لم تبتسم الآن. ومن بين الجمهور، راقبها الرجال بفضول متعدد، والنساء بغيره قلقه، أما هي، مثل نسر ينقض بسرعة على حمل، فلم تكن ترى أحداً سوى عازف الفيولونسيل. ومع وجود فارق مع ذلك. ففي نظرة هذا النسر الذي يصل دوماً إلى طرائفه يوجد شيء أشبه بحجاب شفقة رقيق، فالنسور، ونحن نعلم ذلك، مضطربة إلى القتل، هذا ما تفرضه طبيعتها، أما هذه، هنا، في هذه اللحظة، فربما تفضل، أمام الحَمْل غير المبالي، أن تفتح بسرعة جناحيها القوين

وتحلق من جديد نحو الأعلى، نحو هواء الفضاء البارد، نحو قطuan السحب التي لا يمكن بلوغها. صمتت الفرقة الموسيقية. وبدأ عازف الفيولونسيل عزفاً منفرداً كما لو أنه ولد من أجل ذلك وحسب. إنه لا يعرف أن المرأة التي في الشرفة تخبي في حقيبتها اليدوية المدشنة للتو رسالة بنفسجية موجهة إليه، لا يعرف ذلك، لا يمكنه معرفته، ولكنه يعزف مع ذلك كما لو أنه يودع العالم، كما لو أنه يقول أخيراً كل ما صمت عنه: الأحلام المقطوعة، التلهفات المحبطة، وباختصار، الحياة. وكان الموسيقيون الآخرون ينظرون إليه بذهول، والمايسترو بمفاجأة واحترام، والجمهور يتهدى، يرتعش، وحجاب الشفقة الخفيف الذي يشوش نظرة النسر الحادة تحول الآن إلى دمعة. انتهى العزف المفرد، وتقدمت الأوركسترا، مثل بحر كبير وبطيء، وأغرقت برفق نشيد الفيولونسيل، امتصته، وسعنته، كما لو أنها ترغب في اقتياده إلى مكان تسامي فيه الموسيقى إلى صمت، إلى ظل رعشة تجوب الجلد مثل آخر صدى لا يدركه السمع من طبلة نفرت عنها فراشة. وفي هذه اللحظة عَبَرَ طيران فراشة الـ *Átropos* الحريري الخبيث ذاكرة موت بسرعة، ولكنها أبعدته بإيماءة من يدها تشبه كثيراً حركتها التي تجعل الرسائل تختفي من فوق المنضدة في القاعة تحت الأرضية، كإيماءة شكر لعازف الفيولونسيل الذي يدير رأسه الآن باتجاهها شاقاً طريقاً للعينين عبر ظلمة صالة المسرح الدافئة. كررت موت الحركة وكانت كما لو أصابعها المرهفة قد ذهبت لتحط على اليد التي تحرك القوس. وعلى الرغم من أن القلب فعل كل ما يستطيعه كي يحدث ذلك، إلا أن عازف الفيولونسيل لم يخطئ النغمة. لن تعود الأصابع للمسه، فقد أدركت موت أنه لا يتوجب أبداً إلقاء الفنان عن فنه. عندما انتهى الكونشرتو انفجر الجمهور في ال�تاف، وحين أُضيئت الأنوار وأمر المايسترو الأوركسترا بالنهوض، وبعد أن

أو ما لاعزف الفيولونسيل أن ينهض، هو وحده، ليتلقى جزءاً من التصفيق الذي يستحقه بجدارة، قاطعت موت الواقفة في الشرفة والبابسة، أخيراً، يديها على صدرها بصمت، نظرت، ولا شيء أكثر من ذلك، إلى الآخرين الذين يضربون أكفهم، الآخرين الذين يطلقون الصرخات، الآخرين الذين يمجدون المايسترو عشر مرات، بينما هي تتظر وحسب. بعد ذلك، وبما يشبه الاستياء، بدأ الجمهور بالخروج في حين كانت الفرقة الموسيقية تتسحب. وعندما التفت عازف الفيولونسيل إلى الشرفة، لم تكن هي، المرأة، موجودة هناك. فدمدم، هكذا هي الحياة.

إنه مخطئ، الحياة ليست هكذا على الدوام، فقد كانت المرأة تتنتظره عند بوابة خروج الفنانين. كان بعض الموسيقيين الآخذين في الخروج ينتظرون إليها متعمدين، ولكنهم يلاحظون، دون أن يدرؤوا كيف، أنها محمية بسياج غير مرئي، بدارة توتر عالٍ يمكن لهم أن يحترقوا فيها مثل فراشات ليلية صغيرة. وعندئذ ظهر عازف الفيولونسيل. وحين رآها توقف، بل حاول التقهقر، كما لو أن المرأة، برؤيتها عن قرب، قد صارت شيئاً آخر غير امرأة، شيئاً من جو آخر، من عالم آخر، من الجانب الخفي للقمر. أخفض رأسه، حاول الانضمام إلى زملائه الخارجين، الهرب، غير أن عليه الفيولونسيل المعلقة بإحدى كتفيه تجعل مناورته تفاديه صعبة. كانت المرأة أمامه، وقالت له، لا تهرب مني، لقد جئت لأنشكرك على الانفعال الممتع بسماعك، شكرأ جزيلاً، ولكنني مجرد موسيقي في الأوركسترا، ولا شيء أكثر، لست عازفاً مشهوراً من أولئك الذين ينتظرون المعجبون ساعة للمسهم أو طلب توقيعهم، إذا كانت هذه هي المسألة، فأنا أيضاً يمكنني طلب توقيعك، لم أحضر معه دفتر الأتوغراف، ولكن لدي هنا مغلفاً ينفع تماماً للتتوقيع، لم تفهميني، فما أردت قوله، على الرغم

من ابتهاجي باهتمامك بي، هو اعتقادي بأنني لا أستحق هذا الاهتمام،  
يبدو أن الجمهور لا يوافقك الرأي، إنها أيام، بالضبط، إنها أيام،  
وشاءت المصادفة أن يكون هذا اليوم هو الذي أظهر لك فيه، لا أريد  
أن ترى في شخصاً جاداً، غير مهذب، ولكن الاحتمال الأكبر أن  
ما تبقى من انفعال يكون قد فارقك في الغد، وهكذا ستحتففين غداً  
مثلاً جئت إلى اليوم، أنت لا تعرفني، فأنا ثابتة في نواياي، وما هي  
نواياك، إنها واحدة فقط، التعرف إليك، ها أنت قد عرفتني،  
ويمكننا الآن أن نقول وداعاً، هل أنت خائف مني، إنك تربكيني  
وحسب، شيء ضئيل هو الشعور بالارتباك وحده في حضوري،  
الارتباك لا يعني بالضرورة الخوف، فقد يكون مجرد تبيه بتوخي  
الحذر، الحذر لا يفيد إلا في تأخير ما لا يمكن تجنبه، وعاجلاً أو  
آجلاً سينتهي إلى الاستسلام، آمل ألا تكون هذه هي حالي، وأنا  
واثقة من أنها ستكون. نقل الموسيقي على الفيولونسيل من كتف إلى  
الآخر، هل أنت متعب، سأله موت، الفيولونسيل ليس ثقيلاً جداً،  
السيئ هي العلبة، وخاصة هذه العلبة، فهي من النوع القديم، إبني  
بحاجة إلى التكلم معك، لا أعرف كيف يمكننا ذلك، فالوقت  
منتصف الليل تقريباً، والجميع قد انصرفوا، مازال هناك بعض  
الناس، هؤلاء ينتظرون خروج المايسترو، يمكننا تبادل الحديث في  
أحد البارات، كيف ترين دخولي حاملاً الفيولونسيل إلى مكان  
مزدحم بالناس، وأضاف الموسيقي مبتسمًا، وتصوري أن يذهب زملائي  
جميعهم وهم يحملون آلاتهم الموسيقية، يمكن لنا عندئذ تقديم  
كونشرتو آخر، يمكن لنا، سأله الموسيقي مذهولاً لصيغة الجمع،  
أجل، فقد كان هناك زمن عزف فيه الكمان، بل توجد صور لي  
أظهر فيها وأنا أعزف، يبدو أنه مصممة على مفاجأتي في كل  
كلمة تقولينها، بين يديك معرفة إلى أي حد مازلت قادرة على

مفاجأتك، ألا يمكنك أن تكوني أكثر وضوحاً، إنك مخطئ، فأنا لم أعنِ ما فكرتَ أنت فيه، وما الذي فكرتُ أنا فيه إذا كان يامكانني أن أعرف، فكرتَ في الفراش، وفيَّ أنا على ذلك الفراش، أعذرني، بل أنا المذنبة، فلو أتيتني كنتُ رجلاً لسمعتُ الكلمات التي قلتها لك، ولكنْ فكرت بالتأكد في الأمر نفسه، فالالتباس له ثمن يُدفع، أشكرك على صرحتك. خطت المرأة بضع خطوات وقالت، هلم بنا، إلى أين، سألهما عازف الفيولونسيل، أنا إلى الفندق الذي أنزل فيه، وأنتَ إلى بيتك على ما أعتقد، ألن أعود لرؤيتك، ها أنتَذا قد تجاوزتَ الارتباك، لم أكن مرتبكاً قط، لا تكذب، موافق، لقد كنتُ مرتبكاً، ولكنني لم أعد كذلك. ظهر على وجه موت نوع من الابتسامة ليس فيها أي ظل من السعادة، مع أنه بالضبط الوقت الذي توفر فيه أكبر الأسباب لأن تكون كذلك، قالت، إبني أحازف، ولهذا أعيد عليكِ السؤال، أي سؤال، إذا كنتُ لن أعود لرؤيتكِ، سوف أحضر حفلة يوم السبت، وسأكون في الشرفة نفسها، برنامج يوم السبت مختلف، ولن أعزف فيه منفرداً، أعرف ذلك، يبدو أنك حسبتِ حساباً لكل شيء، أجل، وماذا ستكون نهاية هذا كله، مازلنا حتى الآن في البداية. كانت هناك سيارة أجراة غير مشغولة تقترب. أشارت لها المرأة لتنوقف والتفت إلى عازف الفيولونسيل، سأوصلك إلى بيتك، لا، سأوصلك أنا إلى الفندق وأواصل بعد ذلك إلى بيتي، بل سيكون ما قلته أنا، وإلا عليكَ أن تذهب في سيارة أخرى، أنتِ معتادة على تنفيذ مشيئتك، أجل، دوماً، لا بد أن تكوني قد أخفقتِ ذات مرة، الرب هو الرب ولم يفعل شيئاً آخر تقريباً، يمكنني أن أثبت لكَ الآن بالذات أنني لا أخطئ، إبني مستعد لتقبل هذا الإثبات، لا تكن أحمق، قالت موت فجأة، وكان في صوتها تهديد دفين، قاتم، رهيب. وضع الفيولونسيل في حقيقة الأمتعة. ولم يتفوه

الاشان خلال الطريق بكلمة واحدة. وعندما توقفت سيارة الأجرة عند وجهتها الأولى، قال عازف الفيولونسيل قبل أن يخرج، لا أتوصل إلى فهم ما يحدث بيننا، أظن أنه من الأفضل لا نعود لرؤيه أحدنا الآخر، لا يمكن لأحد أن يمنع ذلك، بمن في ذلك أنت التي تفرضين مشيئتك على الدوام، سألهما الموسيقي باذلاً جهده ليكون ساخراً، بمن في ذلك أنا، أجابتة موت، هذا يعني أنك ستختطفين، هذا يعني أنني لن أخطئ. كان السائق قد خرج ليفتح حقيبة الأمتعة وكان ينتظر أن يؤخذ الفيولونسيل. لم يتبادل الرجل والمرأة الوداع، لم يقولا إلى اللقاء يوم السبت، لم يلمس أحدهما الآخر، كان ذلك أشبه بقطيعة عاطفية، من النوع الدراميكي، الفظ، كما لو أنهما قد أقسموا ويداهما على الدم والماء أنهما لن يعودا إلى اللقاء أبداً. ابتعد الموسيقي حاملاً الفيولونسيل على كتفه ودخل إلى العمارة. لم يلتفت إلى الوراء، حتى عندما توقف لبرهة عند عتبة الباب. وكانت المرأة تنظر إليه وهي تشدق بقوة على الحقيقة اليدوية. وانطلقت سيارة الأجرة.

دخل عازف الفيولونسيل إلى البيت وهو يدمدم ساخطاً، إنها مجنونة، مجنونة، مجنونة، إنها المرة الوحيدة التي ينتظرنى فيها أحد عند المخرج ليقول لي إنني عزفت جيداً، وتكون من خرجت لي مختلة عقلياً، وأنا أسألهما كأله إذا ما كنت سأعود لرؤيتها، وأدخل نفسي في المشاكل بقدمي، ثمة عيوب يمكن لها أن تقطوي على شيء من الاحترام، تكون جديرة بالاهتمام على الأقل، أما الغرور فمضحك، الإعجاب بالنفس مضحك، وأنا مضحك. أبعد عنه وهو ساه الكلب الذي ركض لاستقباله عند الباب ودخل إلى قاعة البيانو. فتح العلبة المبطنة، أخرج منها بمنتهى الحذر آلة الموسيقية التي يتوجب عليه أن يعيد وزنتها قبل أن يذهب إلى النوم، لأن المشوار في سيارة الأجرة، حتى لو كان قصيراً، ليس صحيحاً بأي حال للآلة الموسيقية. ذهب إلى

المطبخ ليضع شيئاً من الطعام للكلب، وأعد ساندوتشاً له أيضاً وأرفقه بـكأس نبيذ. لقد انقضى أسوأ ما في استيائه، ولكن الشعور الذي يحل محله شيئاً فشيئاً لم يكن مطمئناً. كان يتذكر عبارات قالتها المرأة، تلميحها إلى الالتباسات التي لها ثمن يُدفع، وراح يكتشف أن كل الكلمات التي تلفظت بها، وإن كان صحيحاً أنها متناسبة مع سياقها، بدت كما لو أنها تتضمن معنى آخر، تتضمن شيئاً لا يسمح بالتقاط مفازه، شيئاً متفلتاً، مثل ماء يبتعد عند محاولتنا شريه، مثل غصن ينأى عنا عندما نريد قطف الثمرة. وفكراً، لا يمكن أن أقول إنها مجنونة، ولكنها امرأة غريبة الأطوار، وهذا أمر لا شك فيه. انتهى من تناول الطعام ورجع إلى قاعة الموسيقى، أو البيانو، وهما الطريقتان اللتان ميزناها بهما حتى الآن، في حين أنه كان المنطقي أن ندعوها قاعة الفيلونسيل، لأن الموسيقي يكسب عيشه بالعزف على هذه الآلة، ولا بد من الاعتراف على أي حال أنها تسمية ليست لطيفة الواقع على السمع، وسيكون ذلك إنقاضاً من قيمة المكان، أشبه بأن يفقد جزءاً من كرامته، ويكتفي متابعة السلم الموسيقي هبوطاً من أجل فهم مسوغنا، قاعة موسيقى، قاعة بيانو، قاعة فيلونسيل، حتى هنا لا يزال الأمر مقبولاً، ولكن فلنتخيل إلى أين سنصل إذا ما بدأنا بتقول قاعة الكلارينيت، وقاعة المزمار، وقاعة الطبل، وقاعة الصنوج. فكل الكلمات أيضاً تراثيتها، وبروتوكولها، وألقاب نباتها، وسماتها العامة. لقد جاء الكلب مع سيده وقبح إلى جانبه بعد أن قام بالدوران ثلاثة مرات حول نفسه، وهذه هي الذكرى الوحيدة المتبقية له من الأذمنة التي كان فيها ذئباً. كان الموسيقي يدوزن الفيلونسيل مستعيناً بمعيار النغم، ويعيد بمحبة ضبط تناسق نغمات الآلة بعد ما أنزله بها سوء معاملة ارتجاج سيارة الأجرة على أحجار الشارع. وقد توصل خلال بضع دقائق إلى نسيان امرأة الشرفة، ليس نسيانها هي

بالضبط، وإنما نسيان الحديث المقلق الذي تبادلاه عند بوابة الفنانين، وإن كانت الكلمات العنيفة المتبادلة في سيارة الأجرة مازالت تُسمع في الخلفية، كأنها دوي طبول. لا يمكنه نسيان امرأة الشرفة، ولا يريد أن ينسى امرأة الشرفة. إنه يراها واقفة، بيدين متقطعتين على صدرها، يشعر بأن نظرتها المركزة تلامسه، صلبة كالМАس، ومثله مشعة أيضاً عندما ابتسمت. فكر في أنه سيعود لرؤيتها يوم السبت، أجل، سيراهما، ولكنها لن تنهض واقفة ولن تقاطع يديها على صدرها ولن تنظر إليه من بعيد، هذه اللحظة قد ابتعلت، تلاشت في اللحظة التالية، عندما التفت ليراها آخر مرة، هذا ما اعتقاده، ولم تكن موجودة في الشرفة.

عاد معيار النغم إلى الصمت، فقد انتهت دوزنة الفيولونسيل ورن جرس الهاتف. فوجئ الموسيقي، نظر إلى الساعة، كانت الواحدة والنصف تقريباً. أي شيطان سيكون في مثل هذا الوقت، فكر. رفع السمعاء وظل ينتظر بضع ثوانٍ. كان ذلك سخيفاً بالطبع، فهو من عليه أن يبدأ التكلم، أن يقول الاسم أو رقم الهاتف، وربما سيردون من الجانب الآخر، المعدرة، لقد أخطأنا بالرقم، غير أن من تكلم فضلَ السؤال، هل الكلب هو من يرد على الهاتف، إذا كنت الكلب، فتفضل بالنباح على الأقل. فأجاب عازف الفيولونسيل، أجل، أنا الكلب، ولكنني فقدت منذ زمن طويل عادة النباح، وقد فقدت كذلك عادة العض، اللهم إلا عض نفسي عندما تجافيني الحياة، لا تغضب، أنا أتصل بك لتسامحني، فقد اتخذت محادثتنا توجهاً خطراً على الفور، وقد رأيت كيف كانت النتيجة، إنها كارثة، هناك من حرف مسار المحادثة، ولم أكن أنا من فعلت ذلك، إنني أتحمل المسؤولية كاملة، مع أنني متوازنة في العادة وهادئة، لم ألحظ فيك هذا ولا ذاك، ربما أعاني من ازدواج الشخصية، لا بد أن تكون

متماثلين في هذه الحالة، فأنا كلب ورجل، السخريات ليست حسنة الواقع من فمك، ولا شك أن حاسة سمعك الموسيقية قد أخبرتك بذلك، النغمات الناشرة تشكل جزءاً من الموسيقى كذلك أيتها السيدة، لا تناديني بالسيدة، لا أجد طريقة أخرى لمناداتك، فأنا لا أعرف اسمك، ولا عملك، ولا من تكونين، سترى ذلك في حينه، فاللتسرع ناصح سيئ، ونحن لم نتعرّف إلا قبل قليل، إنك تقدمين عليّ، فلديك رقم هاتفي، من أجل الحصول عليه تكفي الاستعلامات الهاتفية، وقد تولوا في قسم الاستقبال في الفندق الحصول عليه، لسوء الحظ أن جهاز هاتفي قديم، لماذا الأسف، لأنه لو كان من الهاتف الحديث عرفتُ من أين تكلميوني، إنني أكلمك من غرفتي في الفندق، يا للخبر الجديد، أما بشأن قدم هاتفك، فقد كنت أتوقع أن يكون كذلك، ولم أفاجأ بالأمر أبداً، لماذا، لأن كل ما فيك يبدو قديماً، كما لو أن عمرك خمسة سنة وليس خمسين سنة، **كيف** تعرفي أن عمري خمسين سنة، لأنني بارعة في تقدير الأعمار، لا أخطئ فيها أبداً، بدأت أرى أنك تبالغين كثيراً في ادعاء عدم الخطأ، معك حق، فاليوم مثلاً، أخطأتك مرتين، ويمكنني أن أقسم لك أن ذلك لم يحدث من قبل قطّ، لست أفهم، لدى رسالة يتوجب عليّ تسليمها لك ولم أسلّمها، كان يمكن لي أن أفعل ذلك عند مخرج المسرح أو في سيارة الأجرة، أي رسالة هي هذه، فلنتفق على أنني كتبتها بعد حضوري التمرين على عزفك الكونشرتو الخاص بك، هل كنت هناك، كنت هناك، لم أرك، هذا طبيعي، لم يكن بإمكانك رؤيتي، إنه ليس اختصاصي على كل حال، أنت دائم التواضع، ولنتفق على أن هذا لا يعني أن ما تقولينه صحيح، أحياناً، أجل، أما في هذه الحالة فلا، تهاني، فأنت بعيد النظر فضلاً عن تواضعك، وما هي هذه الرسالة، سترى ذلك في حينه، لماذا لم تسلّماني إياها، وقد أتيحت لك

فرصة لذلك، بل فرستان، أكرر بالحاج، لماذا لم تسلمها، هذا ما أريد التوصل إلى معرفته، ربما سأتمكن من تسليمها يوم السبت، بعد الكونشرتو، في يوم الاثنين لن أكون في المدينة، ألا تعيشين هنا، العيش هنا، بمعنى العيش، لا أعيش، لست أفهم شيئاً، التكلم معك أشبه بالوقوع في متاهة بلا أبواب، هذا تعريف جيد حقاً للحياة، أنت لست الحياة، إنني أقل تعقيداً منها بكثير، لقد كتب أحدهم أن كل واحد منا هو الحياة في اللحظة الراهنة، أجل، في اللحظة الراهنة، وفقط في اللحظة الراهنة، إنني راغب في أن يتضح كل هذا التشوش بعد غد، الرسالة، وسبب عدم إعطائي إياها، كل شيء، فقد تعبتُ من الأسرار الغامضة، هذا الذي تسميه أسراراً غامضة يكون حماية في أحيان كثيرة، فهناك من يحتمون بدروع، وهناك من يحتمون بأسرار غامضة، حماية أو لا حماية، أريد رؤية هذه الرسالة، ستراها إذا أنا لم أخطئ مرة ثالثة، ولماذا ستخطئين مرة ثالثة، إذا ما حدث هذا فسيكون السبب هو نفسه الذي أخطأته فيه في المرتين السابقتين، لا تلubi بي، نحن نتكلم كما في لعبة القط والفار، اللعبة التي ينتهي بها القط دوماً إلى اصطياد الفار، إلا إذا تمكّن الفار من تعليق الجرس للقط، جواب جيد، أجل يا سيدي، ولكنه ليس سوى حلم عقيم، مجرد وهم رسوم متحركة، فحتى لو كان القط نائماً، فإن الضجة ستوقفه، وعندئذ وداعاً إليها الفار، أنا الفار الذي تقولين له وداعاً، لو أتنا داخل اللعبة فعلى أحدنا أن يكون الفار بالضرورة، وأنا لا أرى أن لك هيئة القط أو مكره، سيعكم عليّ بعد ذلك أن تكون فأراً مدى الحياة، بقدر ما تدوم هذه الحياة، أجل، فار عازف فيلونسيل، رسم متحرك آخر، لم ألحظ حتى الآن أن الكائنات البشرية تبدو أشبه بالرسوم المتحركة، وأنت أيضاً كما أفترض، لقد أتيحت لي فرصة معرفة ما الذي أبدوا عليه، تبدين امرأة جميلة،

شكراً، لا أدرى إن كنت قد انتبهت إلى أن هذه المحادثة تشبه المغازلة كثيراً، إذا كانت عاملة مقسم الهاتف في الفندق تتسلى بالاستماع إلى محادثات النزلاء، فلا بد أن تكون قد توصلت إلى هذه النتيجة أيضاً، حتى لو كان الأمر كذلك، لن يتمخض عن نتائج خطيرة، فامرأة الشرفة التي مازلت أجهل اسمها، ستغادر يوم الاثنين، كيلا تعود إلى الأبد، إنك واثقة جداً مما تقولين، من الصعب أن تتكرر الأسباب التي دفعتني إلى المجيء هذه المرة، الصعوبة لا تعنى أن ذلك مستحيل، سأتخذ الاحتياطات الضرورية كيلا أضطر إلى تكرير الرحلة، لقد كانت رحلة تستحق العناء على الرغم من كل شيء، على الرغم من أي شيء تعنى، المعدرة، لم أكن دقيقاً، ما أردت قوله، لا تزعج نفسك بإظهار اللطف معى، فأنا معتادة، أضف إلى ذلك أنه من السهل تخمين ما كنت ستقوله لي، وإذا كنت ترى أنه عليك أن تقدم لي تفسيراً كاملاً، فربما يمكننا موافقة حديثاً يوم السبت، ألن أراك حتى ذلك الحين، لا انقطع الاتصال. نظر عازف الفيولونسيل إلى الهاتف الذي مازال في يده الرطبة من العصبية، لابد أنني كنت أحلم، دمم، هذه ليست مغامرة يمكن لها أن تحدث لي. ترك سماعة الهاتف تسقط على مسندها وسأل، بصوت عالٍ هذه المرة، متوجهاً إلى البيانو، إلى فيولونسيل، إلى رفوف الكتب، ما الذي تريده مني هذه المرأة، من تكون، لماذا ظهرت في حياتي. استيقظ الكلب على الضجة ورفع رأسه. وقد كان في عينيه جواب، ولكن عازف الفيولونسيل لم يوله انتباھه، كان يقطع القاعة من جانب إلى آخر، بأعصاب أكثر اضطراباً من السابق، وكان جواب الكلب هو التالي، بما أنك تتكلم الآن في هذا الأمر، فإن لدى ذكرى غامضة عن أنني قد نمت في حضن امرأة، ويمكن أن تكون هذه. وكان يمكن لعازف الفيولونسيل أن يسأل، عن أي حضن تتكلّم، وعن أية امرأة، أنت

كنت نائماً، أين، هنا، في فراشك، وأين كانت هي، هنا، يا للنكتة اللطيفة أيها السيد كلب، منذ متى لم تدخل امرأة هذا البيت، هذا المخدع، هيا، أخبرني، مفهوم الزمن لدى الكلاب، مثلاً لا بد أنك تعلم، ليس كما هو لدى البشر، ولكنني أظن أن زمناً طويلاً قد انقضى منذ آخر مرة استقبلت فيها امرأة في فراشك، ول يكن واضحأً أنني أقول هذا دون سخرية، وهذا يعني أنك كنت تحلم، هذا هو الاحتمال الأكبر، فتحن الكلاب حالمون لا يمكن إصلاحنا، يصل بنا الأمر إلى الحلم وعيوننا مفتوحة، ويكتفي أن نرى شيئاً في الظلمة لتخيل أنه حضن امرأة، ونقفز إليه، وسيقول عازف الفيولونسيل عندئذ، إنها شؤون كلاب، وسيردد الكلب، وحتى لو لم يكن صحيحاً ما تخيله، فإننا لا نندم. وفي غرفتها في الفندق، كانت موت تقف عارية أمام المرأة، ولم تكن تدرى من تكون.

طيلة اليوم التالي لم تتصل المرأة. لم يخرج عازف الفيولونسيل من البيت، كان ينتظر. وانقضى الليل دون أي كلمة. نام عازف الفيولونسيل أسوأ من نومه في الليلة السابقة. وفي صباح يوم السبت، قبل أن يذهب إلى التمرين، مرت في ذهنه فكرة عابرة بالسؤال في الفنادق المجاورة إذا ما كانت لديهم نزلة بهذه الملامة، لون الشعر كذا، ولون العينين كذا، وشكل الفم كذا، والابتسامة كذا، وحركة اليدين كذا، ولكنه استبعد الفكرة الهذيانية، فمن المؤكد أنه سيُصرف فوراً بحركة ارتياح لا جدال فيها والقول له بجفاء، لسنا مخولين بتقديم المعلومات التي تطلبها. لم يكن في التمرين جيداً ولا سيئاً، اكتفى بعزم ما هو مكتوب على الورق، دون أي مسعى آخر سوى عدم الخطأ في نغمات كثيرة. وعندما انتهى هرع ثانية إلى البيت. وكان يفكر في لن تجد، إن اتصلت خلال غيابه، مجيباً آلياً في الهاتف كي تترك ملاحظة، ودمدم متأففاً، لستُ رجلاً يعود إلى

خمسين سنة، إنني ساكن كهوف من العصر الحجري، فالناس جميعهم يستخدمون مجيباً آلياً هاتقياً إلا أنا. وإذا كان بحاجة إلى دليل على أنها لم تتصل، فإن الساعات التالية قدمته إليه. فمن حيث المبدأ، من يتصل ولا يتلقى ردًا، يعاود الاتصال مرة أخرى، ولكن الجهاز اللعين ظل صامتاً طوال ما بعد الظهر، غير عابئ بالنظرات متزايدة اليأس التي يوجهها إليه عازف الفيولونسيل. الصبر، فكل شيء يشير إلى أنها لن تتصل، ربما لم تستطع الاتصال لسبب أو لآخر، ولكنها ستذهب إلى الكونشرتو، وسيعودان معاً في سيارة الأجرة مثلما حدث بعد الكونشرتو الأول، وعندما سيصلان إلى هنا، سيدعوها للدخول، وسيتمكنان عندهما من تبادل الحديث بهدوء، وستسلمه أخيراً الرسالة التي يتلهف إليها وسيجد كلّاهما بعد ذلك الكثير من الظرافة في المديح المبالغ به الذي كتبته، مدفوعة بحماسة فنية، بعد التمرين الذي لم يرها فيه، وسيقول هو إنه ليس روسنوفيتش بأي حال، وستقول هي له إنه لا يعرف ما الذي يحبه له المستقبل، وعندما لا يظل لديهما ما يقولانه أو عندما تبدأ الكلمات الذهاب إلى جانب والأفكار إلى جانب آخر، فسوف يرى عندهما كان بالإمكان حدوث شيء جدير بأن نذكره عندما نشيخ. وبهذه الحالة المعنوية خرج عازف الفيولونسيل من البيت، حمل هذه الحالة الروحية معه إلى المسرح، وبهذه الحالة الروحية دخل إلى المنصة وجلس في مكانه. كانت الشرفة خاوية. لقد تأخرت، قال لنفسه، لا بد أنها على وشك المجيء، فما زال هناك أناس يدخلون إلى القاعة. وكان ذلك صحيحاً، فالمتأخرون كانوا يحتلون مقاعدهم طالبين المغذرة ممن هم جالسون لإزعاجهم بالنھوض، ولكن المرأة لم تظهر. ربما ستأتي خلال الاستراحة. لا شيء من ذلك. ظلت الشرفة خاوية حتى نهاية الحفلة. ومع ذلك، ما زال هناك أمل معقول، إذ يمكن أن يكون قد تعذر عليها

المجيء إلى العرض لأسباب ستبينها له، وقد تكون في انتظاره خارجاً، عند بوابة الفنانين. لم تكن هناك أيضاً. وبما أن للأعمال هذا الدور الذي لا بد لها من أدائه، بتوالدها أملأً بعد آخر، وعلى الرغم من كثرة الإحباطات، فإن الآمال لم تتفد من العالم، يمكن أن تكون في انتظاره عند مدخل العمارة وعلى شفتيها ابتسامة والرسالة في يديها، إليك الرسالة، فالوفاء بالوعد واجب. ولكنها لم تكن هناك أيضاً. دخل عازف الفيولونسيل إلى البيت كإنسان آلي، من النوع القديم، من أول جيل من البشر الآليين، من تلك التي يتوجب عليها أن تطلب إذن من إحدى الساقين كي تحرك الساق الأخرى. دفع جانباً الكلب الذي هرع لتحيته، ترك الفيولونسيل كيفما اتفق له وذهب لينبطح على السرير. تعلم، تعلم دفعة واحدة يا شقيقة الأبله، لقد تصرفت كأحمق كامل، وضفت المعاني التي ترغب فيها لكلمات كان لها في نهاية المطاف معانٍ أخرى، والأدهى أنك لا تعرف هذه المعاني الأخرى ولن تعرفها، صدقـت ابتسامـات ليست سوى تقلصـات عضـلـية محـضـة ومتـعـمـدة، ونسـيـتـ أنـكـ تحـمـلـ علىـ كـاهـلـكـ خـمـسـمـائـةـ سـنةـ علىـ الرـغـمـ منـ آنـهـ ذـكـرـوكـ بـذـلـكـ بـطـرـيقـةـ مشـفـقـةـ، وـهـاـ أـنـتـ هـنـاـ الـآنـ مـطـرـوـحـ مـثـلـ خـرـقـةـ عـلـىـ السـرـيرـ الذـيـ كـنـتـ تـأـمـلـ أـنـ تـسـتـقبـلـهاـ عـلـيـهـ،ـ بـيـنـمـاـ هـيـ تـضـحـكـ الـآنـ مـنـ الـهـيـئـةـ الـمـحـزـنـةـ التـيـ صـرـتـ إـلـيـهاـ وـمـنـ بـلـاهـتـكـ التـيـ لـاـ شـفـاءـ لـهـ. اـقـرـبـ الـكـلـبـ لـمـوـاسـاتـهـ وـقـدـ تـنـاسـ إـلـهـانـةـ الـمـمـثـلـةـ بـصـدـهـ. وـضـعـ قـائـمـيـهـ الـأـمـامـيـتـيـنـ فـوـقـ الـفـرـاشـ،ـ وـرـفـعـ جـسـدـهـ حـتـىـ صـارـ عـلـىـ مـسـتـوـيـ يـدـ سـيـدـهـ الـيـسـرـىـ الـمـهـجـورـةـ هـنـاكـ كـشـيءـ بـلـ جـدـوـىـ،ـ بـلـ نـفـعـ،ـ وـعـلـيـهـ أـسـنـدـ رـأـسـهـ بـرـفـقـ.ـ كـانـ يـمـكـنـ لـهـ أـنـ يـلـحـسـهـ،ـ وـقـدـ كـانـتـ لـلـحـسـهـ،ـ مـثـلـمـاـ تـفـعـلـ الـكـلـابـ الـعـادـيـةـ،ـ وـلـكـنـ الـطـبـيـعـةـ،ـ وـقـدـ كـانـتـ رـقـيقـةـ هـذـهـ مـرـةـ،ـ اـحـفـظـتـ لـهـ بـحـسـاسـيـةـ خـاصـةـ إـلـىـ حدـ يـمـكـنـهـ مـعـهـ اـبـتـكـارـ إـيمـاءـاتـ مـخـتـلـفـةـ لـلـتـعـبـيرـ عـنـ الـانـفـعـالـاتـ الـوـحـيدـةـ نـفـسـهـاـ عـلـىـ

الدوام. التفت عازف الفيولونسيل نحو الكلب، حرك جسده وأحناه إلى أن صار رأسه على بعد شبر واحد من رأس الحيوان، وظللا على تلك الحال، يتبدلان النظرات، والكلام، دون حاجة إلى كلمات، إذا ما فكرتُ جيداً، لن أجد لدى فكرة عنمن تكون، ولكن هذا لا يؤخذ في الحسبان، المهم أننا متحابان. راحت مراة عازف الفيولونسيل تتلاقص شيئاً فشيئاً، الحقيقة أن العالم أكثر من متخم بحوادث مثل هذه، هو انتظر وهي تخلفت، هي انتظرت وهو لم يأتي، وفي العمق، ولبيقَ هذا بينما نحن الارتبابيين والجاحدين، هذا أفضل من كسر في الساق. كان من السهل قول ذلك، لكن الصمت كان أفضل، لأن الكلمات في أحياناً كثيرة مفاعيل مناقضة لما يراد منها، حتى إنه يحدث في أحياناً غير قليلة أن أولئك الرجال أو تينك النساء يُقسمون ويعيدون القسم، إنني أمقتها، إنني أمقتها، ثم ينفجرون في البكاء على إثر تلك الكلمات. جلس عازف الفيولونسيل على السرير، احتضن الكلب الذي وضع قائمته على ركبتي الرجل في إيماءة تضامن الأخيرة، ثم قال كمن يؤنب نفسه، قليلاً من الوقار، أرجوك، يكفي تحسراً وبكاء. ثم توجه إلى الكلب بعد ذلك، أنت جائع، هز الكلب ذيله، في ردّ يعني أجل يا سيدي، إنه جائع، فمنذ كمية كبيرة من الساعات لم يأكل شيئاً، وذهبا معاً إلى المطبخ. عازف الفيولونسيل لم يأكل، لا يشعر بشهية. أضف إلى ذلك أن العقدة التي في حلقه لن تتيح له ابتلاع الطعام. بعد نصف ساعة من ذلك كان في الفراش، وكان قد تناول قرصاً يساعده على النوم، ولكنه لم يفده كثيراً. كان يستيقظ ويغفو، يستيقظ ويغفو طوال الوقت على فكرة أن عليه أن يركض وراء النعاس كي يمسك به ويمنع الأرق من المجيء ليحتل الجانب الآخر من السرير. لم يحلم بامرأة الشرفة، ولكن

كانت هناك لحظة استيقظ فيها وراها واقفة، في وسط قاعة الموسيقى، ويداها متقطعتان على صدرها.

في اليوم التالي، وكان الأحد، والأحد هو اليوم الذي يُخرج فيه الكلب للنزهة. الحب يقابل بالحب، بدا أن الحيوان يقول له ذلك حين صار الحزام في فمه، وهو يستعد للخروج. وفي الحديقة، بينما عازف الفيولونسيل يتوجه نحو المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه، رأى من بعيد أن هناك امرأة تجلس عليه. المقاعد في الحدائق مشاع، عامة، وهي مجانية عموماً، ولا يمكن القول من جاء قبلنا، هذا المقعد لي، تفضل وابحث عن مقعد آخر. لا يمكن لرجل حسن التربية مثل عازف الفيولونسيل أن يفعل ذلك، والآن أقل من أي وقت آخر، بعد أن بدأ له التعرف في تلك الجالسة على المرأة التي رآها وسط قاعة الموسيقى متقطعة اليدين على الصدر. والعينان مثلاً هو معروف لا تتمتعان بالثقة في سن الخمسين، فهما تبدأان بالارتفاع، وتكونان نصف مغمضتين كما لو أنها نريد محاكاة أبطال أفلام الغرب الأمريكي أو بحارة الأزمنة الغابرة، فوق الحصان أو في مقدمة السفينة الشراعية، بيد موضوعة فوق الحاجبين، لتفحص الأفق البعيد. المرأة ترتدي الملابس بطريقة مختلفة، بنطلوناً وسترة من الجلد، إنها امرأة أخرى بالتأكيد، يقول عازف الفيولونسيل لقلبه، ولكن هذا الأخير، وله عينان أفضل، يقول لك افتح عينيك جيداً، إنها هي، ولنر الآن كيف ستتصرف معها. رفعت المرأة رأسها ولم تعد لدى عازف الفيولونسيل أية شكوك، إنها هي. صباح الخير، قال عندما توقف بجانب المقعد، كان يمكن لي أن أتوقع أي شيء اليوم، إلا اللقاء بك هنا، صباح الخير، قالت، لقد جئت لأودعك وأعتذر منك لأنني لم أظهر أمس في الكونشرتو. جلس عازف الفيولونسيل، فكَّ الحزام من عنق الكلب وقال له، اذهب، ثم أجاب دون أن ينظر إلى المرأة، لا وجود لما تعذرين عنه، فهذه أمور تحدث

دائماً، يشتري الناس بطاقات دخول وبعد ذلك لا يستطيعون الذهاب لسبب أو لآخر، إنه أمر طبيعي، وماذا تقول عن وداعنا، ألا رأي لديك، سألته المرأة، إنه لطف كبير من جانبي أن ترى أنه عليك وداع شخص تجهلنيه، وإن كنتُ غير قادر على تخيل كيف عرفتِ أني أجيء إلى هذه الحديقة كل يوم أحد، هنالك أشياء قليلة لا أعرفها عنك، أرجوك، لا أريد أن نرجع إلى المحادثات العبثية التي قمنا بها يوم الخميس عند بوابة المسرح وبالهاتف، أنت لا تعرفي شيئاً عنِّي، فنحن لم نلتقي من قبل قط، تذكر أني كنت في التمرين، ولا أفهم كيف توصلت إلى ذلك، فالمايسترو صارم جداً بشأن حضور الغرباء، ولا تقولي لي الآن إنك تعرفيه، ليس كثيراً مثلاً أعرفك، فأنت استثناء، من الأفضل ألا تكون كذلك، لماذا، أتريدينني أن أخبرك، أتريدين حقاً أن أخبرك، سألهما عازف الفيولونسيل باندفاع يلامس اليأس، أجل، لأنني وقعتُ في حب امرأة لا أعرف شيئاً عنها، امرأة تلعب بي، وغداً ستغادر إلى حيث لا أعرف ولن أعود لرؤيتها، سأغادر اليوم وليس غداً، هذا أدهى، وليس صحيحاً أني كنت ألعب بك، إذا كنت لا تفعلين ذلك، فإنك تجدين التظاهر به، أما بشأن وقوعك في حبي فلا تتظر أن أبادلك إيه، هناك كلمات ممنوع عليها الخروج من فمي، سرّ غامض آخر، ولن يكون الأخير، بعدها الوداع ستحل كل الأسرار، وستبدأ أسرار أخرى، أرجوك، دعيني، لا تعذبني أكثر، والرسالة، لا أريد معرفة شيء عن الرسالة، حتى لو شئت لن أستطيع أن أعطيك إياها، فقد تركتها في الفندق، قالت المرأة باسمة، مزقينها إذاً، سأفكِّر في ما عليّ أن أفعله بها، لا حاجة بك إلى التفكير، مزقينها وكفى. نهضت المرأة واقفة. هل ستذهبين، سألهما عازف الفيولونسيل. لم ينهض، وكان يطرق برأسه، وكان لا يزال لديه ما يود قوله. لم أمسك قطّ، تلعم، أنا التي لم أشاً أن تلمسي، وكيف

توصلت إلى ذلك، الأمر ليس صعباً علىّ، ولا تثنينه حتى الآن، ولا حتى الآن، مصافحة باليد على الأقل، يداي باردتان. رفع عازف الفيولونسيل رأسه. ولم تكن المرأة هناك.

خرج الرجل والكلب من الحديقة بسرعة، اشتريت الساندوبيتشات لتناولها في البيت، لم تكن هناك قيلولة تحت الشمس. كان المساء طويلاً وكثيفاً، تناول الموسيقي كتاباً، قرأ نصف صفحة وتركه جانباً. جلس إلى البيانو ليعزف قليلاً، ولكن يديه لم تتصلعا له، كانتا متعثرتين، باردتين، كأنهما ميتين. وعندما رجع إلى الفيولونسيل، كانت آلة الحبيبة هي من أنكرته. نام على الأريكة، أراد الاستغراق في حلم بلا نهاية، لا يستيقظ منه أبداً. وكان الكلب مستلق على الأرض، ينظر، بانتظار إشارة لا تأتي. وفكرا، ربما تكون المرأة التي ظهرت في الحديقة هي سبب كآبة السيد، وليس صحياً في نهاية المطاف ما يقوله ذلك المثل عن أن ما لا تراه العين، لا يحزن له. الأمثال تخدعنا على الدوام، هذا ما انتهى إليه الكلب. كانت الساعة الحادية عشرة عندما قرّع جرس الباب. جارٌ ما في مشكلة، فكر عازف الفيولونسيل، ونهض ليفتح الباب. مساء الخير، ردّ الموسيقي باذلاً الجهد للسيطرة على الذهول الذي يغلق حلقه، ألن تطلب مني الدخول، بلى بالطبع، تفضلي، أرجوك. ابتعد جانباً ليفسح لها الطريق، أغلق الباب، وفعل كل شيء ببطء، بتمهل، كيلا ينفجر قلبه. رافقها بساقين مرتجفتين إلى قاعة الموسيقى، وبيده المرتعشة أشار إلى الأريكة. قال، ظننتُ أنك قد غادرت، قررتُ البقاء كما ترى، ردّت المرأة، ولكنكِ ستغادرین غداً، هذا ما وعدت نفسی به، أفترضُ أنكِ جئتَ لتوصلي لي الرسالة، وأنك لم تمزقيها، أجل، إنها في حقيبتي، أعطوني إياها إذاً، مازال لدينا وقت، وأتذكري أنني قلت لك إن التسرع ناصح سيئ، مثلما

تشائين، إنني تحت تصرفك، أتقول هذا بجد، إنها نقىصتي الكبرى، فأننا أقول كل شيء بجد، حتى عندما أريد إضحاك الآخرين، وخاصة عندما أُضحك الآخرين، أتجراً في هذه الحالة على طلب معروف منك، ما هو، أن تعوضني عن غيابي عن الكونشرتو أمس، لا أدرى بأي طريقة، لديك البيانو هنا، لا تفكري في ذلك، فأننا عازف بيانو متواضع، أو الفيولونسيل، هذا شيء آخر، أجل، يمكنني أن أعزف لك مقطوعة أو اثنين إذا أصررت، أيمكنني أن أختار، أجل، لكن ذلك، عرض عليها الاختيار، ولكن ضمن ما هو في متناول يدي، ضمن إمكاناتي فقط. تناولت المرأة كتيب السويف السادس لباخ وقالت، هذه، إنها طويلة، تحتاج لأكثر من نصف ساعة، وقد بدأ الوقت يتأخر، أكرر القول بأنه مازال لدينا وقت، هنالك مقطع في الافتتاحية أجد صعوبة في عزفه، ليس مهماً، تجاوزه عند الوصول إليه، قالت المرأة، أو أنه لا حاجة إلى تجاوزه، وسترى كيف أنك ستعزفه خيراً من روسنبووفيتش. ابتسם عازف الفيولونسيل، يمكن أن تكوني على صواب. فتح كتيب النوتة على المسند، تنفس بعمق، وضع يده اليسرى على ذراع الفيولونسيل، وحملت اليد اليمنى القوس حتى كاد أن يلامس الأوتار، وببدأ العزف. كان يعرف جيداً أنه ليس روسنبووفيتش، وأنه لا يتجاوز كونه عازفاً منفرداً عندما تتطلب مصادفات البرنامج ذلك، ولكنه هنا، أمام المرأة، وكلبه مستلق عند قدميه، وفي هذه الساعة من الليل، وهو محاط بالكتب، وبكتيبات الموسيقى، كان جوهان سيباستيان باخ نفسه يؤلف في كوتون ما سيسمى في ما بعد العمل ألف واثني عشر، وهي كثيرة مثلاً كانت أعمال الخلق تقريباً. والمقطع الصعب عُزف دون أن ينتبه هو نفسه إلى العترة التي اقترفها، كانت يدان سعيدتان تجعلان الفيولونسيل يهمس، يتكلم، يعني، يزمر، وهنا ما كان ينقص روسنبووفيتش،

قاعة الموسيقى هذه، وهذا الوقت، وهذه المرأة. عندما انتهى لم تكن يداتها باردين، وكانت يداه تتأرجحان، ولهذا قدمت اليidan نفسيهما إلى اليدين ولم تستغريا. كان الوقت قد تجاوز الواحدة بعد منتصف الليل بكثير عندما سألهما عازف الفيولونسيل، أتریدين أن أطلب سيارة أجرة تقلك إلى الفندق، وأجابت المرأة، لا، سأبقى معك، وقدمت إليه فمها. عندئذ، في حجرة النوم تعريها، وما كان مكتوباً أنه سيحدث حدث أخيراً، ومرة أخرى، ثم أخرى بعد ذلك. نام هو، أما هي فلا. وعنديز نهضت هي، موت، وفتحت حقيبتها التي تركتها في القاعة وأخرجت منها الرسالة البنفسجية. نظرت في ما حولها كمن تبحث عن مكان يمكنها ترك الرسالة فيه، فوق البيانو، أو مثبتة بين أوتار الفيولونسيل أو ربما في حجرة النوم بالذات، تحت الوسادة التي يستريح عليها رأس الرجل. لم تفعل ذلك. ذهبت إلى المطبخ، أشعلت عود ثقاب، عود ثقاب بائس، هي التي يمكنها أن تبدهل الورق بنظرة منها، أن تحوله إلى غبار غير ملموس، هي التي يمكنها أن تحرقه بلمسة من أصابعها، وكان عود ثقاب بسيط، عود ثقاب عادي، عود ثقاب كل يوم، هو الذي أشعل رسالة الموت، هذه التي لا يستطيع أحد سوى موت إتلافها. عادت موت إلى الفراش، احتضنت الرجل، ودون أن تدرك ما الذي كان يحدث، هي التي لم تتم قط، أحسست أن النعاس يُنزل جفنيها ببطء. وفي اليوم التالي لم يمت أحد.